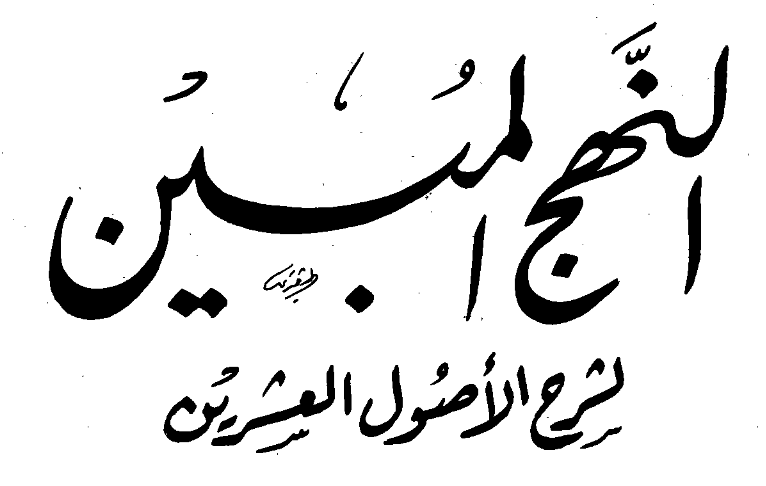
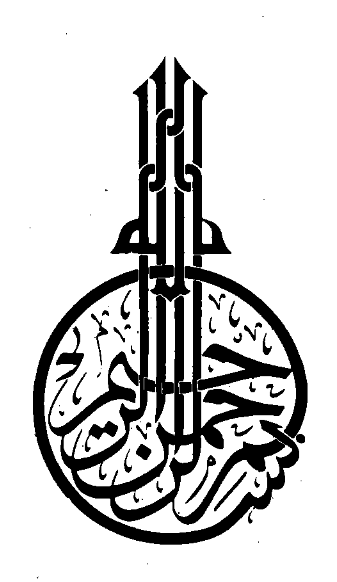


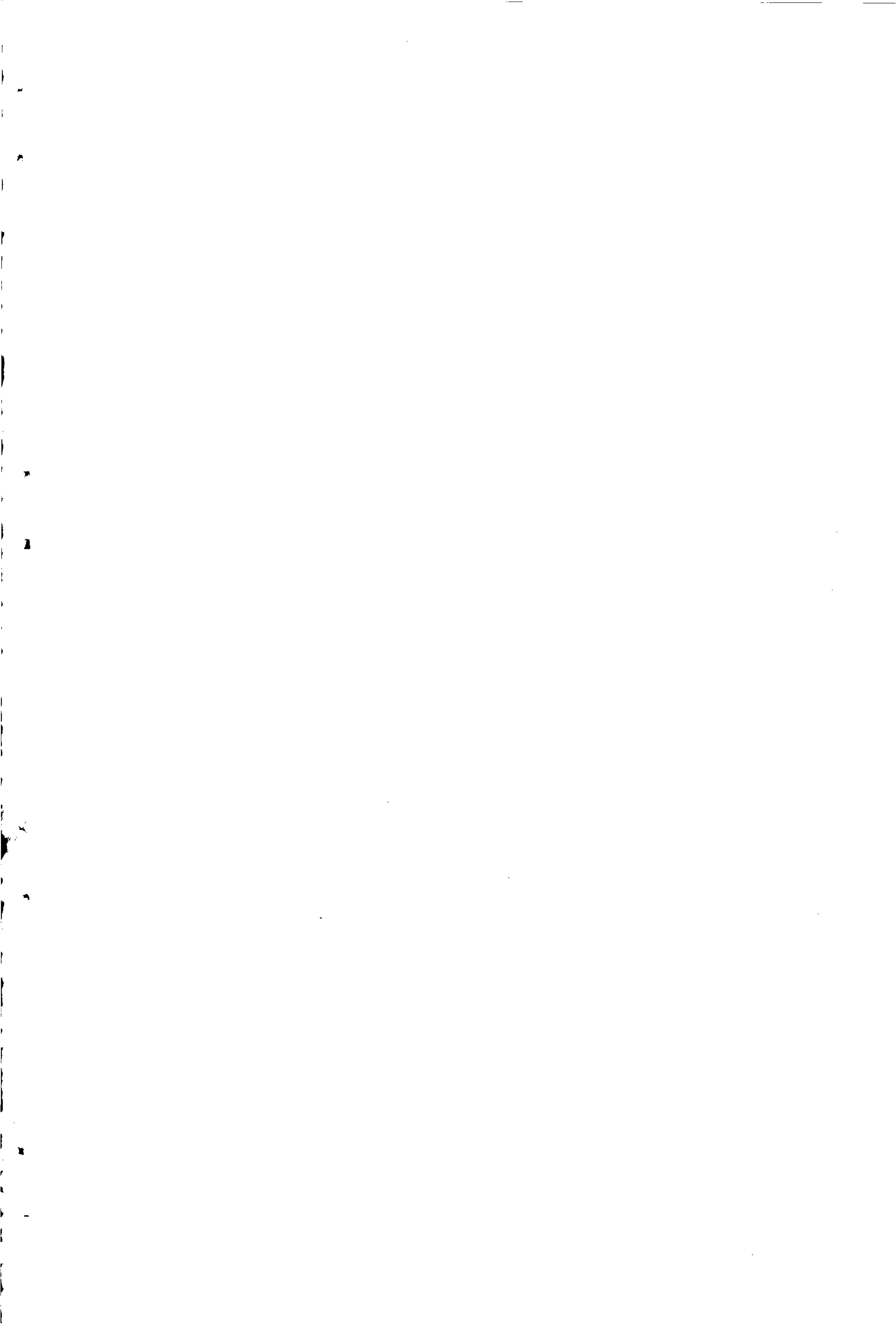
٩ رمضان ١٤٢٩

شرح
عبد الله قاسم الوشلي

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

دار المجتمع للنشر والتوزيع
جدة : ميدان الجامعة ص.ب ٤٠٨٤٥ جدة ٢١٥١١ ت الإدارة ٦٨٩١٤١٧
المكتبة ٦٨٩٤٤٦١
الخبر : شارع الأمير نايف ص.ب ٢٣٢١ الخبر ٣١٩٥٢ ت : ٨٩٤١١٣٦
فاكس : ٨٩٤١١٣٦
المدينة : شارع السحيمي ص.ب ٢٠٢٤٢ ت : ٨٣٨٨٢٩٢
فاكس : ٨٣٨٨٢٩٧


بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة من فسح دار الإفتاء

هذه دراسة : تبين الواجبات الملقاة على عاتق الداعية إلى الله ، والمجاهد في سبيل الله ، وتشتمل أيضاً على المعلومات والنصائح المفيدة للداعية وللمجاهد .

الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية
والإفتاء والدعوة والإرشاد

الإدارة العامة لشئون المصاحف
ومراقبة المطبوعات
رقم ٥٨٧٢/ م في ١٤٠٩/٦/٤هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين المتعالي عن الأضداد والأنداد، المطلع على سرائر القلوب وعلانيتها. أعطى كل نفس خلقها، وهداها فجورها وتقواها، وألهمها منافعها ومضارها. أحمده سبحانه على عظيم مننه وجزيل إحسانه وصلى الله وسلم على محمد عبده ورسوله وخاتم أنبيائه ورسله، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإني أشعر بالشرف العظيم والخير الجسيم بانتسابي إلى الإسلام، الذي جعله الله هو الحق المقبول عنده. وقد دعانا الله سبحانه إلى اتباع هديه، والسير على منهاجه، والدعوة إليه، والغيرة عليه. كما جعل ربنا سبحانه الدرجات العلى لمن دعا إلى الله على بصيرة، فمن وفقه الله ورزقه الاستجابة؛ كتب له الأجر الكبير للداعية والمدعو. ولقد خرج المسلمون الأوائل من جزيرة العرب دعاة هداة مبشرين ومنذرين، ورزقهم الله عز وجل التوفيق لنشر الإسلام في معظم المعمورة، وذلك في زمن لا يتجاوز نصف قرن وقامت دولة الإسلام في أقاصي الأرض ودانيها، ومضى الإسلام قائماً قوياً منتصراً على سائر الأديان طيلة القرون الماضية رغم الهجمات والحروب العدوانية الشرسة.

وفي بداية النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري كان التغيير الهائل واستمر التغيير إلى يومنا هذا؛ حيث بدأت جموع كثيرة من أبناء

المسلمين تنسلخ من دينها انسلاخاً عملياً، ثم تبع الانسلاخ العملي انسلاخ عقائدي وفكري ـ والسبب هو غياب السلطان والقرآن اللذين كانا يحميان العقيدة في نفوس المسلمين طيلة القرون السالفة. وحدث هذا التغيير الهائل بسبب الغزو الخارجي المنظم لأمم الكفر على المسلمين فقد كان الغزو لأمة الإسلام غزواً عقائدياً، يصاحبه غزو عسكري واقتصادي. وكان الغزو العقائدي والفكري في أشدها أثراً على أمة الإسلام وأعظمها فتكاً.

إن المسلمين في القرون الماضية يعلمون علم اليقين أن الإسلام الحنيف صورة متكاملة جاءت من عند الله العزيز الحكيم، وبلغ سيدنا محمد ﷺ هذا الإسلام بلاغاً مبيناً شاملاً حاوياً لكل شيء، فتبين حكم كل شيء وصبغ المسلمين بصبغة الإسلام فحق كل ما صغر من الأمر أو كبر.

لقد حدث التغيير الهائل في حياة المسلمين في مطلع هذا القرن الرابع عشر؛ فتغيرت أخلاق الناس، وتغيرت حاكمية الله في الأرض، وهيمنت النظم والتشريعات الوضعية على المجتمعات الإسلامية. عندئذ أصيبت أمة الإسلام بالبؤس والضياع، وانهارت الكيانات العقائدية للأمة الإسلامية. وأصبح الفرد المسلم ينظر يميناً وشمالاً، فلا يرى إلا حضارة مادية علمانية يقودها الغرب الرأسمالي، أو الشرق الملحد الاشتراكي. كان الفرد المسلم يشاهد حركات وثورات كلها تغييرية؛ وكل ما يقال فيها بأنها لا تمت إلى العقيدة، ولا إلى الأخلاق، ولا إلى الإنسانية بأي صلة البتة. إنها حركات وطنية ضيقة وقومية وشعوبية واشتراكية وشيوعية، وغيرها. وكلها عطشى: للدماء، للقتل، للسحل لهدر الكرامات، لاستباحة الأعراض، للتمثيل بالجثث، لكل لون من ألوان التشفي والانتقام. وهذه الحركات المنحرفة تدور جميعها في فلك واحد المقصود منه؛ مزيد من المآسي والمجازر البشرية الرهيبة. وأصبحت الأمة الإسلامية بحاجة شديدة إلى نهج يوفر لها الأمان والإيمان ويزيل عنها غول البؤس والشقاء وهذا لا يمكن توفره إلا بهذا الدين الذي ارتضاه رب العالمين لنا نوراً وهدى يقول ربنا سبحانه:

﴿ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً. فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾. النساء ١٧٤ ـ ١٧٥.

إن الرجوع إلى منهاج الله عز وجل هو الفلاح والنجاة من غول البؤس والشقاء المدمر الماحق.

ولقد شاء الله عز وجل في نهاية نصف القرن الرابع عشر أن تتأسس حركة الإخوان المسلمين. ففي ذي القعدة من عام ١٣٤٧ هـ وفي مدينة الاسماعيلية بمصر العربية تأسست جماعة الإخوان المسلمين في منزل مؤسس الجماعة ومرشدها الأول الإمام حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا وفي هذا الاجتماع تبايع المجتمعون على إحياء سنة سيد المرسلين بإيقاظ همم المسلمين ليكونوا عاملين مجاهدين في سبيل الله، ومن أجل إعلاء كلمة الله.

ومنذ ذلك الوقت وحسن البنا يؤسس جماعة الإخوان المسلمين، ويتعهد أفرادها بالتكوين والتنظيم والقوة والإعداد، حتى أصبحت حركة تشمل القطر المصري طولاً وعرضاً. وانخرط في صفوفها جميع الطبقات المصرية بمختلف فئاتهم وطبقاتهم، وذلك لما رأوا من صفاء الدعوة وسمو مقصدها، ولما رأوا فيها من أمل منشود في إرجاع أمة الإسلام إلى عظيم مجدها وسؤددها. ولما أحس الإمام الجليل انشتار دعوته في صفوف الأمة وبالأخص في شبابها، بدأ رحمه الله يؤصل لهم منهجاً يسيرون على منواله ويرسم لهم معالم الطريق التي يسلكونها، ليكونوا على هدى وبينة؛ فأنشأ لهم رسالة سميت برسالة التعاليم ضمنها أركان بيعة العمل للإسلام. واعتبر أول هذه الأركان الفهم الذي ضمنه الأصول العشرين التي هي موضوع هذا الشرح.

هذه الرسالة العظمية في منفعتها الغزيرة في علمها لا تزال مورداً عذباً ينهل منها الدعاة كل حسب فهمه ومشربه، والقلة القليلة تناولتها بالشرح

والتمحيص والتأصيل، من حيث توثيق الأدلة، وشرح الدلالات اللغوية والاستطراد إلى ما تحتمله من فقه؛ والرجوع بذلك إلى أصول الأدلة في شريعة الإسلام: كتاب الله، وسنة رسوله، والإجماع، والقياس الجلي. . وهكذا جاء شرح أخي الفاضل العلامة عبد الله بن قاسم الوشلي في كتابه النهج المبين في شرح الأصول العشرين. وهو شرح مفيد قد ألم بهذه الأصول وأتى بما يتحف النفس في شرح هذه الرسالة الجليلة المفيدة والتي قال عنها منشئها ومحررها رحمه الله الإمام حسن البنا: «هذه رسالتي إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين، الذين آمنوا بسمو دعوتهم وقدسية فكرتهم، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها، أو يموتوا في سبيلها. إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجه هذه الكلمات الموجزة، وهي ليست دروساً تحفظ، لكنها تعليمات تنفذ. فإلى العمل أيها الأخوة الصادقون، **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** (التوبة: ١٠٥) **﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾** (الأنعام: ١٥٣).

أما غير هؤلاء: فلهم دروس، ومحاضرات، وكتب ومقالات، ومظاهر واداريات. ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات، وكلاً وعد الله الحسنى.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته». **حسن البنا**

(مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ٣٥٥ طبعة المؤسسة الإسلامية بيروت)

هذا هو نص تصدير رسالة التعاليم للإمام رحمه الله، وباطلاعك على تصدير الإمام رحمه الله تجد أنه قد قصد بأن الرسالة تنفيذية وعملية، وليست ترفاً علمياً، أو موسوعة يضمها الفرد المسلم إلى جملة رفوف مكتبته. بل هي تعاليم يجب تنفيذها بدقة متناهية، لأنها خلاصة الفكر والفقه والسياسة،

وخلاصة فاحصة للتيارات التي كانت موجودة في زمنه. فهو الذي يقول رحمه الله: «نحن نـريـد الفـرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والدولة التي تقود الدول الإسلامية وتضم شتات المسلمين، وتستعيد مجدهم، وترد عليهم أرضهم المفقودة، وأوطانهم المسلوبة، وبلادهم المغصوبة الخ...

(من رسالة: الإخوان المسلمون تحت راية القرآن انظر مجموعة الرسائل ص ١٩٢)

يقول هذا الكلام ومصر العربية وكثير من البلدان تحت نير القهر والاستبداد للدول الكبرى: انجلترا وأمريكا وفرنسا.. يتحرك هؤلاء نحو هذا الداعية المحنك الموفق فاصدروا قرارهم إلى حكومة النقراشي في مصر أن يسرع بحل جماعة الإخوان المسلمين. وتم ما تم حسبما هو مدون في كتبه المعروفة.

إن الأمة الإسلامية بحاجة شديدة إلى تتبع عظمائها، ومن كان له أثر قوي في حياتها ـ ولاسيما هؤلاء الذين كان لهم شأن في عقائدها الدينية وإحياء أمجادها السياسية التي هي قوام حياتهم. إن آباءنا من السلف الصالح قد دونوا في مجلدات ضخام حياة الأعلام من علمائهم وسلفهم الصالح وربما كان الإمام حسن البنا رحمه الله من أكبر الشخصيات في القرن العشرين، ولكن ما قرأته وعرفته لا يزال قاصراً، فنحن في حاجة شديدة إلى بحوث علمية دقيقة لتتحدث عن هذه الشخصية الفريدة من جميع نواحيه المختلفة: عن أسرته ومكانتها العلمية والاجتماعية، وكذلك تتحدث عن آثاره العظيمة قبل موته وبعد موته، ثم عن تلاميذه المنتشرون في أنحاء المعمورة. ونحن تواقون إلى كتابات مجردة عن هذه الشخصية العلمية تبين لنا كل شيء عنه. فهو وإن كانت الشهادة في سبيل الله في أتته في سن مبكر لم تستكمل وتستنفذ جميع مواهبه، إلا أنه يظهر في كتابته أنه شخصية فريدة غير عادية؛ ففيه صفات المجتهد بصفاء فكر ووضوح رؤية للأمور. كما أنه شخص حورب محاربة شديدة؛ فقد قتل ودفنته النساء مع أربعة رجال بينما أتباعه

اليوم بالملايين داخل القطر المصري وخارجه وخاصة دول آسيا وأفريقيا وأوروبا.

فدعوة هذا الإمام لم تعد دعوة محلية في حدود وطن صغير، وإنما غدت دعوة عالمية تشمل العالم الإسلامي بأسره، وتوقظ في المسلمين روح العزة والكرامة والتقوى. فهي اليوم عنون انبعاث لا نوم بعده، وتحرر لا عبودية معه وعلم لا جهل وراءه.

لقد عاش رحمه الله عيشة الغرباء في محيط زعماء مصر، وذلك لاختلاف في طبعه وطابعه، فلما استشهد رحمه الله حدث العجب العجيب، فلم يُصَلِّ عليه في المسجد غير والده الشيخ العجوز الوقور، ومن ثمّ لم يحمل جثمانه غير القَريبات من أهله، ولم يمش خلف نعشه أحد من أتباعه، وهم ألوف وذلك لسبب بسيط، هذا السبب هو الحكم القهري الاستبدادي للملك فاروق ملك مصر، الذي سلط على أتباعه المطاردة والتشريد وزجّ بمعظمهم في سجون مصر.. ولقد كان الجزاء من جنس العمل، لقد مات فاروق ملك مصر ولم يدفنه إلا بضعة أناس من المكلفين من الحكومة بدفنه، وكان فاروق من كان، وسبحان الله كادت الدنيا أن تكون دار جزاء.

وكأني أنظر إلى الإمام حسن البنا رحمه الله وقد انطبق فيه هذا الأثر المروي عن رسول الهدى ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالية وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين». رواه البيهقي.

فرحم الله الإمام حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا وأحسن إليه في رسالته الشاملة الفريدة الأصول العشرين، وشكر الله سعي أخي الكريم عبد الله بن قاسم الوشلي على شرحه الموسع المفيد، وجعل العمل كله خالصاً لوجهه الكريم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٣ رجب سنة ١٤٠٩هـ

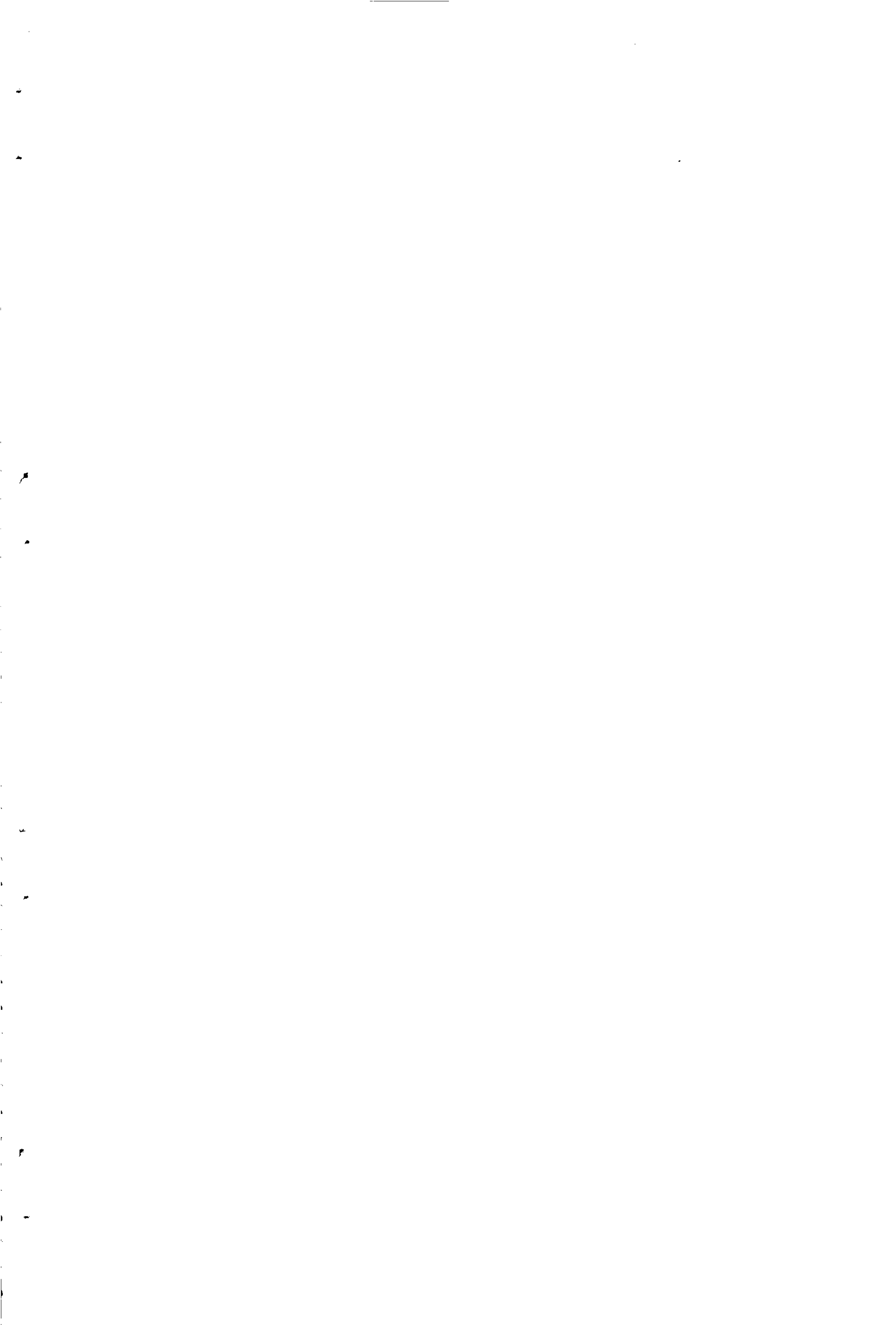
كتبه الراجي عفو ربه

مشرف عبد الكريم المحرابي

عبد الله قاسم اسماعيل الوشلي

ولد في الزيدية عام ١٣٦٩ هـ، تلقى الدراسة بمسجد الشيخ صائم الدهر على الطريقة القديمة، ثم واصل الدراسة الجامعية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وحصل على شهادة الليسانس عام ١٣٩٥ هـ، وعمل بالمعاهد العلمية مدرساً ثم موجهاً اجتماعياً ثم مديراً عاماً للمعاهد بلواء الحُدَيْدَة (باليمن).

واصل الدراسة العليا في المعهد العالي للدعوة الإسلامية (قسم الإعلام الإسلامي).



المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدالله ورسوله. أرسله بالهدى ودين الحق، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، وعبد ربه حتى أتاه اليقين - ﷺ وصحبه الغر الميـامين من اقتفوا أثره وساروا على نهجه، ولم يعوجوا عن صراطه المستقيم. وعلى التابعين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهـذا شرح ليس بـالطويـل الممل ولا المـوجـز المخـل لأصـول الفهم العشرين. الركن الأول من أركـان بيعـة العمـل لـلإسـلام التي ضمنهـا الإمـام الشهيـد حسن البنا رحمـه الله رسـالتـه المسمـاة «رسـالـة التعـاليم» الخـاصـة بالإخوان العاملين المجاهدين الذين آمنوا بالدعوة إلى الله وسُموِّها، وصـدقوا في انتمائهم إليها، فوهبوا أنفسهم - حياة وموتاً - لها مبتغين بـذلك وجـه الله عز وجل لا سواه.

والإمام الشهيد رحمه الله إذا كان قد خص بهذه الـرسالـة هؤلاء الصنف من الناس؛ فإن ما اشتملت عليه من تعـاليم وواجبات ونصـائح لا تخص هؤلاء وانما تعم كل من أراد أن يسلك طـريق النبي محمد ﷺ ويسيـر في سبيله من الأتباع ﴿قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني...﴾. يوسف ١٠٨.

ذلك أن كل ما دعت إليه حق، والحق لا يقصر على أحد، ولا يختص بأحد. وإنما هو موضوع لتنافس المتنافسين، ومسارعة المجدين. والناس على ثلاث حالات: منهم السابق بالخيرات، ومنهم المقتصد، ومنهم الظالم لنفسه.

فهنيئاً للمسارعين، وبشرى للسابقين، ونرجو قبولاً للمقتصدين، وغفراناً للظالم نفسه والله غفور رحيم.

أهمية رسالة التعاليم:

إن رسالة التعاليم رسالة صغيرة الحجم، قليلة الورق، موجزة الألفاظ سهلة العبارة، ميسرة القراءة، جمعت علوماً جمة، ومعاني إسلامية كثيرة، ما يمكن لكاتب أن يكتب عليها من الشرح المجلدات الضخمة. مع أنها على وجازتها أعطت المسلم (وخاصة الداعية العامل) التصور الكامل لما يجب أن يكون عليه المسلم الملتزم، والداعية المخلص، والمجاهد الصادق.

فهي بحق كما وصفها الداعية ـ سعيد حوى ـ من أنضج آثار الإمام البنا والتي تكاد تمثل آخر اجتهاداته الفكرية والعملية التي هي حصيلة استشفاف عام لحركة التاريخ، وواقع المسلمين، ولفهم دقيق للنصوص[1].

ورسالة التعاليم تتألف من قسمين:

القسم الأول: أركان البيعة ـ بيعة العمل للإسلام ـ العشرة: وتوضح المراد من كل ركن، ومقتضيات الالتزام بكل ركن من الأقوال والأعمال التي من شأنها أن تحقق مضامينه وأهدافه في واقع العمل الإسلامي لإصلاح الفرد والمجتمع أو الحكم، والاستقامة على دين الله عز وجل الكامل، كما أنها تعرض وسائل وأساليب يستعان بها على تحقيق الأهداف الأساسية لكل مسلم، والتي يهتف بها دائماً من أن (الله غايته، والرسول قدوته، والجهاد سبيله، والموت في سبيل الله أسمى أمانيه).

---

(١) في آفاق التعاليم ص٥

أما القسم الثاني: فإنها تضمنت واجبات يلتزم بها من آمن بهذه الأركان وسعى إلى تحقيقها، وما تنطوي عليه من معانٍ وحقائق من شأنها أن تساعد الداعية على الوفاء بهذه البيعة. وهذه الواجبات مستنبطة من نصوص الكتاب والسنة التي تلزم المسلم كل مسلم بهذه الأمور إيجاباً واستحباباً وترغيباً، وهي ولا شك من مكملات الشخصية الإسلامية المتوازنة.

موقع الأصول العشرين من رسالة التعاليم:

وأصول الفهم العشرين التي نحن بصدد توضيح مفاهيمها في هذا الشرح هي من أهم ما طرقته هذه الرسالة من موضوعات، بل وأخطرها، لأنها وضعت الأساس الأول بل الأرضية التي تقوم عليها سائر أركان العمل الإسلامي الصحيح وهو الفهم. ولقد أمر الله عباده أن يتصفوا بالفهم قبل أن يتعرفوا عليه في قوله: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله**﴾. محمد ١٩. وأول سورة نزلت على نبينا محمد ﷺ مطلعها الدعوة إلى التحلي بالفهم أولاً في قوله: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾ العلق ١.

ولقد علم ضرورة عند أهل الإسلام أن العلم مقدم على العمل وأي عمل يأتي به صاحبه على غير علم وهدى من الله عز وجل فهو مردود على صاحبه (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) متفق عليه[1].

وتأصيل العلوم وضبط الأعمال على فهوم مبينة ليس من الأمور المبتدعة في الدين.

إذا علمت ذلك فاعلم بأن الإمام الشهيد البنا رحمه الله قد وفق أيما توفيق في وضع هذه الأصول في عصرنا هذا كما وفق من سبقه من المجددين والمجتهدين في وضع أصول العلوم وقضايا وأعمال اقتضاها الظرف والساعة ومصلحة الحفاظ على الإسلام والفهم الصحيح للمصادر التشريعية على مدار التاريخ من زمن الصحابة والتابعين وحتى عصرنا هذا وليس هذا العمل من الأمور المبتدعة في الإسلام ولكنه من الأمور التي حفظ الله عز وجل بها دينه ليبقى إلى أن يرث الأرض ومن عليها، ولقد حفظ الله دينه بحفظ مصادره

---

(١) صحيح البخاري ٣/٢٤١ وصحيح مسلم ٣/١٣٤٤ واللفظ له.

التشريعية (الكتاب والسنة) من أن تمتد إليها يد التغيير والتبديل فقال: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ الحجر: ٩ وبرعاية وتولي صنف من خلقه باقين ببقاء الدين وفي كل العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها رزقهم الفهم الصحيح لهذه المصادر ويحرصون على تطبيقها ليكونوا حجة على خلقه ودليلاً واقعياً لكل أمة بأن الإسلام صالحٌ لكل زمان ومكان والدين المرضي عند رب العالمين إلى يوم الدين، هذا الصنف هم طائفة الحق التي لا يضرها من خالفها حتى تقوم الساعة كما وردت بذلك الآثار وهذا الصنف هم الذين وكل إليهم ضبط الفهم الصحيح لتلك المصادر الشرعية ولذلك السلوك والعمل بمقتضى ما تأمر به تلك المصادر وترشد إليه، وهذه أمثلة توضح أن هذا عمل درج عليه الأوائل وسار عليه الأكابر وتبعهم على ذلك الخلف والأصاغر خاصة عندما تتشعب الأفكار وتطغى الأهواء وتتحكم الشهوات في الأمة ويَمُوجُ الناس في الفتن موجاً فيكون عند ذلك في الأمة من يرشدها ويهديها ويؤصل لها حتى تعود إلى ما كان عليه أولها وعلى سبيل المثال: لقد خشي على أن يكون الأداء للقرآن الكريم تلاوة وتطبيقاً ليس على الهيئة التي نزل بها الوحي على محمد ﷺ وتلقاه منه صحابته الكرام فهيأ الله رجالاً من القراء والحفاظ من يؤصلون لهذا الأمر حتى لا يختلف الناس فيه فيهلكوا فكان من نتيجة ذلك أن أوجد (علم القرآن والتجويد) وهو أصول وضوابط لهذا الباب. ولقد تشعبت الأفكار واختلفت الفهوم حول تفسير كتاب الله عز وجل ومراد الله عز وجل من عباده في هذا النص فهيأ الله عز وجل من ضبط هذا العلم (علم التفسير) بأصول لكيفية تفسيره وإيراد معانيه بعلم آخر سموه (أصول التفسير)، ولقد لعبت الأهواء والانتماءات دوراً كبيراً في تشويه السنة وإدخال ما ليس منها عليها فهيأ الله رجالاً يخدمون السنة وينقحونها مما علق بها من كذب وتزوير وأصلوا لهذا الباب أصولاً عجز علماء الدنيا إلى وقتنا هذا أن يأتوا بمثله سموه بعلم (الرجال ومصطلح الحديث).

وتباينت الفهوم في استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة على أن تذهب بعيداً عن الحق نزولاً عند الهوى واشتياقاً مع العاطفة أو تفاعلاً مع

الرحمة فهيأ الله رجالاً مجتهـدين متجردين فضبـطوا الفهم والاستنباط بـأصول يلزم بها المجتهد النـاظر في كتـاب الله وسنة رسـوله ﷺ لاستخـراج الأحكام الشرعية وسمـوه بعلم (أصول الفقـه) وتشعبت المعتقدات بسبب علم الكـلام والفلسفـة فهيأ الله رجـالاً ضبطوا هـذا التشعب بمعتقد أهـل السنـة والجماعة بتأصيل معتقداتهم وتحديد وقوفهم عند النص وعدم تجاوزه.

ولقد وجدت دعوات كثيرة افترقت عليها الأمة واختلفت فيما بينهـا وكما بين ذلك رسول الله ﷺ (إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)(١). فكانت هذه الفرقة على الحق دائماً وفي كل زمان ومكان تؤصل للأمة أصولاً عملية بها تضبط المسار وتوجه المصير وتحكمه في كل شيء بكتـاب الله وسنة رسوله ﷺ وكان ذلك يتمثل في المجددين الذين ذكرهم الرسول ﷺ في قـوله (إن الله ليبعث على رأس كل مائـة سنة من يجـدد لهذه الأمـة أمر دينهـا)(٢). فكـان لكل قـرن مجدد يضـع أصول فهم للعمـل الإسلامي والـدعوة إليـه في عمـره فيتحقق على يديـه خير كثيـر لأمة الإسـلام في مقدمتهـا تقريب الفهـوم وتجميع الجهود، وتوحيد الأفكار حتى يتجه الجميع إلى الخطر الواحد الـذي يدهمها فينجـون بذلك من مخاطر كثيرة كانوا واقعين فيها.

ضرورة هذه الأصول لفهم العمل الإسلامي المعاصر:

وحتى القرن الرابع عشر الهجري الذي كان أحد المجـددين فيه الإمـام الشهيد حسن البنا بشهادة كثير من علماء عصره ورجـاله حيث وضـع القواعـد للعمل الإسلامي لهذا العصر بعد أن استوعب الكتاب والسنة فهماً، والتاريـخ بعبـره وعظاتـه، وسنن الله في خلقه استقـراءاً والواقـع الـذي يعيشـه احـاطـة وشمولاً، فكان من نتـاج ذلك كله أن وضـع هـذه الأصول عـلاجاً لكثيـر من الأمراض التي فتكت بأمة الإسلام وكادت أن تودي بها إلى الهلاك لولا أن الله

---

(١) انـظر جامـع الأصول ١٠/٣٣ قال المحشي رواه أبو داود رقم ٤٥٩٦ في السنـة والترمـذي رقم ٢٤٢ في الإيمان وقال الترمذي حديث أبي هريرة حسن صحيح وهو كما قال.

(٢) رواه أبو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة رضي الله عنه ورمز له السيوطي في جامعه بالصحة، الجامع الصغير: ٧٢.

عز وجل أنقذها بمثل هذا الرجل وغيره وألهمه أن يضع لأمته العلاج ويدلهم عليه وكان أنجع أنواع المطروح لهم في هذه الأصول العشرين ولندع سعيد حوى ـ رحمه الله ـ ليبرز لنا هذه الحقائق فيقول:

«عندما بدأ الأستاذ دعوته كانت الأمة الإسلامية قد وصلت إلى حالة بعيدة من الفوضى الفكرية: فهؤلاء ناس كفروا بالإسلام. وآخرون قصروه على بعض الشؤون، وآخرون اعتقدوا للقرآن باطناً يخالف الظاهر وآخرون انطلقوا من خلال مفهوم خاطىء للولاية كادوا به أن يستغنوا عن هدي النبوة وهؤلاء ظنوا أن الدين يخالف العلم أو العقل، وآخرون فهموا أن الإسلام هو كل ما هو شديد، وآخرون تسرعوا في الكفر والتكفير وآخرون تساهلوا في كل شيء، وأكثر المسلمين استسلموا لإبعاد الإسلام عن مجالات الحكم والتقنين وكان هذا كله يحتاج إلى علاج وكان هذا العلاج في هذه الأصول العشرين التي تقضي علي الفهم الخاطىء.

ولقد كان من مظاهر الفوضى الفكرية في الأمة الإسلامية أن اختلط ما هو أصل بما هو فرع وتصلب الكثيرون لفروع حاربوا من أجلها إخوانهم المسلمين وصنع آخرون أصولاً وحاربوا من دعاهم إليها مع أنها حق خالص وبمثل هؤلاء لا يمكن أن ينطلق المسلمون في صف واحد فكانت هذه الأصول العشرين علاجاً لواقع مريض ويتحدد فيه ما هو أصل لا يصح التساهل فيه وما هو فرع يمكن الالتقاء مع الاختلاف فيه.

ونتيجة لمسيرة تاريخية طويلة تكثفت فيها عوامل الفرقة والخلاف بين المسلمين ونتيجة لاستحالة الانطلاق مع وجود خلل في أصل الفهم كان لا بد من أرضية مشتركة للفهم تشكل قاسماً مشتركاً أعظم بين المسلمين دون أن يكون ذلك على حساب حق، وكانت الأصول العشرون بتوفيق الله عز وجل تحقق ذلك كله. لقد ذكّرت الناسين وخفّفت من الغلو ووحدت من الفرقة وضبطت المسار ولا نعرف أحداً في عصرنا استطاع أن يجمع كل المنصفين على معان ينطلقون من خلالها في صف واحد كحسن البنا رحمه الله بهذه الأصول العشرين التي ألهمه الله إياها وألهمه جمعها.

معرفة الإسلام فريضة، ومعرفة الأحكام فيه فريضة، وما يفترض على كل مسلم أن يعرفه من أحكام يختلف باختلاف الشخص وعلمه ومسؤوليته.

وركن الفهم جمع فيه الأستاذ النبا كل ما لايصح لكل مسلم أن يجهله، اما لما يترتب على الجهل به من إنكار لمعلوم من الدين بضرورة فذلك كفر وإما لما يترتب على الجهل به وعدم الالتزام من قصور، واما لما يترتب على الجهل به من خطر على الاعتقاد أو خطر على عقد الإخاء بين المسلمين أو خطر على وحدة الحركة الإسلامية أو خطر على وحدة الصف أو خطر على المفاهيم الكلية للمسلم أو خطر على المسلمين أنفسهم[١]».

تلك أهم مقتضيات ضرورة هذه الأصول للفهم في واقعنا المعاصر وهي ولا شك من ضروريات العمل الإسلامي وبخاصة وهي أصول فهم لا أصول دين كما يتوهم البعض بل وما قال به جامعها ولا من اتبعه وشرحها بعده، ولما كانت هذه الأصول من الأهمية في واقعنا المعاصر بمكان فقد كانت موضع اهتمام من كثير من دعاة الإسلام ومفكريه وتكاد تكون معظم كتابات رجال الفكر المعاصر من الذين تتلمذوا على الإمام الشهيد حسن البنا وتتلمذوا على تلامذته ملتزمة بهذه الأصول في فهمها للإسلام والعمل به ومنضبطة بها وحريصة على نشرها وتعميم مفاهيمها على الكثير من شباب المسلمين ورجالهم.

ومن اهتمام أهل الفكر بها أيضاً اتجاه الكثير إلى شرحها وتوضيح معانيها إما ضمناً لبعض كتبهم أو استقلالاً في مؤلف خاص، إلا أن هذه الشروح لم توف هذه الأصول حقها من البيان والتوضيح في جميع الجوانب وفي مختلف الموضوعات التي طرقتها ولا زالت بحاجة إلى شرح يوضح مفردات الكلمات حتى لا يكون فيها لبس أو غموض وينبه على المحترزات حتى لا يفهم غير المراد ويعيد المتعلقات إلى مراجعها حتى لا يقع الخطأ.

---

(١) في آفاق التعاليم ١٠٦

ويثبت الفكرة بعرض الدليل الثابت من الكتاب والسنة ويربط كلام الإمام الشهيد بما قرره من سبقه من المجددين باعتبار أن الكل يخرج من مشكاة واحدة وينبه على النكات المهمة التي أراد الشهيد رحمه الله أن يلفت إليها الدعاة ليعنوا بها ويحرص على الالتزام بالمبدأ الذي التزمه الشهيد من البعد عن مواطن الخلاف وعدم التجريح للهيئات والجماعات. . . الخ.

والحقيقة أن هذه الأصول تحتاج في شرحها إلى متخصصين في كثير من العلوم الشرعية والكونية حتى يوفوها حقها من الشرح والبيان.

إلا أن هذا المطلب يصعب تحقيقه في هذه الآونة لانشغال الكثير بقضايا هامة في ميدان العمل للإسلام والدعوة إلى الله عز وجل وسد حاجات الأمة: المتجددة والمتشعبة، للعمل الدؤب المستمر، ولهذا قلّ شراحها من ذوي القدرة والأهلية رغم الاحتياج الملح لذلك.

وفي مجلس مذاكرة مع بعض الإخوة تركزت على هذه الأصول وما حوته من علوم ومفاهيم ضرورية للدعاة العاملين للإسلام والحاجة الملحة إلى شرح يجمع معظم المعاني التي سبق ذكرها وبعد استعراض للشروح المتداولة بين القارئين حسّن الظن في من لا أقدر على دفع طلبه ولا مخالفة رأيه وطلب مني الموافقة على القيام بشرحها وألح علي وجد، مع أنني لست ممن يصلح لهذا الطلب الخطير لقلة بضاعتي العلمية من جانب ولعدم تخصصي في كثير مما تعرضت له الأصول من علوم من جانب آخر وعندما لم أجد بداً من المخالفة استعنت بالله عز وجل ورجوته سبحانه السداد والتوفيق فبدأت على اسم الله عز وجل في هذا الشرح الذي بين يدي القارىء والذي أرجو أن أكون قد سددت وقاربت قدر المستطاع وانتظر البشارة الموعود بها فإن أصبت فمن ربي وإن اخطأت فمن نفسي والله المستعان.

وقد سلكت في الطريقة والأسلوب مسلكين في الشرح:

أحدهما: إجمالي تحت عنوان (بين يدي الأصل) حرصت قدر المستطاع أن أضمنه المجمع والمتفق عليه أو على الأقل الذي عليه الأكثر من

المفاهيم المذكورة في هذا الباب أوضح بها مراد الشهيد في ذلك الأصل مع ربطه بالدليل وقد أغفل لشهرة الدليل ووضوح الإجماع فيه.

والثاني: تفصيلي تحت عنوان (التوضيح والبيان) وقد ضمنته معاني الكلمات المفردة وبيان المحترزات واعادة للتعلقات وعرض الأدلة والشرح بكلام الأئمة السابقين وخاصة المجددين من أمثال ابن تيمية وابن القيم وابن عبد السلام والشاطبي والنووي والشوكاني وغيرهم ممن سبقهم من الأئمة ومن جاء بعدهم من رجال التفسير والحديث والأصول والفقه والتاريخ والعقائد وغيرها وقد حاولت قدر المستطاع أن أختار العبارات السهلة وعرض المعاني الإجمالية والمقارنة بالأمثلة المقربة للفهم والموضحة للمعنى.

أرجو أن أكون قد وفقت واحتسب ذلك وأرجو أن يجعله في ميزان حسناتي وأن يغفر لي ولوالدي الهفوات ويجعله خالصاً لوجهه الكريم والله على ما أقول وكيل.

المؤلف

يقول الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله:

«أيها الأخ الصادق: إنما أريد بالفهم: أن توقن بأن فكرتنا إسلامية صميمة وأن تفهم الإسلام كما نفهمه في حدود هذه الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز».

التوضيح والبيان

(أن توقن) اليقين يطلق على العلم، وإزاحة الشك وتحقيق الأمر لغة، فهو بهذا المعنى نقيض الشك وضد الجهل وخلاف الأمر المحقق[1].

والمراد به هنا أن تصل قناعتك التي توصلت إليها من خلال العلم والمعرفة للأدلة وملاحظة السلوك والتطبيق إلى درجة اليقين الذي لا يخالطه شك أو ريب من أن (فكرتنا) وهي ما تضمنته دعوتنا من الحقائق لأن الفكر والفكرة اسم للنتيجة التي يتوصل إليها الإنسان بتفكره وتأمله.

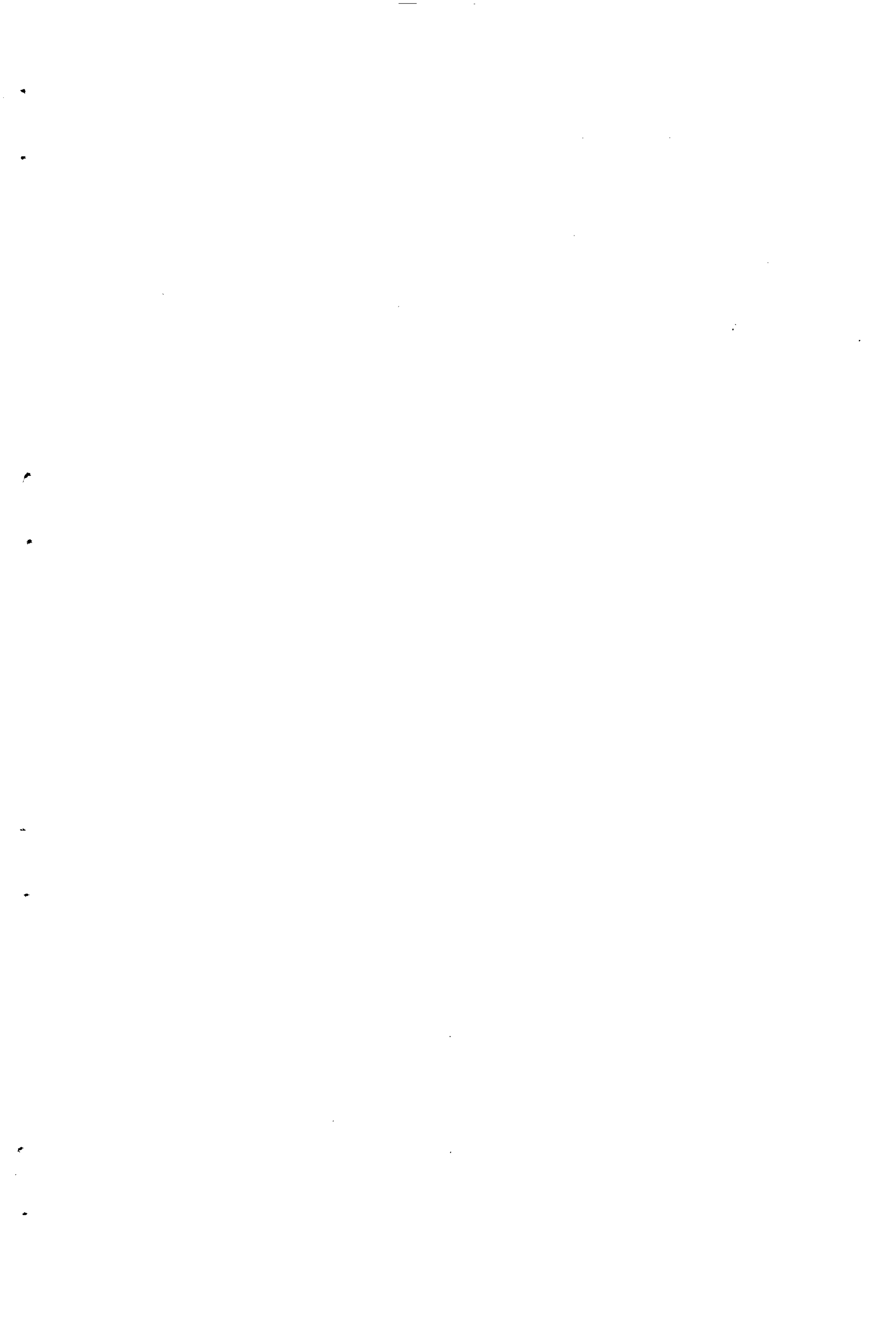
ولما كان الفكر هو الأداة الموصلة إلى هذه الحقائق فقد تجوز في إطلاق حقائق الإسلام ومعانيه على الفكرة لعلاقة السببية وذلك لأن الإسلام ليس نتيجة فكرة وإنما هو منزل من عزيز حكيم يجب أن تسلم له العقول وتنضبط به الأفكار ولا تحيد عنه وهذا ما أراده الشهيد البنا رحمه الله بقوله

(١) انظر لسان العرب: ٣/٤٥٧ مادة يقن.

(إسلامية صميمـة) فهي تستمد اهـدافها ومقـاصدهـا ووسائلهـا وأساليبهـا من الإسـلام وحده لا سـواه. فليست غربيـة ولا شرقيـة ولا مزيـج منهما، ولا من إملاء الهوى والنفس وحظوظها (إن الدين عند الله الإسلام)[1] (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)[2]. فإذا وصل بـك اليقين إلى هذا الاعتقاد فاعلم أن صحة فهمك مربوط انضباطه بأصول الفهم العشرين. ولذا فعليـك كما قـال الشهيد: (أن تفهم الإسـلام كما نفهمـه في حدود هذه الأصول العشرين) وهي:

(١) آل عمران ١٩ .

(٢) آل عمران ٨٥ .



الأصل الأول

شمولية الاسلام

الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً:

فهو: دولة ووطن: أو حكومة وأمة.

وهو: خلق وقوة: أو رحمة وعدالة.

وهو: ثقافة وقانون: أو علم وقضاء.

وهو: مادة وثروة: أو كسب و غنى.

وهو: جهاد ودعوة: أو جيش وفكرة.

كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء.

بين يدي الأصل الأول

١ ـ هذا الأصل: كان أوائل المسلمين لا يحتاجون إليه لأنهم كانوا يعتقدون أن إسلامهم شمل كل شيء. ويفهمونه على هذا الأساس بفطرتهم السليمة وسليقتهم العادية حتى قال خليفتهم الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه (لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله)[١].

وكانوا يحرصون على تطبيق الإسلام كلية، ودون أن يكون لهم الخيار فيه ولا في بعض أجزائه، وكانوا يحذرون من الدخول في نطاق معنى قوله تعالى: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون**﴾. (البقرة: ٨٥).

وإنما احتاج إليه المسلمون فيما بعد لتأثر فطرتهم وتغير سليقتهم ولما أصاب ايمانهم من دخن وتصوراتهم من غبش وفهمهم من تشويش بسبب العلوم الأعجمية الدخيلة عليهم من البلدان المفتوحة والاختلاط بأهلها والتأثر بثقافاتها.

٢ ـ بهذا الأصل تتهاوى الفهوم المغلوطة والمتجنية على الإسلام ممن يجهلون الإسلام من أبنائه المسلمين بغير قصد أو بقصد مجاراة لأعداء الإسلام أو ممن أعلن العداء للإسلام، وابتغى التشكيك فيه والتنفير منه، وحاربه فكراً وواقعاً ووجوداً، وظن أنه مطفىء نور الله، وما درى أن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

---

(١) أنظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٤/ ٣٠ ـ ٣١ .

٣ ـ أن فهوماً مغلوطة، أو قاصرة شاعت في الأمة المسلمة حول شمولية الإسلام لمظاهر الحياة جميعاً، وأردات أن تحصره على الناحية الروحية والشعائرية ظلماً وعدواناً مع أن هذه الفهوم تتعارض تماماً مع ما دعا إليه وشرع ونظم وصيغت تلك الفهوم في قوالب زخرف القول غروراً، فانطلت على بعض السذج من بعض المسلمين وجهلتهم فتلقفوها كما تتلقف الببغاء الكلام بغير وعي فتردده، وأصبح المسلمون في حاجة إلى تعرية تلك الشبهات والأضاليل وإلى بيان وتوضيح حقيقة الإسلام وما حوى من مبادىء وتشريع في كل جوانب الحياة.

وصاغ الشهيد حسن البنا رحمه الله هذه المعاني في هذه العبارات: لتكون أصلاً لفهم هذا الشمول، فكانت تصحيحاً لفهوم الكثيرين من الدستوريين، والقانونيين والسياسيين والاجتماعيين والاقتصاديين كما هو تصحيح لفهوم العامة والخاصة على السواء، ولذلك كان هذا الاصل ضرورياً لا بد منه.

التوضيح والبيان

(الاسلام):

بمعناه العام هو اسلام الوجه لله: أي التوجه الكامل الى الله والخضوع والانقياد التام لأوامره سبحانه حيث يقول تعالى: ﴿**ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾ النساء ١٢٥.

ويشترط فيه أن يكون اختيارياً لا قسرياً، لأن الخضوع القسري لله سبحانه رب العالمين أي لسنته الكونية ـ أمر عام لجميع المخلوقات ولا ثواب فيه ولا عقاب، قال تعالى: ﴿**أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون**﴾ ﴿آل عمران ٨٣.

فكل مخلوق خاضع لله ولسننه في وجوده وبقائه وفنائه والإنسان كغيره من المخلوقات في هذا الخضوع القسري.

أمـا الخضوع الاختيـاري لله رب العالمين فهـذا هو جـوهـر الإسـلام، المـطالب به الإنسـان وعليه يكـون الثواب والعقاب ،ومظهـره: الانقياد التـام لشرع الله بتمام الرضى والقبول ولا قيد ولا شرط ولا تعقيب.

ومن ثم كان الإسلام بهذا المعنى هو دين الله المرضي عنده وأوحى به إلى رسله الكرام وبلغوه إلى الناس قال تعالى: **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾** آل عمران ١٩.

وقـال تعالى: **﴿ومن يبتغ غيـر الإسـلام دينـاً فلن يقبـل منـه وهـو في الآخرة من الخاسرين﴾** آل عمران ٨٥.

وقـال تعالى: **﴿ومن يسلم وجهـه إلى الله وهـو محسن فقـد استمسـك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور﴾** لقمان ٢٢.

وقال تعالى: **﴿ووصى بها ابراهيم بنيـه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾** البقرة ١٣٢.

إلا أنه لما كـانت الرسـالات السابقـة للرسالـة الخاتمـة خاصـة بعشائـر كمـا قـال تعـالى: **﴿ومـا أرسلنـا من رسـول إلا بلســان قـومــه ليبين لهم﴾** إبـراهيم: ٤. أو بأمم **﴿ولقد بعثنـا في كل أمـة رسولاً أن اعبـدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾**. النحل: ٣٦.

وكانت هذه الرسالات تمهيداً وتدريباً إلى دين عام حتى يتم استعداد البشر إلى قبول دين عام يهيمن على ما سبقه من رسالات، باكتمال أصوله وفروعه، صار اسم الإسلام علماً على هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ ليكـون الدين العام للبشر وهو الذي سمـاه الله بهذا الإسم في قـوله تعـالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسـلام ديناً﴾** المـائدة: ٣. وهو الذي سمى الله من التزمه بالمسلمين قال تعالى: **﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾** الحج: ٧٨. ويقابل الإسلام: الجاهليـة. فما من جـزء من الإسلام إلا ويقابله جاهلية، يؤيد هذا القول قول رسول الله ﷺ لأبي ذر عندما تصرف

في قضية تصرفاً غير إسلامي (إنك امرء فيك جاهلية)[1]. وقال تعالى: ﴿**ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾ الأحزاب: ٣٣. فالستر إسلام وما قابله جاهلية، وقول عمر: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فيكم من لا يعرف الجاهلية»[2].

هذا الإسلام المعروف بما وصف وذكر هو الموصوف بكونه:

(نظام)

والنظام في اللغة ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره. وكل شعبة منه - وأصله نظام، ونظام كل أمر ملاكه، والجمع أنظمة وأناظيم ونُظُم.

ويأتي النظام بمعنى الهَدْيَة والسيرة، يقال ليس لأمرهم نظام أي ليس له هدى ولا استقامة، وما زال على نظام واحد أي عادة[3] فمعنى هذه الكلمة اللغوية عندما وصف بها الإسلام تشعر بانتظام العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع في سلك واحد يربطها به الإسلام نفسه، كما تشعر بالتفاعل بين هذه الأقسام في الإسلام.

وواقع الإسلام نظرياً وعملياً يدل على ذلك دلالة لا يشك فيها إلا معاند أو مكابر، أو من لا يفهم الإسلام فهماً حقيقياً كما أنزل وطبق واقعاً في حياة الأمة الإسلامية أربعة عشر قرناً، ولا يزال حجة قائمة على الخلق بمصادره المحفوظة - كتاب الله وسنة رسوله ﷺ - وتاريخ الأمة المسلمة الصحيح.

نجد ذلك ماثلاً في شعائره التعبدية القائمة على النظام، ومتى اختل نظامها لا تكون صحيحة ولا مقبولة عند الله، وعلى سبيل المثال الصلاة وخاصة صلاة الجماعة، نجد أنها أقيمت على أسس نظامية منقطعة النظير،

---

(١) أخرجه البخاري: ١/١٤.

(٢) الإسلام - سعيد حوى ١٤٠.

(٣) انظر لسان العرب: ١٢/٥٧٨ مادة نظم.

فالإمام، ورص الصفوف، وتلاصق أفرادها ببعضهم وعدم السماح بالتقدم أو التأخر عن الإمام، والمتابعة للإمام في أحواله وحركاته وسائر أفعاله أكبر دليل على ذلك، ولقد علم الرسول ﷺ أصحابه عملياً هذه الصلاة بهذا النظام، وقال لهم بعد الانتهاء (وصلوا كما رأيتموني أصلي)[١]. وقال لهم (إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا وإذا ركع فاركعوا. . .) الحديث[٢].

وهكذا نجد أن النظام ملازم لكل العبادات والشعائر: في الصوم، في الزكاة، في الحج، وغيرها.

وفي الشؤون الاجتماعية: أيضاً النظام في الإسلام أساس لها ابتداءً من أول وحدة صغرى وهي الأسرة المكونة من الرجل والمرأة، إلى أكبر وحدة فيها وهي الأمة الممثلة في الخلافة.

فالأسرة قائمة على أساس نظامي بديع فريد فالرجل صاحب القوامة والمرأة مطلوب منها الطاعة ويتوسع النظام بتوسع الأسرة من الذرية بحقوق الأبوين والطاعة لهما ثم تتوسع دائرته في الأقارب (ذوي الأرحام) ثم الجيران، ثم المؤمنين جميعاً ثم بني الإنسان كلهم.

وينتقل النظام إلى حقل الخلافة وولاية الأمر «اسمعوا واطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي»[٣].

وأما في النواحي العسكرية والجهادية: فقد عجزت الأنظمة القديمة والحديثة أن تأتي بمثل نظامه. ولقد سطر القرآن الكريم ذلك في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص**﴾. الصف: ١.

ومن خصائص الإسلام أنه يربط الالتزام بالنظام بصدق الإيمان والالتزام به قال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا**

---

(١) صحيح البخاري: ١/١٦٢.
(٢) صحيح البخاري: ١/١٨٧.
(٣) صحيح البخاري: ٩/٧٨.

معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله. . . الآية﴾. النور: ٦٢.

ويهدف نظام الإسلام من ذلك كله إلى تهيئة إنسان ومجتمع مصوغين صياغة حسنة ربانية، قال تعالى: **﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾** البقرة: ١٣٨. وإلى إنشاء حضارة تحدد علاقتها بكل وضوح مع عالم الغيب من جهة ومع البيئة الإنسانية من جهة أخرى، أي مع الله والغيب أولاً. ومع الإنسان وإخوانه ثانياً، ومع الكون الذي يعيش فيه ثالثاً[1].

وكما أن الإسلام موصوف بأنه (نظام) فهو موصوف بكونه: (شامل) الشمول في اللغة: بمعنى الإحاطة بالشيء. والإسلام إحاطة بكل شيء بياناً وتفصيلاً قال تعالى: **﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾** النحل: ٨٩. وقال تعالى: **﴿ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء﴾**. يوسف: ١١١. وقال تعالى: **﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾**. الأنعام: ٢٨.

«إن من تأمل هذه النصوص أدرك أنه ما من قضية من قضايا المكلفين إلا ولله فيها حكم، سواء كانت من العقائد أو من العبادات، أو من مناهج الحياة، في قضايا الدولة أو الوطن أو الأحلاف أو القضاء أو الاقتصاد أو السياسة أو القانون إلى غير ذلك.

إنما كان القرآن تفصيلاً لكل شيء، إما بما تحدث عنه بشكل مباشر أو بما أحال عليه من نصوص السنة أو بما أحالت عليه نصوص الكتاب والسنة من اعتماد القياس أو الإجماع أو الاستصلاح أو العرف الصالح أو بما يستخرج من ذلك كله من قواعد ضابطة، أو بما يستنبط من ذلك كله من أحكام قابلة للتنامي»[2].

والشمول خصيصة من خصائص الشريعة الإسلامية تميزت بها عما

---

(١) شرح الأصول العشرين ـ عبد الحكيم خيال: ٥١.
(٢) في آفاق التعاليم ـ سعيد حوى: ٩٢.

سواها من شرائع البشر وأنظمتهم الوضعية، من شيوعية ورأسمالية وديمقراطية ونحوها.

وشمول الإسلام شمول استوعب الزمان والمكان والتشريع يقول الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله:

«إنها الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمان، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة[1]».

قال تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ آل عمران: ١٩ وقال تعالى: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه**﴾ آل عمران: ٨٥ وقال تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾. المائدة: ٣٠.

ولتوضيح حقيقة الشمول أكثر في التشريع نذكر هذه الأمثلة التالية في المسائل المدنية والاقتصادية والدستورية والقانونية.

«ففي القضايا المدنية يقول الله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾ المائدة: ١. وفي المسائل المالية والاقتصادية يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأبَ كاتب أن يكتب كما علمه الله**﴾. البقرة: ٢٨٢.

وفي الأسس الدستورية يقول جل جلاله: ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾. الشورى: ٣٨.

وفي الأمور القضائية يقول عز من قائل: ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾. النساء: ٥٨.

وفي العقوبات الجنائية يقول القرآن ﴿**كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى... الآية**﴾. البقرة: ١٨٧.

---

(١) رسالة السلام في الإسلام.

وفي الإعداد الجهادي يقول من تنزه عن النقص واتصف بالكمال المطلق ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾. الأنفال: ٦٠.

وفي العلاقات الدولية يقول من بيده الخلق والأمر: ﴿**لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾. الممتحنة: ٥٨ إلى غير ذلك من هذه القواعد والمبادىء المبينة. إما في كتاب كريم أو سنة مطهرة أو إجماع أو قياس. وما ذاك إلا دليل ظاهر على أن الإسلام دين ودولة وتأكيد جازم على شمولية مبادىء الإسلام، لترتشف الإنسانية من سلسبيلها العذب ومعينها الصافي ما يرويها على مدى الزمان والأيام[1].

وبعد الإجمال شرع الشهيد رحمه الله في التفصيل ليبين حقيقة شمولية الإسلام في مظاهر الحياة جميعاً فقال: فهو أي الإسلام:

دولة ووطن أو حكومة وأمة

وهو: خلق وقوة أو رحمة وعدالة

وهو: ثقافة وقانون أو علم وقضاء

وهو: مادة وثروة أو كسب وغنى

وهو: جهاد ودعوة أو جيش وفكرة

كما أنه عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء.

(الدولة): «حسب تعريف رجال القانون الدستوري بأنها:

جماعة من الناس تقيم على وجه الدوام في إقليم معين، وتقوم فيها سلطة حاكمة تتولى شوؤنهم وتنظيم أمورهم في الداخل والخارج»[2].

ومن خلال التعريف يتضح أن الأركان التي يتحقق فيها وجود الدولة وقيامها هي:

أمة، ووطن، وسلطة حاكمة.

والإسلام بما يحوي من مبادىء ونظم وتشريع، وبما عايشه المسلمون

---

(١) محاضرة في الشريعة الإسلامية: عبد الله ناصح علوان.

(٢) شرح الأصول العشرين: عبد الحكيم خيال: ٧١.

واقعاً من أول يوم أعلن فيه الرسول محمد ﷺ أفاد أن هذه الأركان وبمعان أشمل تتناسب مع عمومية الإسلام وشموله.

فكونه دولة: يعني أن فيه أحكاماً تنظم أمور الدولة وتعنى بشؤونها، فليس الإسلام قاصراً على تنظيم علاقة الإنسان بربه فحسب كما ظنه بعض الذين يجهلون الإسلام أو يتجاهلون أحكامه. بل تنظم علاقة الإنسان بربه وعلاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالجماعة وعلاقة الجماعة ببعضها.

والجماعة هذه تأخذ تنظيماً سياسياً يطلق عليه الدولة ولهذه الدولة رئيس يسمى في الاصطلاح الفقهي: الإمام أو الخليفة.

وقد بين الإسلام أساس هذه الدولة وكيفية اختيار رئيسها، وعلاقة الأفراد بها وحقهم عليها وحقها عليهم. وكل هذه الأبحاث معروفة ومعلومة في كتب الحديث والفقه الإسلامي.

والكلمة الجامعة في هذا الباب: أن الدولة في الإسلام تقوم على أساس عقائدي هو الإسلام، فهي دولة عقائدية وليست قومية ولا جنسية ولا إقليمية، ولذلك كانت عالمية، قال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**. الأنبياء: ١٠٧. **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾**. سبأ: ٢٨.

ورئيسها يختار اختياراً من قبل المسلمين وفق شروط معينة يجمعها: الكفاءة والأمانة، وأن الغرض من اختياره تنفيذ الشرع وحمل الناس على اتباعه كما قال تعالى: **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾**. الحديد: ٢٥.

فالكتاب: هو القرآن الكريم الذي تضمن مبادىء الدين الأخير والرسالة الخاتمة. جاء في تفسير الطبري: وأنزلنا معهم الكتاب بالأحكام والشرائع، والميزان بالعدل»[1]. وذكر الفخر الرازي: «أن الكتاب إشارة إلى ما ذكر الله

(١) تفسير الطبري جلد: ١٣٧/٢٧/١٠.

في كتابه من الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف»[1].

والميزان: هو إشارة للعدل بين الناس بالموازين العادلة، وإعطائهم حقوقهم، وجاء في تفسير الرازي: «الميزان إشارة إلى حمل الناس على تلك الأحكام المبنية على العدل والإنصاف[2].

والقسط: يعني إقامة حياة الناس وأنواع نشاطهم على أساس التوازن بين جوانبها المختلفة، دون أن يطغى جانب على جانب أو فئة على فئة.

والحديد: هو رمز القوة التي تؤيد مبادىء الكتاب وموازين العدل وقوانين القسط. قال ابن كثير في إنزال الحديد ـ «وجعل الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه»[3].

أما مركز الفرد في هذه الدولة: فهو بارز غير مغمور، فهو مسؤول عن حسن سير الدولة وعن قيام رئيسها بواجبه، ومن ثم كان له حق المراقبة والنصح والإرشاد والنقد **﴿وشاورهم في الأمر﴾** آل عمران: ١٠٩ **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾** الشورى: ٣٨. «الدين النصيحة قلنا لمن؟ قال لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم»[4].

ولقد فهم ذلك المسلمون وطبقوه واقعاً مع خلفائهم، واعترف خلفاؤهم بهذا الحق، ومن ذلك قول الخليفة الأول أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ «فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم»[5]، ويقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ «من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقومه، فقام اعرابي وقال: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا ـ فسرّ عمر رضي الله عنه بهذا الجواب وقال: الحمد لله الذي جعل من أمة محمد ﷺ من يقوم اعوجاج عمر بسيفه»[6].

---

(١) التفسير الكبير: ٢٩/٢٤١.

(٢) التفسير الكبير: ٢٩/٢٤١.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/٣١٤.

(٤) البخاري في الترجمة تعليقاً: ١/٢٢ كتاب الإيمان، ومسلم: ١/٧٤ كتاب الإيمان.

(٥) البداية والنهاية: جـ ٦/٣٠١.

(٦) انظر معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان: ٦٨. وهو في الرياض النضرة بلفظ آخر ٢/٣٨١.

كما أن الدولة مسؤولة عن الفرد وعن تأمين ما يحقق له حياة كريمة.

فحديث «كلكم راع ومسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته. . . .» الحديث متفق عليه[1].

هذه هي الدولة حسب المفهوم الإسلامي، وتلك مهماتها، ومركز الفرد فيها.

والدولة لا تقوم إلا على أسس وأركان، وقد أشار إليها الإمام الشهيد البنا رحمه الله ذاكراً أن الإسلام قد شملها بنظامه وهي: -

(١) (الوطن): في لغة العرب «يعني المنزل الذي يقيم فيه الإنسان، كما أنه يعني مكان الإقامة الأخيرة من الأرض، يقال أوطن فلان الأرض كذا وكذا أي اتخذها أرضاً وسكناً يقيم فيها، ويقال أوطنت الأرض ووطنتها توطيناً، واستوطنتها أي اتخذتها وطناً، وكذلك الاتطان وهو افتعال منه»[2].

والمفهوم اللغوي يوحي بأن المواطنة تعني الإقامة والملازمة للأرض للانتفاع بها والاستفادة مما أودع الله فيها من موارد طبيعية سخرت للإنسان.

أما المفهوم الجاهلي وخاصة المعاصر فهو غير محدود المعنى وإنما يتحكم في تحديد معناه: المصالح تارة والتصورات الخاطئة تارة أخرى حيث أنك تجده عند السياسيين غيره عند الاشتراكيين، غيره عند الاجتماعيين غيره عند أصحاب المصالح[3].

أما الإسلام فقد حدد معناه وضبط مضمونه: بأنه أرض تحكمها عقيدة ومنهاج حياة، وشريعة من الله، وبهذا التعريف الإسلامي يحدد وطن المسلم بأنه جميع ديار الإسلام التي أسلم أهلها وهم عليها، أو فتحها المسلمون وقام حكم الدولة الإسلامية فيها، وطبق أحكامها.

---

(١) صحيح البخاري: ٦/١ ومسلم: ١٤٥٨/٣ واللفظ للبخاري.
(٢) لسان العرب ٤٥١/١٣.
(٣) انظر الاتجاهات الوطنية للأدب المعاصر: ١٠٢/١٠١/١٠٠.

ومن خلال التعريف أيضاً يتضح أن الأرض في الإسلام ليست مقدسة لذاتها كما يعتبرها الجاهليون، وليست بإله معبود كما يرددون، وإنما هي خلق من خلق الله تعالى تستمد قداستها من قدسية العقيدة التي تمارس عليها وتنال حب الساكنين لها بما يجدون فيها من تطبيق للشريعة.

ولذا قال علماء الإسلام: «كل أرض تحارب المسلم في عقيدته وتصده عن دينه وتعطل عمل شريعته فهي (دار حرب) ولو كان فيها أهله وعشيرته وقومه وماله وتجارته.

وكل أرض يقيم فيها عقيدته ويعمل فيها شريعته فهي (دار إسلام) ولو لم يكن له فيها أهل ولا عشيرة، ولا قوم ولا تجارة، ولذلك قالوا: دار الحرب هي وطن الكافرين، ودار الإسلام هي وطن المسلمين»[1].

يقول الشهيد البنا رحمه الله: «لقد وسع الإسلام حدود الوطن الإسلامي وأوصى بالعمل لخيره والتضحية في سبيل حريته، وعزته.

والوطن في عرف الإسلام يشمل:

١ ـ القطر الخاص أولاً.

٢ ـ ثم يمتد إلى الأقطار الإسلامية الأخرى فكأنها للمسلم وطن ودار.

٣ ـ ثم يرقى إلى الدولة الإسلامية الأولى التي شادها الأسلاف بدمائهم الغالية العزيزة فرفعوا عليها راية الله ولا تزال آثارهم فيها تنطق بما كان لهم من فضل ومجد، وكل هذه الأقاليم يسأل المسلم بين يدي الله تبارك وتعالى لماذا لم يعمل على استعادتها؟

٤ ـ ثم يسمو وطن المسلم بعد ذلك كله حتى يشمل الدنيا جميعاً.

ألست تسمع قول الله تعالى: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾**. الأنفال: ٢٩.

---

(١) معالم في الطريق ١٤٥.

وبذلك يكون الإسلام قد وفق بين الوطنية الخاصة والوطنية العامة بما فيه الخير كل الخير للإنسانية جميعاً: **﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[1]. الحجرات: ١٣.

أما حق الوطن الإسلامي: فعلى الدولة الإسلامية حماية حدوده بالقوة والسلاح ورد كل اعتداء عليه، وعلى المسلمين عموماً حمايته والدفاع عنه وهو فرض ديني عليهم قال تعالى: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾**. الممتحنة: ٨ و٩.

وقال تعالى: **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾**. الحج: ٣٩.

يقول الشهيد البنا رحمه الله: «فإن الأخوة الإسلامية جعلت كل مسلم يعتقد أن كل شبر من الأرض فيه أخ يدين بدين القرآن الكريم قطعة من الأرض الإسلامية العامة التي يفرض الإسلام على كل أبنائه أن يعملوا لحمايتها واسعادها. فكان من ذلك أن اتسع أفق الوطن الإسلامي وسما عن حدود الوطنية الجغرافية والوطنية الدموية إلى وطنية المبادىء السامية، والعقائد الخالصة الصحيحة، والحقائق التي جعلها الله للعالم هدى ونوراً. والإسلام حين يشعر أبناؤه بهذا المعنى ويقرره في نفوسهم يفرض عليهم فريضة لازمة حماية أرض الإسلام من عدوان المعتدين وتخليصها من غصب الغاصبين، وتحصينها من مطامع المعتدين»[2].

---

(١) رسالة نحو النور: ٢٧٨ من مجموعة رسائل الشهيد مطبعة المؤسسة الإسلامية ـ بيروت.

(٢) رسالة إلى أي شيء ندعو الناس: ٥٢ مجموعة رسائل الشهيد مطبعة المؤسسة الإسلامية ـ بيروت.

ذلك هو الوطن الإسلامي وتلك هي حدوده وهذا تصور المسلم الصحيح له.

(٢) (أمة) هي جماعة من الناس تجمعهم روابط معينة تجعل منهم جماعة متميزة متآلفة ترغب في العيش سوية وباطمئنان.

والإسلام باعتباره من عند الله وهو العالم بمصالح عباده، وانفعالهم فقد اختار لأمته أقوى الروابط وأوثقها وأبقاها وهي رابطة العقيدة والتقوى ﴿**الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين**﴾. الزخرف: ٦٧.

إذاً هذه الرابطة وحدها تكفي لتكوّن الأمة الواحدة، وغيرها لا يكفي لإقامة هذه الأمة، قال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ الحجرات: ١٠ وقال عز من قائل: ﴿**وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾ الأنبياء: ٩٢.

وهذه الرابطة لا يهمها الاختلاف في الجنس، أو اللغة، أو الإقليم لأن عقيدة الإسلام توحدها، ولهذا يقول الشهيد البنا رحمه الله «ومن هنا كانت الجماعة التي تؤمن بالإسلام مهما اختلفت أوطانها وألوانها وأجناسها وناسها تعتبر جميعاً في عرف الإسلام أمة واحدة، قوية التمسك عظيمة الترابط قد ارتفعت صلتها إلى درجة الأخوة، ثم تجاوزتها إلى الحب، ثم علت حتى صارت إلى الإيثار ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾. الحشر: ٩. ومن هنا كان الإسلام عقيدة وجنسية، ليست جنسية الدم والأرض ولكنها جنسية الأخوة والروح وهي أقوى وأفعل».

ومن هنا جاء القرآن يقرر هذه الحقائق فيقول: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**﴾. التوبة: ٧١ ويقول: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾. الحجرات: ١٠. ويقول: ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً**﴾[1]. آل عمران: ١٠٣.

---

(١) شرح الأصول العشرين لخيال: ٩٧.

وبهذا المعنى تتميز الأمة الإسلامية عما سواها من الأمم الجاهلية التي تجعل رابطتها غير رابطة العقيدة من الجنس. واللغة والاقليم، والعادات. فكانت الأمة المسلمة بذلك خير أمة أخرجت للناس، وكانت أمة وسطاً لتكون شهيدة على الناس.

(٣) (حكومة): هي سلطة حاكمة تمثل الشخصية المعنوية لهذه الأمة، وتتولى تنظيم الشؤون الاجتماعية، والاقتصادية والدفاعية، وإدارة السياسة في الدولة وتنظيم صلتها بالدولة الأخرى... كل ذلك تتولاه بما تملكه من سلطان مادي ومعنوي.

«والإسلام يعتبر إقامة هذه السلطة الحاكمة فرضاً لازماً وقاعدة من قواعد النظام الاجتماعي الذي جاء فيه للناس فهو لا يقر الفوضى ولا يدع الجماعة المسلمة بغير إمام، ولقد قال رسول الله ﷺ لبعض أصحابه: «إذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم أحدكم»[١].

كما أنه نظم شؤون هذه السلطة وحدد اختصاصاتها، ووضح حقوقها وواجباتها وربط شرعية السلطة ـ بالحكومة ـ بمدى التزام ما نظم وشرع قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾. النساء: ٥٩.

فطاعة ولاة الأمر مرتبط بها الطاعة لله وللرسول، وفي الحديث «إنما الطاعة في المعروف»[٢] وفي آخر «لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق»[٣].

إذاً فالحكومة المعنية هنا هي الحكومة الإسلامية والتي من أخص خصائصها أنها قرآنية شورية.

---

(١) سنن أبي داود: ٢/٣٤ وانظر رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي للشهيد البنا: ٣٥٨ ط دار الأندلس.

(٢) متفق عليه من حديث علي بن أبي طالب كما في حياة الصحابة: ٢/٦٧.

(٣) أخرجه أبو نعيم كما في الكنز: ٥/١٤٢ وفي صحيح البخاري بلفظ (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة).

فكونها قرآنية: لأنها تقوم على مبادىء القرآن وتخضع لقواعده وأحكامه، قال تعالى: ﴿**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء**﴾. الأعراف: ٢ وقال تعالى: ﴿**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم**﴾. المائدة: ٤٩.

وكونها شورية: لأنها لا تستبد بالأمر دون أهله من أهل الحل والعقد، بل يؤخذ رأيهم وخاصة في الأمور المصيرية، لقوله تعالى: ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾ آل عمران: ١٥٩. والشورى لا تكون إلا فيما ليس فيه نص من قرآن أو من سنة، وهي صفة أساسية من صفات المؤمنين ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾. الشورى: ٣٨.

ولذلك لا يجوز لجماعة مسلمة أن تقيم أو ترضى إقامة امرها على غير الشورى وإلا كانت آثمة مضيعة لأمر الله.

ومن وظائفها القضاء على الشرك بالدعوة إلى الإسلام، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتسوس الناس في حدود ما أنزل الله، وذلك قوله تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾ النور: ٥٥ وقوله تعالى: ﴿**الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾. الحج: ٤١.

تلكم أخص خصائص الحكومة الإسلامية وبدونها تفقد صفتها وتكون في عداد الحكومات الجاهلية التي يجب على الأمة الإسلامية استبدالها بحكومة تلتزم ذلك وتقوم به.

وهو: أي الإسلام: (خلق).

الخلق في اللغة الطبع والسجية، وفي اصطلاح العلماء عبارة عن هيئة،

في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية[1].

وبذلك يكون الخلق في هذا الاصطلاح قد استغرق كل الصفات الحسنة والقبيحة، لكن نجد أن أكثر علماء الأخلاق يطلقون الخلق على الصفة الحسنة تغليباً.

فالأخلاق عندهم هي الصفات الحسنة الراسخة في النفس التي ينبثق عنها المسلك الطيب في الحياة.

وهي بحسب التصور الإسلامي: غريزة في الإنسان فطره الله عليها تحمله على حب بعض الصفات وكراهية أخرى، وليست كما يزعم البعض أنها التجربة تنمو بتقدم الزمان ورقي الفكر، قال تعالى: ﴿**ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها**﴾ الشمس من ٧ ـ ١٠.

وقد جعل الإسلام ميزان التقبيح والتحسين في الأخلاق مربوطاً بنظامه الشامل الذي لا يتعارض مع الفطرة السليمة، ولا يتنافى معها.

فاعتبر الأخلاق: التقيّد بأحكام الشريعة أمراً ونهياً في جميع التكاليف التي تربط الإنسان بخالقه في العقائد والعبادات كما تربطه بغيره من الناس في المعاملات، ولهذا أجابت عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت (كان خلقه القرآن)[2].

«ولقد عني الإسلام بالأخلاق عناية بالغة واهتم بها اهتماماً كبيراً، وتمثلت تلك العناية في أمور أهمها:

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي: ٧٦/٣.

(٢) مسلم: ٥١٣/١ في كتاب صلاة المسافرين.

١ - أنه جعلها أساساً ودعامة أولى يقوم عليها نظامه في الحياة، وهدفاً أسمى من أهداف الرسالة (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[١]. ولقد سئل الرسول ﷺ ما البر؟ فقال حسن الخلق[٢].

٢ - (كثرة الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع الأخلاق، أمراً بالجيد منها، ومدحاً للمتصفين بها، ونهياً عن الرديء منها وذم المتصفين بها. ومما يزيد في هذه الأهمية أن هذه الآيات منها ما نزل في مكة قبل الهجرة ومنها ما نزل في المدينة بعد الهجرة، مما يدل على أن الأخلاق أمر مهم جداً لا يستغني عنه المسلم، وأن مراعاة الأخلاق تلزم المسلم في جميع الأحوال، فهي تشبه العقيدة من جهة عناية القرآن بها في سوره المكية والمدنية على حد سواء.

٣ - أن الله سبحانه مدح نبيه بحسن الخلق حيث قال: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ ن: ٤ والله لا يمدح رسوله إلا بالشيء العظيم مما يدل على عظم منزلة الأخلاق في الإسلام وقوة العناية بها»[٣].

والأخلاق في الإسلام جمع الله مكارمها في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ الأعراف: ١٩٩. قال جعفر بن محمد - أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية[٤].

والأخلاق في الإسلام تقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها:

الصبر، العفة، الشجاعة، العدل.

---

(١) البخاري في الأدب المفرد: رقم ٢٧٣ وأخرجه مالك في الموطأ بلفظ «بعثت لأتمم حسن الأخلاق». كذا في جامع الأصول: ٤/٤.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥٣ في البر والصلة. والترمذي رقم ٣٩٠ في الزهد.

(٣) أصول الدعوة ٧٨.

(٤) تهذيب مدارج السالكين ص ٤١٣.

وهذه الأربعة هي منشأ جميع الأخلاق الفاضلة، كما أن منشأ جميع الأخلاق السافلة وبناءها على أربعة أركان:

الجهل، الظلم، الشهوة، الغضب.

وملاك هذه الأربعة أمران:

إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة.

فتولد عن إفراطها في الضعف: المهانة والبخل والخسة واللؤم والذل والحرص والشح وسفاسف الأمور في الأخلاق.

ويتولد عن إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحسد والفحش والطيش.

فالأخلاق الذميمة يولد بعضها بعضاً كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضاً[1].

ويتميز نظام الأخلاق في الإسلام عما دونه من أنظمة الأخلاق الوضعية بجملة خصائص منها:

العموم، والتفصيل، والشمول، ولزومها في الوسائل والغايات، وارتباطها بمعاني الإيمان والتقوى، ووقوع الجزاء فيها.

ففي العموم يقول الله تعالى: ﴿**وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً**﴾ الإسراء: ٥٣. والقول بما هو أحسن دعوة عامة للقول الطيب المطلوب بجميع أنواعه في مخاطباتهم ومحاوراتهم. ويقول تعالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون**﴾. النحل: ٩٠.

فقد شملت الآية دعوة عامة للابتعاد عن رذائل الأخلاق كما أنها دعت

(١) نفس المصدر ص ٤١٦.

في الشطر الأول منها إلى أصول الأخلاق الفاضلة، وأما التفصيل فالكتاب والسنة فصلا كل خلق فاضل ورغبا فيه وكل مرذول من الأخلاق حذرا منه.

وفي سورة الإسراء[1] والحجرات[2] والنساء[3]، من الوصايا الجامعة لعباد الله المؤمنين في باب الأخلاق ما يوضح ذلك ويجليه.

وأما الشمول في الأخلاق: فقد شملت الأخلاق الإسلامية جميع أفعال الإنسان الخاصة بنفسه والمتعلقة بغيره، سواء كان الغير إنساناً أو حيواناً أو جماداً، فرداً أو جماعة أو دولة، فلا يخرج شيء عن دائرة الأخلاق مما لا نجد له نظيراً في أي شريعة سماوية سابقة، ولا في أي شريعة وضعية.

فعلى المسلم حقوق لنفسه، ولوالديه، ولزوجه، وأولاده، ولأقاربه ذوي الأرحام، والجيران من المسلمين عامة، ولغير المسلمين من أهل الذمة، ومن أهل دار الحرب. حتى الحيوان والجماد لهم على المسلم حقوق، فما من شيء إلا وقد شمله نظام الأخلاق في الإسلام.

وفي القرآن والحديث وكتب الفقه الإسلامي ما يدل على هذا التأصيل والشمول. فليرجع إليه.

وأما لزومها في الوسائل والغايات: فإن الالتزام بمقتضى الأخلاق مطلوب في الوسائل والغايات، ولا يجوز الوصول إلى الغاية الشرعية بالوسيلة الخسيسة، ولهذا لا مكان في مفاهيم الأخلاق الإسلامية للمبدأ الخبيث: الغاية تبررّ الوسيلة. وهو مبدأ انحدر إلينا من ديار الكفر. يدل على ذلك ضرورة مشروعية الوسيلة ومراعاة معاني الأخلاق فيها قوله تعالى: **﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعلمون بصير﴾**. الأنفال: ٧٢. فهذه الآية توجب على المسلمين نصرة إخوانهم المظلومين قياماً بحق الأخوة في الدين، لكن إذا كانت نصرتهم

---

(١) آية ٢٣/٢٨.
(٢) آية ١١/١٢.
(٣) آية ٥٨.

تستلزم نقض العهد مع الكفار والظالمين لم تجز النصرة لأن وسيلتها الخيانة ونقض العهد، والإسلام يمقت الخيانة ويكره الخائنين.

أما صلتها بالإيمان والتقوى فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين**﴾ التوبة: ٤. وفي الحديث «لا إيمان لمن لا عهد له ، ولا دين لمن لا عهد له[1]».

أما ارتباطها بالجزاء فإن الإسلام جاء بالأخلاق أمراً ونهياً، وعصيان الشرع وارتكاب ما نهى عنه يسبب العقاب قال تعالى: ﴿**ويل لكل همزة لمزة**﴾ الهمزة: ١. كما أن التزام حدود الشرع وطاعته سبب للثواب الحسن.

والجزاء قد يكون في الدنيا بعقوبة القاضي - كالحدود والتعزير - وقد تصاب به الجماعة كما في قوله تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾. الأنفال: ٢٥.

وهو: أي الإسلام:

(قوة) هي نقيض الضعف، والإسلام في نظامه قد عني بها كما عني بغيرها من ضرورات الحياة واعتبرها في المكانة الأسمى من أجل حماية العقيدة وتأمين أهلها، وإرهاب أعدائها، وإحداث الرعب فيهم وتحطيم كل قوة تقف أمام انتشار هذه العقيدة - وتريد أن تتخذ لنفسها صفة الألوهية من خلال حكمها، وفرض تشريعاتها وعدم اعترافها بألوهية الله وحاكميته قال تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم**﴾. الأنفال: ٦٠.

ولذلك أصبحت القوة للأمة الإسلامية ضرورة اقتضتها الأغراض المشار إليها، وفريضة محكمة من فرائض الإسلام دلت عليها نصوص الكتاب والسنة.

يقول الإمام الشهيد البنا رحمه الله: والإسلام لم يغفل هذه الناحية - يعني القوة - بل جعلها فريضة محكمة من فرائضه ولم يفرق بينها وبين الصلاة

---

(١) رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط.

والصوم في شيء، وليس في الدنيا كلها نظام عني بهذه الناحية لا في القديم ولا في الحديث كما عني بذلك الإسلام في القرآن، وفي حديث رسول الله ﷺ وسيرته، وإنك لترى ذلك ماثلاً واضحاً في قوله تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ الأنفال: ٦٠. وفي قوله تعالى: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم**﴾. البقرة: ٢١٦.

وهل رأيت منشوراً عسكرياً في كتاب مقدس يتلى في الصلاة والذكر والعبادة والمناجاة كهذا المنشور الذي يبتدىء بالأمر المتجرد في قوله تعالى: ﴿**فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة**﴾ النساء: ٧٤. ثم يبني الجزاء بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿**ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً**﴾. النساء: ٧٤. ثم تبدو بعد ذلك استثارة أنبل العواطف في النفوس وهي استنقاذ الأهل والوطن فيقول تعالى: ﴿**وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً**﴾. النساء: ٧٥.

ثم يوضح لهم شرف غايتهم ودناءة غاية عدوهم ليبين لهم أنهم يجودون بثمن غال هو الحياة، على سلعة غالية تستحق وتربو عليه وهي رضوان الله تعالى ـ على حين يقاتل غيرهم لغير غاية فهم أضعف نفوساً وأخزى أفئدة فذلك قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾. النساء: ٧٦. ثم يندد بالذين جبنوا عن أداء الواجب وأخذوا التكاليف السهلة وتركوا تكاليف البطولة، ويبين لهم خطأ موقفهم هذا وأن الإقدام لن يضرهم شيئاً فالموت من ورائهم لا محالة فيقول بعد الآيات السابقة مباشرة: ﴿**ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب،**

قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾. النساء: ٧٧، ٧٨.

بربك أي منشور عسكري في هذه القوة وفي هذا الوضوح يبعث في نفس الجندي كل ما يريد القائد من همة وعزة وإيمان.

وإذا كان قوام الحياة العسكرية في عرفهم أمرين هما: ـ النظام والطاعة فقد جمعهما الله في آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى: **﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾**. الصف: ٤ وقوله تعالى: **﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾** محمد: ٢٠، ٢١.

وإنك إذا قرأت ما جاء به الإسلام في إعداد القوة واستكمال القوة. وتعلم الرمي ورباط الخيل، وفضل الشهادة وأجر الجهاد وثواب النفقة فيه ورعاية أهله واستيعاب صنوفه، لرأيت في ذلك ما لا يحصيه الحصر سواء في الآيات الكريمة أو الحديث الشريف أو السيرة المطهرة أو الفقه الحنيف: **﴿ وسع ربنا كل شيء علماً﴾**[1] الأعراف: ٨٩.

«فالقوة شعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته فالقرآن الكريم ينادي بذلك في وضوح وجلاء وقرنها في كتابه بقوله تعالى: **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾**. الحديد: ٢٥.

والنبي ﷺ يقول: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»[2]. بل إن القوة شعار الإسلام حتى في الدعاء وهو مظهر الخشوع والمسكنة. واسمع ما كان يدعو به النبي ﷺ في خاصة نفسه ويعلمه أصحابه ويناجي به ربه ـ (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ

---

(١) رسالة نحو النور: ٢٧٣ من مجموعة رسائل الشهيد طبعة المؤسسة الإسلامية ـ بيروت.
(٢) صحيح مسلم: ٤/٢٠٥٢.

بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال)[١].

ألا ترى في هذه الأدعية أنه قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف، ضعف الإرادة بالهم والحزن، وضعف الإنتاج بالعجز والكسل، وضعف الجيب والمال بالجبن والبخل، وضعف العزة والكرامة بالدين وقهر الرجال. فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدين إلا أن يكون قوياً في كل شيء شعاره القوة في كل شيء»[٢].

«والقوة في الإسلام تقوم على أسس ثلاثة: قوة العقيدة والإيمان وقوة الوحدة والارتباط، وقوة الساعد واالسلاح.

ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة ما لم تتوفر فيها هذه المعاني جميعاً فأي جماعة تستخدم قوة الساعد والسلاح وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام، أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء والهلاك[٣]».

«والقوة التي أمر القرآن بها المؤمنين قوة عامة كما يدل عليها التنكير في قوله تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾. الأنفال: ٦٠.

والتكليف بها هو خمود الطاقة إلى أقصاها بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها»[٤].

«ومن تلك القوة ـ قوة الرمي ـ وهو يشمل كل أنواع الرمي وكل أنواع الآليات لأن (من) في الآية لبيان الجنس، فمعنى الآية ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾. الأنفال: ٦٠. من جنس ما يرمى به ومن جنس رباط الخيل ومن جنس ما يركب للمعركة، فشمل هذا وهذا كل عتاد يتصور»[٥].

---

(١) صحيح البخاري: ٩٧/٨ كتاب الدعوات.
(٢) رسالة المؤتمر الخامس ١٣٥. من مجموعة رسائل الشهيد البنا ـ طبعة المؤسسة الإسلامية.
(٣) نفس المصدر.
(٤) في ظلال القرآن: ١٥٤٤/٣.
(٥) الأساس في التفسير لسعيد حوى: ٢١٩٤/٤.

والرمي في الإسلام له أهميته العظمى لأن كل عتاد لا قيمة له إذا لم يكن هناك إحسان في الرمي. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الإمام أحمد ومسلم وغيرهما عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: «سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾. الأنفال: ٦٠. إلا أن القوة الرمي إلا إن القوة الرمي»[1]. وحديث أحمد وأصحاب السنن عن رسول الله ﷺ: (ارموا واركبوا، وأن ترموا خير من أن تركبوا)[2].

وتتطلب قوة الرمي: النظافة والنظام والرياضة البدنية والتدريبات العسكرية على اختلاف أنواعها والتعرف على أنواع الأسلحة والذخائر وإنتاجها وطرق استعمالها وصيانتها وعلى كيفية القتال في جميع الأوضاع والمواقف بشتى الوسائل والأساليب وعلى معرفة استخدام الأماكن والمرافق والمعدات، والانتفاع بها على أحسن وجه، وعلى الاستكشاف وجمع المعلومات، وطرق التخفي وأساليب المراوغة والمجالدة، والكر والفر في الميدان وغير ذلك.

وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب. وعلى الأمة المسلمة أن تتحقق بذلك لكي تتحقق لها القوة الواجبة عليها بمقتضى القرآن الكريم والسنة النبوية.

وهكذا فالإسلام دين القوة بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معنى في عقيدته، في تربيته، في تعليمه وثقافته، في شؤونه الاجتماعية، في تشريعاته، في علاقته مع الغير، في تعامله مع الأعداء، وفي كل شأن من شؤون الحياة.

وهنا لفتة ينبغي الانتباه لها وهي أن الشهيد البنا رحمه الله قرن القوة بالأخلاق ليلفت الأنظار إلى أن القوة في نظر الإسلام قرينة الأخلاق دائماً لا

---

(١) صحيح مسلم: ١٥٢٢/٣ كتاب الإمارة.

(٢) سنن أبي داود: ١٢/٢ كتاب الجهاد.

ينفك أحدهما عن الآخر، يشهد لذلك قوله تعالى في وصف الرسول والمؤمنين ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾. الفتح: ٢٩. وقوله في وصف حزب الله ﴿**أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**﴾. المائدة: ٥٤.

وهو: أي الإسلام:

(رحمة) «الرحمة في أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه فإن رحمته شملت كل الوجود وعمت الملكوت، فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء أشرق شعاع الرحمة الغامرة، ولذلك كان من صلاة الملائكة له ﴿**ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم**﴾[1] غافر: ٧.

والإسلام مصدره الله الرحيم فشملت الرحمة فيه كل شيء. فهو رحمة في عقيدته وفي شريعته وفي نظامه وفي دعوته. فاتصف بكونه دين الإسلام ودين الرحمة العامة الشاملة ما في ذلك شك، ولا يخالف في ذلك إلا جاهل بالإسلام أو حاقد على نظامه، أو مكابر لا يقتنع بدليل ولا يسلم ببرهان، فكتابه رحمة: قال تعالى: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾ النحل: ٨٩. ويقول سبحانه: ﴿**ما كان حديثاً يفترى لكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾. يوسف: ١١١.

ورسوله رحمة ومرسل بالرحمة: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾. التوبة: ١٢٨. وقال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾. الأنبياء: ١٠٧.

وأمته رحمة: قال تعالى: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾. الفتح: ٢٩، وهي أمة مرحومة: قال تعالى:

---

(١) خلق المسلم ٢٢٣.

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾. التوبة: ٧١.

والوصية بينهم بالرحمة: **﴿ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة﴾**. البلد: ١٧، ١٨.

ودعوته رحمة **﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾**. الأعراف: ٢٠٤.. والدعوة إليه رحمة: **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**. آل عمران: ١٥٩. قال تعالى: **﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾**. الأعراف: ٥٩.

ورحمته شاملة لكل شيء: الإنسان والحيوان حتى النبات والجماد قال تعالى: **﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾**. الأعراف: ١٥٦. ويقول رسول الله ﷺ (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة)[١]. ويقول: (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[٢]. ويقول: (لن تؤمنوا حتى ترحموا قالوا يا رسول الله كلنا يرحم ـ قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة عامة) أخرجه الطبراني. ويقول الرسول ﷺ (في كل ذي كبد رطبة أجر)[٣]. ولقد بين رسول الله ﷺ أن امرأة دخلت النار بسبب هرة أجاعتها، ودخل رجل الجنة بسبب كلب سقاه[٤].

وبذلك كانت الرحمة أصلاً من أصول نظام الإسلام وكانت من أول ما دعا إليه الإسلام، ونزل القرآن وفي أوائل نزوله قوله تعالى في سورة البلد: **﴿وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو**

---

(١) صحيح مسلم: ١٥٤٨/٣.
(٢) جامع الترمذي: ١٢٢/٣ تحفة الأحوذي الطبعة الهندية.
(٣) صحيح البخاري: ١٧٤/٣.
(٤) صحيح البخاري: ١٥٨/١٥٧/٤.

مسكيناً ذا متربة﴾. البلد: ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، فالآيات تضمنت الدعوة إلى الرحمة ضمناً بما ذكرت من أفعال دافع القيام بها وجود الرحمة والرفق ممن يصنع بهم ذلك، وبما ذكرت من حصول النجاة في هذا الموقف الخطير لمن تحقق بهذه الصفة. وسورة المدثر وهي من أول ما نزل: ﴿ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين﴾. المدثر: ٤٢، ٤٣، ٤٤. فإطعام المساكين دافعه الرحمة، والممتنع عن ذلك مسلوب الرحمة، ولذلك استحق السلوك في سقر.

وتتجلى رحمة الإسلام الشاملة في قاعدة التيسير ورفع الحرج وهي قاعدة أصولية تقوم عليها أحكام هذا الدين.

وهذا التيسير مبني على رعاية ضعف الإنسان وكثرة أعبائه وتعدد مشاغله وضغط الحياة ومتطلباتها عليه.

ولذا جاء القرآن ميسراً للذكر والعقيدة ميسراً للفهم، كما أن الشريعة ميسرة للتنفيذ والتطبيق، ليس فيها تكليف واحد يتجاوز طاقة المكلفين إذ: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾. البقرة: ٢٨٦.

وعلم القرآن المؤمنين أن يدعوا ربهم فيقولوا: ﴿ربنا ولا تُحمّلنا ما لا طاقة لنا به﴾. البقرة: ٢٨٦. وقد ورد في الصحيح أن الله سبحانه استجاب لهم، وقد نفى القرآن الكريم كل حرج عن هذه الشريعة كما نفى عنها العنت والعسر وأثبت لها التخفيف والتيسير وهو يحدثنا عن رخص الصيام من الفطر للمريض والمسافر ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾. البقرة: ١٨٥. ويقول في إتاحة الزواج بالإماء لمن عجز عن الحرائر: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾. النساء: ٢٨. ويقول بعد أن شرع العفو في القتل لمن طابت نفسه: ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾. البقرة: ١٧٨.

وجاءت الأحاديث النبوية تؤكد هذا الاتجاه القرآني إلى التيسير من ذلك (بعثت بالحنيفية السمحة)[1].

ومما تميزت به الشريعة الإسلامية تشريع الرخص عند وجود أسبابها في

---

(١) مسند أحمد: ٥/٢٦٦/٦/١١٦/٢٢٢.

العبادات وغيرها. وفي الحديث: (إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته)[1]. والعقوبة في الإسلام قائمة على مبدأ الرحمة فجميع الحدود المقررة ما هي إلا رحمة للإنسان نفسه مرتكب الجريمة، أو بالأسرة التي ارتكبت في حقها الجريمة أو بالمجتمع الذي تسبب في إشاعة الجريمة فيه، وبالإنسانية جميعاً.

والعقوبة في الإسلام لا تخرج عن هذا النطاق، وتنفيذها لا يتنافى مع هذا المبدأ قال تعالى: ﴿**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾. النور: ٣.

وأخيراً: فإن من كمال هذا الدين أن قرن الإله العظيم الرحمة بالعدل وذكر بالحساب بعد الفضل، فهو سبحانه مع رحمته السابقة المتجددة سيدين عباده ويحاسب خلقه يوم الدين: ﴿**يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله**﴾. الانفطار: ١٩. فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة، والترهيب بالعدل والحساب، ولذا قرن الشهيد البنا رحمه الله وصف الإسلام بالرحمة ووصفه بالعدالة في قوله:

(وعدالة) العدل في اللغة: ما قام في النفوس أنه مستقيم. وهو ضد الجور، وبمعنى العدل والعدالة[2] وتأتي بمعنى التوسط بين الإفراط والتفريط.

والعدل صفة من صفات الله تعالى ولذلك ما أرسل رسله ولا أنزل كتبه وما كلف الناس بالشرائع إلا لإقامة العدل والحق: ﴿**ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾ الحديد: ٢٥. والعدالة جعلها الله ميزانه المبرأ من كل زلة وبها يستتب أمر العالم ولذلك قال الله تعالى: ﴿**الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان**﴾. الشورى: ١٧. وقال: ﴿**والسماء رفعها ووضع الميزان**﴾. الرحمن: ٧ وعبر عن العدالة بالميزان إذ كان من أثرها، ومن أظهر أفعالها للحاسة[3] والإسلام الخاتم قد جعل شعاره نظام

---

(١) مسند أحمد: ٢/١٠٨.

(٢) لسان العرب: ٤٣٠. مادة: عدل.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة الراغب الأصفهاني.

العـدالة. وهي عنـوانه في كـل شأن من شؤون الحيـاة. قال تعـالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكـر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون**﴾.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: هذه أجمع آية في القرآن لخيريمتثل ولشر يجتنب[1].

وقـد جاء الخـطاب فيها عـاماً للنـاس كافـة وبلفظ الأمر (يـأمر) لا على سبيل الاستحبـاب[2].

والرسول الخاتم ﷺ من مهامه الأصيلة العدل بين الناس، وقد أمره الله عز وجل أن يبين ذلك لأمته ليتعلم النـاس ذلك منـه لأن الرسـول أسوة حسنـة للعـالمين قال تعـالى: ﴿**وقل آمنت بمـا أنـزل الله من كتـاب وأمـرت لأعـدل بينكم**﴾. الشورى: ١٥.

والعدل الذي ينادي به الإسلام عدل مـطلق يساوي بين النـاس: ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾. النساء: ٢٨.

ولا تعتبـر العـداوة التي تقـوم بين النـاس مبـرراً للظلم وقيـامـه أو تـرك العـدل: ﴿**يأيهـا الذين آمنـوا كونـوا قوامين لله شهـداء بالقسط ولا يجـرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبيـر بما تعملون**﴾. المائدة: ٨.

وكما أن العدل مأمور بـه في الفعل مـأمور بـه في القول: ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون**﴾. الأنعام: ١٥٢.

وهذا الأمر ينطبق على كثير من الذين يتولـون السلطات العامـة، أوْ لهم صلة بهـا، أو كانـوا ذوي تأثيـر في المجتمع: كـالمفتين والآمرين بـالمعروف

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/١٦٥.

(٢) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي لظافر القاسمي.

والناهين عن المنكر وكأصحاب المذاهب وغيرهم ممن تكون سلطاتهم بالقول لا بالعمل أو بهما معاً[1].

والحقيقة الشاملة لكل معاني العدالة هي: إعطاء كل ذي حق حقه سواء كان ذلك الحق شخصياً أم كان اجتماعياً أم كان سياسياً.

وكل عرقلة لوصول الحق إلى صاحبه هي من قبيل الظلم، إذ أن هدف المنهج الإلهي هو إقامة العدل بين الناس.

والعدل الذي يتطلبه الإسلام عدل شامل فهو عدل في الحكم: **﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾**. النساء: ٢٨ وعدل في الضعفاء، وتسوية بين المتخاصمين مهما اختلفت منزلتهم، أو تباينت طبقاتهم، كما أنه عدل في توزيع الحقوق والواجبات، وعدل في إقامة الحدود والقصاص، وعدل بين الزوجات إن كن أكثر من واحدة، وعدل في القول والشهادة والكتابة، وعدل بين طوائف المسلمين إذا تخاصمت: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾**. الحجرات: ٩.

وينهج الإسلام في إرساء قواعد العدالة في المجتمع منهجاً تربوياً يربي الأمة على الإيمان بالعدل إيماناً يجعله في قلب المؤمن في مستوى العقيدة، وذلك من خلال الدعوة إليه والأمر به، والترغيب في الالتزام به والترهيب في مجانبته، وصبغ الأمة به من خلال التطبيق والعمل به. يظهر ذلك جلياً فيما علم من رسول الله ﷺ من التبشير به والدعاء إليه وتطبيقه له طوال حياته ﷺ وضرب المثل في نفسه عليه الصلاة والسلام حتى انتشر مفهوم العدل بين الناس وأصبحوا لا يرون حرجاً في المطالبة به خطأ أو صواباً. وفي قصة ذي الخويصرة التميمي يوم حنين، وفي عتب الأنصار على الرسول ﷺ يوم حنين

---

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي لظافر القاسمي ١/ ٩٥.

أيضاً، وفي استقادة الرسول ﷺ من نفسه في بدر، وفي طلب ذلك منه ﷺ في مرض موته أفضل شاهد وخير دليل.

وفي سيرة الخلفاء الراشدين أنموذجات من العدل عنت على الأشباه والنظائر وأصبحت كالمثل السائر. ومن قول الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه (الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله تعالى).

وهو: أي الإسلام:

(ثقافة): بالعودة إلى قواميس اللغة العربية للفظة (ثقافة) تجد أنها تأتي بمعنى الحذاقة والفطنة والذكاء والفهم وسرعة التعليم، والضبط لما يحويه والقيام به[1].

ورغم ورودها في اللغة العربية بهذه المعاني لم تكن معهودة الاستعمال في العصر القديم وإنما عهدت عبارات أخرى قريبة من معناها مثل: الأدب، الملكة، والملكة عند الإطلاق ـ دون اضافتها إلى شيء تعني التنوع والعموم بحيث إذا اتصف بها إنسان كانت ملكته في فهم ضروب العلوم والفنون والمعارف ملكة جيدة بوجه عام وهذا هو ما يدل عليه (المثقف) في الاصطلاح الشائع في هذا العصر.

«والثقافة في الاصطلاح العرفي: في اللغة العربية وغيرها تفيد معنى ما يكتسبه الإنسان من ضروب المعرفة النظرية والخبرة العملية التي تحدد طريقته في التفكير. ومواقفه في مختلف طرق الحياة من أي جهة حصلت تلك المعرفة، وتلك الخبرة سواء كانت من المدرسة أو البيئة أو المهنة أو من أي طرق أخرى غيرها»[2].

«وثقافة أي أمة يجب أن تكون على أساس من القيم التي تسود

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور: ١٩/٩ مادة ثقف.
(٢) ملامح الثقافة الإسلامية: ٢٨.

مجتمعها وهي قيم وثيقة الصلة بالعقيدة والفكر والسلوك ونمط الحياة، ووجهة الحركة وتحديد الهدف. كما أنها عماد التراث الروحي والفكري والفني، ومحور التاريخ في جوانبه المتعددة، وأبطاله البارزين ومواقفه الفاصلة»[1].

ولذا فالثقافة الجاهلية تنبع من قيمها التي محور اساسها الاعتبارات الأرضية من مادة وجنس ولون وعصبية وتراب ونحو ذلك.

«أما الثقافة الإسلامية فإنها تنبع من أسمى قيمة، وأعلى معتقد وهو الإيمان والتقوى وتعتمد على منهج متفرد ومتميز قائم على رفض كل مناهج التفكير التي كانت سائدة في العالم، فلا يمكن القول أنه كان من وحي البيئة العربية وقد كانت بيئة أمية يغلب عليها طابع البداوة ليس فيها علم ولا مناهج تفكير. كما لا يمكن أن يقال إنه مقتبس من الثقافة اليونانية أو متأثر بها، وقد كانت ثقافة تقوم على منهج التفكير النظري المجرد بعيداً عن الواقع المحسوس ملتاثاً بالوثنية والأساطير فهما منهاجان مختلفان اختلافاً كاملاً من أول خطوة في الطريق.

ولا يمكن الزعم من أنه منهج مأخوذ من ثقافة الفرس أو ثقافة الروم فقد جاء منهج القرآن مخالفاً تماماً لكل ما أثر عن الفرس والروم من شرك ومناهج تفكير»[2].

فالثقافة الإسلامية مستقلة بنفسها، وذاتها، لها أسسها، متميزة بخصائصها، لها قيمها السامية، ومبادئها الراقية.

فأسسها ثلاثة هي:

الحقائق اليقينية الهادية، المنهج الإلهي الشامل، الفطرة الإنسانية الأصيلة.

أما الأول فكما روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ

---

(١) ملامح الثقافة الإسلامية ٣٥.

(٢) شرح الأصول العشرين: خيال ١٨٠

قال: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلمه وعلّمه، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) متفق عليه(1).

وأما الثاني فكقوله تعالى: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾. الأنعام: ١٥٣.

وأما الثالث فكقوله تعالى: ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾. الروم: ٣٠.

وأما خصائصها فكثيرة أهمها: الثبات والشمول والتوازن والوحدة والحركة.

فأما ثباتها: فلأنها تعتمد على حقائق لا تتبدل، وأصول لا تتغير ومبادىء لا تبلى، من إيمان وتقوى، وبر، ومعروف، وإخاء، ومساواة، وعدالة، وحرية، وحب، وإحسان... الخ.

وأما شمولها: فلأنها تأخذ من الإسلام شموله وسعته فهي تعرض الحياة منسقة مفصلة متناسقة محكومة كلها بقانون واحد كبير في حين أن الثقافات الأخرى تعرضها مقطعة مفرقة الأجزاء فتفقد معناها الشامل ومظهرها العميق.

أما التوازن: فتلاحظه فيها بين الجوانب المختلفة، فنجد أن الدعوة إلى الإيمان مقترنة بالدعوة إلى العبادة، والدعوة إلى العلم مقترنة بالدعوة إلى العمل، والدعوة إلى الفكر والتأمل مقترنة بالدعوة إلى تنمية الروح والوجدان، والدعوة إلى الغاية مقترنة بالنظر إلى الوسيلة، وعنصر التوازن في الإسلام

---

(١) صحيح البخاري ١/٣٠، صحيح مسلم ٤/١٧٨٧.

أصيل لأنه يقدم تعاليمه كلها على أساس التوازن بين القيم المادية والروحية ليسهم المسلم في الحضارة الإنسانية حسب قابليته وفي شتى الميادين.

أما الوحدة: فإن عقيدة التوحيد التي هي الدعامة الأولى للثقافة الإسلامية تتلخص في وحدانية الله خالق الكون، وواهب الحياة، وعليها نشأت وحدة الخلق أي الوحدة الحية من المادة والروح، ووحدة للعلم والإيمان، ووحدة للدنيا والروح، والوحدة للإنسانية فلا تفرقها الألوان والأجناس والأقاليم **﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾**. النساء: ١. وكذلك الوحدة في الفطرة الإنسانية والغرائز والمنازع.

أما الحركة: فهي الدوران المستمر الذي تدور عليه العلوم كلها بصورة تجعل حركة كل واحد منها مرتبطة بحركة سائرها بحيث لو توقف واحد منها توقفت الحركة الدائرة أجمعها والدوافع لهذه الحركة العلمية هو المبدأ الإيماني الذي طلبت به العلوم وإليه تتجه نتائجها.

ونخلص من ذلك إلى أن الثقافة التي وصف بها الشهيد البنا رحمه الله: (الإسلام) ثقافة متميزة بقيمها ومبادئها، وبأسسها وخصائصها كونت أمة كانت ملء الدنيا وسمعها أربعة عشر قرناً وأوجدت حضارة - الحضارة المعاصرة امتداد لها - ولا زالت تحتفظ بمقوماتها وخصائصها منتظرة عودة أبنائها لتحييهم من جديد وتسعد بهم العالم مرة أخرى وما ذلك على الله بعزيز.

وهو: أي الإسلام:

(قانون) قانون كل شيء: طريقه ومقياسه ويطلق أيضاً على الأصل. وهي غير عربية بل هي دخيلة كما يقول ابن سيده[1].

والقانون حسبما يعرفه المعاصرون: هو مجموعة الشرائع والنظم التي تنظم علاقات المجتمع سواء كان ذلك من جهة الأشخاص أو من جهة

---

(١) لسان العرب ج ١٣/٣٤٩.

الأموال[1]. وشعبه كثيرة أهمها: القانون الأساسي (الدستوري)، والقانون التجاري، والقانون الجزائي، وقانون العرف والعادة، والقانون المدني.

والقانون حسب المفهوم المعاصر هو جزء من الشريعة، إذ إن الشريعة أعم من كونها قانوناً لأنها تشتمل على خطة متكاملة متشابكة للحياة كلها. وبالنظر إلى فقه الشريعة الإسلامية نجده ينقسم إلى قسمين رئيسيين:

الأول: العبادات: وتشمل القواعد التي تنظم صلة الإنسان بربه سبحانه وتعالى.

الثاني: المعاملات: وتشمل القواعد القانونية التي تنظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان في وطنه وفي الدول الأخرى كما تنظم صلة الدول بعضها ببعض.

وهذا القسم يشمل مختلف أنواع القوانين الوضعية بمسميات عصرية سبق ذكرها قريباً. وقد نجد لها مقابلاً في مصطلحات فقهاء الشريعة الإسلامية، فالقانون الأساسي (الدستوري، والإداري) يقابله في الشريعة (السياسة الشرعية) أو (السياسة الحكمية) والقانون المدني والتجاري يقابله مصطلح (العقود) والقانون الدولي العام والخاص يقابله (السير والمغازي)، وهكذا نجد أن القانون الإسلامي وهو ذلك الجزء المخصوص من الشريعة الذي تقضي الشريعة نفسها لتنفيذه بإقامة سلطة سياسية وفقاً لمبادئها وروحها وطبيعتها يوجد فيها من المعاني ما يقابل تلك القوانين الوضعية بأفضل نص وأحسن مبنى.

بل تضمن النظام القانوني من الشريعة الإسلامية مبادىء أساسية كانت أساساً لفقه عظيم ونظريات قانونية في كل من القسمين الأساسيين الذي ينقسم إليهما علم الحقوق اليوم وهما: قسم الحقوق الخاصة، والحقوق العامة.

---

(١) المنجد ٦٥٦ مادة قن.

كما قامت في ظل هذا النظام القانوني مذاهب فقهية اجتهادية كثيرة أشهرها المذاهب الأربعة الحية اليوم وهي الفقة الحنفي، والمالكي والشافعي والحنبلي. والاختلاف بين هذه المذاهب ليس اختلافاً دينياً في العقيدة بل هو اختلاف قضائي نشأ منه ثروة تشريعية عظمى في النظريات الحقوقية الإسلامية.

وفي هذا النظام القانوني للشريعة توجد إلى جانب الأحكام الآمرة مؤيدات زاجرة مضمونة بالقضاء. منها مدني كبطلان العقود، والمخالعة، ومنها جنائي كالعقوبات التأديبية. وبهذا توفرت في النظام القانوني من الشريعة صفة التشريع بمعناه القانوني الحديث وتميزت أحكامه عن المواعظ والأوامر الأخلاقية المجردة. لا كما قد يتوهم من لم يدرسوا الشريعة الإسلامية أنها مجرد أوامر أخلاقية ليس لها مؤيدات.

وبما أن قسم المعاملات في الشريعة الإسلامية قد تضمن معنى القانون بكل أقسامه وشعبه وإن اختلفت المسميات فقد تجوز الشهيد البنا رحمه الله أن يطلق على هذا القسم من الشريعة اسم (قانون) أخذاً بالمصطلح المعاصر، وحجة يقيمها على المكابر الذي يزعم فقدان الشريعة لهذه الصفة، ولا ترقى إلى الصلاحية في هذه العصور المتقدمة.

والحق ـ كما يقول الشهيد عبد القادر عودة رحمه الله ـ أن القائلين بعدم صلاحية الشريعة للعصر الحاضر فريقان: فريق لم يدرس الشريعة ولا القانون، وفريق درس القانون دون الشريعة، وكلا الفريقين ليس أهلاً للحكم على الشريعة لأنه يجهل أحكامها جهلاً مطبقاً، ومن جهل شيئاً لا يصلح للحكم عليه»[1].

ويتميز القانون الإسلامي بالاستقلالية وصلاحيته للرقي والنماء.

أما استقلاليته فهو بما شمل من نصوص قطعية لا تقبل التغيير والتبديل، وتتمثل في ثلاثة أجزاء:

---

(١) التشريع الجنائي ١/١٢.

١ ـ الأحكام الصريحة القطعية الواردة في القرآن والحديث الصحيح كحرمة الخمر والربا والميسر، وحدود السرقة والزنا والقذف وأنصبة الورثة من تركة الميت.

٢ ـ القواعد العامة الواردة في القرآن والأحاديث كحرمة كل شيء مسكر، وحرمة كل بيع لا يتم فيه تبادل المنفعة بين الجانبين على تراض بينهما، وقوامة الرجال على النساء.

٣ ـ الحدود المقررة في القرآن والسنة لتحديد حريتنا في الأعمال ولا نتجاوزها، كحد أربع نساء لتعدد الزوجات، وحد ثلاث مرات للطلاق، وحد ثلث المال للوصية.

فهذا الجزء القطعي غير القابل للتغيير من أجزاء قانون الإسلام هو الذي يعين في حقيقة الأمر حدود مدنية الإسلام وصورتها الممتازة المخصصة[١].

وأما صلاحه للترقي والنماء فهو بما اشتمل عليه من قواعد عامة مرنة في مجال الفروع فتحت له باب الاجتهاد وأمدته بأسس يعتمد عليها للحصول على هذا التوسع والنماء حسب الظروف والمصالح في إطار تلك القواعد الهامة العامة مما كان أهلاً لذلك: وتلك الأسس هي:

١ ـ تغيير الأحكام أو تأويلها أو تفسيرها: وهي المحاولة لفهم ألفاظ جاء بها حكم من أحكام الشريعة وتحديد معناها وغايتها وهو باب واسع في الفقه الإسلامي.

٢ ـ القياس: وهو تطبيق حكم ثابت من الشارع في قضية على قضية أخرى تماثلها. أي بقياسها عليها.

٣ ـ الاجتهاد: وهو فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة وتطبيقها في قضايا جديدة لا يوجد لها النظائر والأشباه في الشريعة.

---

(١) المودودي: القانون الإسلامي وطرق تنفيذه: ٤٣.

٤ ـ الاستحسان: وهو وضع ضوابط وقوانين جديدة في دائرة المباحث غير المحدودة على حسب الحاجات بحيث تتفق إلى أكبر درجة مع روح نظام الإسلام الشامل[١].

ومصادر القانون الإسلامي ستة: مصدران أساسيان وأربعة تبعية.

أما الأساسيان: فالقرآن والسنة النبوية الصحيحة.

وأما المصادر التابعة فهي: الإجماع ـ القياس ـ الاستحسان ـ المصالح المرسلة.

أساس الفرق بين القانون الإسلامي والقانون الوضعي أن القانون الإسلامي مصدره الله عز وجل وهو القائل: ﴿**لا تبديل لكلمات الله**﴾. يونس: ٦٤. وهو عالم الغيب القادر على أن يضع للناس نصوصاً تبقى على مر الزمان.

أما القوانين الوضعية: فمن وضع البشر. وتوضع بقدر حاجتهم الوقتية وبقدر تصور البشر عن معرفة الغيب، تأتي النصوص القانونية التي يضعونها على حكم لم يتلقوه وتكون قاصرة.

تلك بعض المفاهيم عن القانون الإسلامي الذي أشار إليه الشهيد البنا رحمه الله: منبهاً به إلى اشتمال الإسلام عليه واحتوائه لمعناه على أحسن نظام وأجمل نفع.

وهو: أي الإسلام: (علم) أي معرفة، يقال علمت الشيء أعلمه علماً: عرفته[٢]، ويعرفه العلماء بقولهم: معرفة الحق بدليله[٣]. أو ادراك الشيء بحقيقته[٤].

وبهذا التعريف يظهر الفارق بين العلم والثقافة.

---

(١) المصدر السابق (بتصرف) ٤٦.
(٢) الصحاح ٥/١٩٩٠.
(٣) أعلام الموقعين: ١/٧.
(٤) الذريعة: ١٠٢.

فالثقافة تعني الفهم العام لمختلف العلوم، أما العلم فهو: الفهم الخاص الراسخ لأي علم من العلوم المتنوعة، ولما كان العلم ضرورة للإنسان كضرورة الطعام والشراب للإنسان. اهتم الإسلام به اهتماماً كبيراً وعنى به عناية عظيمة لا توجد مثلها في أي دين سبق ولا في أي تشريع وضعي جاء ولا يكون فيما سيأتي وإنك بالنظر إلى كتاب الله وتصفح سنة رسول الله ﷺ تجد ذلك ماثلاً في نصوصها، ودلالة واضحة في منطوقها.

فلقد قرن القرآن الكريم إقرار العلماء وشهادتهم بشهادة الله سبحانه والملائكة في قوله: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط**﴾. آل عمران:١٨. وبين أن المؤمنين من أهل العلم أفضل من المؤمنين من غيرهم وأعلى مقامة منهم في يوم القيامة ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾. المجادلة:١١.

وبين ألا تسوية ولا مقارنة بين أهل العلم والجهلة بقوله: ﴿**هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾. الزمر:٩.

وبين أن الخشية الحقة لله سبحانه لا تكون إلا من العلماء: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾. فاطر:٢٨.

وبين أن أهل العلم هم الشهداء على العصاة من خلقه: ﴿**قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب**﴾. الرعد:٤٣.

وبين أن القوة مصدرها العلم في قوله تعالى: ﴿**قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾. النمل:٤٠.

وبين أن حقيقة الآخرة لا يعرف قدرها وعظمتها إلا العلماء في قوله تعالى: ﴿**وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً**﴾. وبين أنه لا يعرف حقائق الأشياء إلا العلماء كما في قوله تعالى: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾. العنكبوت:٤٣.

ووصف الله كتابه بأنه فصل على علم كما في قوله: ﴿**لقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم**﴾. الأعراف:٥٢ كما أن قصصه صادرة عن علم كما في قوله تعالى: ﴿**فلنقصن عليهم بعلم**﴾ الأعراف:٧ وبين سبحانه أنه: ﴿**خلق الإنسان علمه البيان**﴾. الرحمن:٧٢.

هذه بعض آيات تبين أهمية العلم ومكانته في القرآن الكريم.

أما السنة النبوية: فقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة، دونت في الأمهات الست وغيرها من كتب السنة، بل خص لها الكثير موضوعاً مستقلاً يسمى بالعلم، ونذكر من ذلك «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[١]. «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[٢]، «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»[٣]. «إن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً»[٤]... الحديث.

والعلم الذي دعا إليه الإسلام وأمر به هو علم مطلق يدل على ذلك النصوص التي ذكرت العلم وأكثرها مطلق ومن ادعى خلاف ذلك فعليه الدليل وإنما تتفاوت العلوم فضلاً وشرفاً بحسب موضوعها وميدان بحثها، ومما لا شك فيه أن أولى العلوم وأفضلها هو علم الدين الذي به يعرف الإنسان نفسه، ويعرف ربه، ويهتدي إلى غايته، ويكشف طريقه، ويعلم ما له وما عليه. ثم بعد ذلك كل علم يكشف عن حقيقة تهدي الناس إلى حق أو تقربهم إلى خير، أو تحقق لهم المصلحة، أو تدرأ عنهم مفسدة، كما يدل على ذلك حديث: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)[٥].

والعلم المطلوب في الإسلام على ثلاثة أقسام:

---

(١) انظر كنز العمال ١٠/١٣٠.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم كما في جامع الأصول ٣/٨.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي كما في جامع الأصول ٧/٨.

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي كما في جامع الأصول ٥/٨.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم كما في جامع الأصول ٣/٨ وانظر الرسول والعلم للقرضاوي.

١ - قسم فرض عين: وهو كما يعرفه النووي: تعلم المكلف ما لا يتأدى الواجب الذي تعين فعله إلا به. ككيفية الوضوء والصلاة ونحوها، وعليه حمل جماعة الحديث المروي في مسند أبي يعلى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: (طلب العلم فريضة على كل مسلم). وهذا الحديث وإن لم يكن صحيحاً ثابتاً فمعناه صحيح وحمله آخرون على فرض الكفاية[١].

٢ - قسم فرض كفاية: وهو نوعان، إما أن يكون شرعياً - والمراد بالشرع هنا ما استفيد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة.

وإما أن يكون غير شرعي، وهو ما كان مصدره العقل، أو التجربة أو السماع، وفرض الكفاية: وهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بناء الأبدان، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات، وقسم الوصايا والمواريث وغيرها وهذه العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين، قال ذلك الغزالي رحمه الله، ثم يقول: فلا تعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفاية، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفاية، كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة[٢].

قلت بل كل الصناعات تدخل تحت هذا الحكم ما دامت أمة الإسلام بحاجة إليها ولو كانت صناعة الإبرة فكيف بغيرها.

٣ - وقسم يعد فضيلة لا فريضة: وهو كالتبحر في أصول الأدلة والإمعان فيما وراء القصد الذي يحصل به فرض الكفاية.

وأسس العلم خمسة: المعلم، المتعلم، العلم، وسيلته، أدواته. وقد

(١) النووي: المجموع شرح المهذب.

(٢) إحياء علوم الدين: ١/٢٤ - ٢٨ بتصرف.

جمعها الله في الآيات التالية: **﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾**. العلق: ٣، ٤، ٥.

إن العلم في الإسلام يشمل مجالات عدة تقصر عن الدلالة عليها كلمة (علم) بمفهومها الغربي الحديث القاصر على العلم المادي المجرد. فهو يشمل مجال (ما وراء الطبيعة) مما جاء به الوحي يكشف به عن حقائق الوجود الكبرى وأجاب به عن الأسئلة الخالدة التي حيرت الإنسان منذ فكّر. وهي من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ ويشمل مجال (الإنسان) وما يتعلق به من دراسات تبحث عن جوانب حياته والإقامة المكانية والزمانية والمعيشية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغير ذلك مما تهتم به العلوم الإنسانية. ويشمل العلم مجال (الماديات) المبثوثة في الكون علويه وسفليه وهي تتضمن علوم الطبيعة والكيمياء والأحياء والفلك والطب والهندسة وغيرها مما يقوم على الملاحظة والتجربة.

وهذا المعنى أو هذا المجال هو الذي يقف عنده الغربيون اليوم لا يجاوزونه إذا تحدثوا عن العلم لأنه وحده هو الذي يخضع للاختبار والقياس وتحكم عليه المشاهدة والتجربة ويمكن إدخاله المعمل والمختبر.

والإسلام لا يقف عقبة في سبيل هذا النوع من العلم الذي تعتبر المادة موضوعاً له، ولا يعده مقابلاً للإيمان أو معادياً له كما اعتبرت ذلك أديان أخرى في مراحل تاريخية معينة. بل أن تعاليم القرآن والسنة قد هيأت المناخ النفسي والعقلي الذي ثبت فيه هذا العلم بحيث ترسخ أصوله وتمتد فروعه ويؤتي أكله بإذن الله.

فكونت العقلية العلمية: بالذم للتقليد **﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولايهتدون﴾** المائدة: ١٠٤. ورفض للظن: **﴿وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾**. النجم: ٢٨. (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) متفق عليه.

ويـرفض العواطف والأهـواء والاعتبارات الشخصيـة ويقرر مبـدأ الحياد والموضوعية: ﴿**فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعـون أهواءهم ومن أضـل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله**﴾. القصص: ٥٠.

واهتم بـالنظر والتفكيـر والتأمـل: ﴿**أولم ينظروا في ملكـوت السموات والأرض ومـا خلق الله من شيء**﴾. الأعـراف: ١٨٥. ﴿**وفي أنفسـكم أفـلا تبصـرون**﴾ الـذاريـات: ٢١. ﴿**قـد خلت من قبلكم سنن فسيـروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾. آل عمران: ١٣٧.

ولقد حارب الأمية من أول يوم جاء فيه: ﴿**اقـرأ باسم ربـك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾. العلق: ١ ـ ٥.

ودعـا إلى تعلم اللغـات: فكـان في أصحـاب النبي ﷺ من يعـرف الفارسية والرومية والحبشية. ولقد أمر الرسول ﷺ زيداً أن يتعلم السريانية لغة اليهود. كما في البخاري وأبو داود والترمذي[1]. واستخـدم أسلوب الإحصاء كما في حديث حذيفة: (احصـوا لي كم يلفظ الإسـلام)[2]. فـأحصوهم بـألف وخمسمائة.

وأقر مبدأ التخـطيط واعتمده، وفي قصـة يوسف عليـه السلام ومشـروع تخطيطه الاقتصادي والزراعي المذكور في القرآن أفضل دليل وبرهان.

وأقـر منطق التجـربة في الأمـور الدنيـوية: (أنتم أعلم بـأمـور دينـاكم) أخرجه مسلم من حديث عائشة[3].

واعتبـر رأي الخبير وأهـل المعرفـة ﴿**فاسـأل به خبيـراً**﴾. الفرقـان: ٩. ﴿**ولا ينبئك مثل خبيـر**﴾. فاطر: ١٤.

---

(١) انظر مجموع الفوائد حديث ٣٠٩.
(٢) صحيح مسلم ١/١٣١ رقم ٢٣٥.
(٣) صحيح مسلم: ٤/١٨٣٦.

وأقر أخذ كل علم دنيوي نافع من أي مصدر ولو كان من غير المسلمين (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق الناس بها)[1] الحديث ضعيف إلا أن معناه صحيح.

وحارب الخرافة والأوهام والشعوذة بشدة وقوة... الخ.

هذه التعاليم التي استعرضناها هنا وما بقي كثير جديرة بأن تهيء أفضل مناخ نفسي وعقلي واجتماعي لقيام فكر عملي وحياة عملية، وفكر علمي وحياة علمية. وهذا لما رأينا مصداقه في الحضارة الإسلامية الشامخة المتوازنة التي وصلت الأرض بالسماء وجمعت بين العلم والإيمان ومزجت بين المادة والروح[2].

ومن خلال هذا العرض الموجز والبيان المحدد يتضح أن الإسلام دين العلم كما أنه دين الثقافة.

وهو أي الإسلام:

(قضاء): القضاء في اللغة كما يقول الأزهري: على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه وكل ما أحكم عمله، أو أتم أو ختم أو أدى أداء، أو أوجب، أو أعلم: أو أنفذ، أو أمضى فقد قضى.

قال وقد جاءت هذه الوجوه كلها في الحديث.

وشرعا كما يقول ابن رشد: الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلتزام. أو هو الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي، وقطعاً للنزاع وفقاً للأحكام الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة.

والقضاء ضرورة اجتماعية للحفاظ على الأمن، وفض الخصومات بين المتنازعين، وإعادة الحق إلى صاحبه، أو تعويضه عنه، لذلك اعتبره الإسلام من أهم ما يجب أن يحققه المسلمون بعد الخلافة.

---

(١) جامع الأصول: ٩/٨ وقال أخرجه الترمذي.

(٢) انظر ـ الرسول والعلم ـ ترى العجب العجاب ص ٣٧: ٩٦.

وهو من أعمال الرسل ووظائفهم قال تعالى: **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾**. ص: ٣٦. وقد أمر الله نبيه محمد ﷺ بالفصل بين المتنازعين في قوله: **﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾**. المائدة: ٤٨.

وأول قاضٍ في الإسلام هو نبينا محمد ﷺ وكان ﷺ يرجع في قضائه إلى الإسلام في منهجه القرآن الكريم ثم إلى اجتهاده ومشورة أولي الأمر من أصحابه كما أمره الله بذلك.

ولما اتسعت الدولة الإسلامية عهد رسول الله ﷺ إلى بعض أصحابه بالقضاء مثل: خباب بن أسيد قاضياً في مكة وعلي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل حين أرسلهما إلى اليمن ولاة وقضاة.

واتسع أمر القضاء باتساع رقعة الإسلام وكثرة الداخلين فيه حتى انفصل عن الولاية، ثم تعددت اختصاصاته حيث أصبح للمظالم قاض، وللحسبة قاض وللجيش قاض، وهكذا، ولما كثر القضاة بكثرة الفتوحات الإسلامية وحاجة الناس إلى تعددهم عين (قاضي القضاة) أو (قاضي الجماعة) لكي يتولى تعيين القضاة للأقاليم والبلدان نيابة عن الخليفة، ومع ذلك فقد استمر القضاء مستقلاً لا سلطان عليه لأحد من حيث إصدار الأحكام وحرية المرافعات.

والشريعة الإسلامية جاءت بمبادىء حكيمة لتنظيم القضاء لم تسبق إليه ولم تأت بمثله التشريعات الحديثة.

يقول ظاهر القاسمي: وقد تأكد لي بعد أن طوفت في هذا الموضوع - يعني القضاء - أكثر من أربعين سنة، أن القضاء في الإسلام مؤسسة إسلامية عربية خالصة، لم يشبهها شيء قل أو كثر مما كان عند الأمم الأخرى. وأن الشريعة الإسلامية هي التي وضعت بما جاء في الكتاب والسنة قواعد هذه المؤسسة ونظامها وقوانين الموضوع، وقوانين الشكل فيها.

وإذا كان المسلمون قد اقتبسوا بعض ما كان عند الأمم الأخرى أو نقلوا عنها وقلدوها في بعض شؤون الدولة الإدارية مثل الدواوين، فإنهم قد طبقوا نظام القضاء تطبيقاً إسلامياً صافياً لم يعرفوا فيه أي نقل، أو اقتباس أو تقليد. وبكلمة جامعة ـ نرى السلطة القضائية في الإسلام قد ولدت إسلامية وعاشت إسلامية طوال أربعة عشر قرناً. ولعلها كانت مصدراً غنياً لغيرها من الأمم في بعض الأحيان. ولم تغن بما كان عند الأمم الأخرى[1].

فأول أساس في القضاء الإسلامي هو تحقيق العدل المطلق في الناس قال تعالى: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً﴾**. النساء: ٥٨. وحدد الإسلام قانون العدل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال تعالى: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾**. النساء: ٦٥. وقال تعالى: **﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾**. المائدة: ٤٩.

وبين الإسلام أن أي قضاء يجري على غير هذا القانون فهو طاغوت يجب الكفر به ولا يقبل به إلا كافر أو منافق: **﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾**. النساء: ٦٠، ٦١.

ولقد سن الإسلام من الأنظمة في القضاء ما يحقق معنى العدل ويوصل الحقوق إلى أصحابها بنظام لم يسبق له، من ذلك مبدأ أصول المحاكمات والمرافعات وهو:

---

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي: ٢/٤٧.

أ ـ على القاضي ألا يحكم إلا بعد سماع الخصمين معاً وتمحيص هذه الأقوال واستقصاء الأدلة التي مع كل منهما، يقول الرسول ﷺ لعلي حين ولاه القضاء في اليمن (إذا حضر الخصمان إليك فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر)[1].

ب ـ أن يكون الحكم بالظاهر الذي تدل عليه ظواهر الأدلة والبينات لقول الرسول ﷺ (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليَّ ولعل أحدكم ألحن بحجته من بعض فاقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار) رواه البخاري ومسلم[2].

جـ ـ التسوية بين الخصمين في المجلس، واللحظ والإشارة لحديث (إذا ابتلي أحدكم بالقضاء فلا يجلس أحد الخصمين مجلساً لا يجلسه صاحبه، وإذا ابتلي أحدكم في القضاء فليتق الله في مجلسه وفي لحظه وفي إشارته)[3].

٢ ـ نظام وسائل الإثبات التي يعتمد عليها القضاء منها:

أ ـ الكتابة ﴿**يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل**﴾. البقرة: ٢٨٢.

ب ـ الشهادة: ﴿**واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل أحداهما فتذكر إحداهما الأخرى**﴾. البقرة: ٢٨٢.

جـ ـ اليمين: لحديث (البينة على المدعي واليمين على من أنكر)[4].

٣ ـ مبدأ استقلالية القضاء: أقره الإسلام وسبق به كل الأنظمة القضائيةوالأمم،

---

(١) جامع الأصول: ١٠/١٧٤ وقال أخرجه أبو داود.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم كما في جامع الأصول ١٠/١٨٠.

(٣) كنز العمال جـ ٩/١٠٢ وقال أخرجه قط، طب، أي الدارقطني والطبراني.

(٤) كنز العمال: ٦/١٨٧ وقال أخرجه البيهقي وابن عساكر عن ابن عمر وأخرجه الترمذي بلفظ (واليمين على المدعى عليه) جامع الأصول ١٠/١٨٣.

تمثل ذلك بما حدّث به معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله الرسول ﷺ إلى اليمن والياً وقاضياً فقال له الرسول: بما تقضي يا معاذ؟ فقال معاذ: بكتاب الله، قال الرسول: فإن لم تجد؟ قال معاذ: فبسنة رسول الله، قال الرسول: فإن لم تجد؟ قال معاذ: أجتهد رأيي ولا آلو، فقال رسول الله ﷺ الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله»[1].

٤ ـ ولكي نوضح الفكرة الأساسية التي كان يقوم عليها التقاضي بين الناس وإقامة العدالة فيما بينهم، ينبغي لنا أن نطالع بسرعة ذلك الدستور الذي بينه الخليفة عمر في كتابه الخاص للقضاة أمثال: أبي موسى الأشعري وغيره ـ لنختم به الكلام عن هذا الموضوع ـ وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم.. من عبدالله عمر أمير المؤمنين، إلى عبدالله بن قيس (أبي موسى) سلام عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له وآس بين الناس (أي ساو) في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك. (البينة على من أدعى واليمين على من أنكر) والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه برشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم.. الفهم.. فيما تلجلج في صدرك، ما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأمثال والاشباه وقس الأمور بنظائرها واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة، أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه وإلا وجهت القضاء عليه، إياك والقلق والضجر، والتأذي بالخصوم، والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شانه الله[2].

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي كما في جامع الأصول ١٠/١٧٧.

(٢) الإسلام نظام إنساني لحسن تميم: ١٧١.

وانطلاقاً من هذا الاعتقاد العام المنبثق عن عقيدة الإسلام نحو المال وجميع أشكال الثروة المسخرة للإنسان يلتزم المسلم بالتصورات، والنظم والتعليمات المنصوص عليها في كيفية التعامل مع هذه المظاهر الاقتصادية (المادية) ويزن حركته ونشاطه بها. وها نحن نفصل وبايجاز بيان كل مظهر من المظاهر الاقتصادية التي ذكرها الشهيد البنا رحمه الله لنستظهر عناية الإسلام واهتمامه بها فنقول:

(المادة): في اللغة ما يتركب منه الشيء ويقوم به[1]، وفيما تعارف عليه المعاصرون: الأمر المحسوس المدرك بإحدى الحواس الخمس (اللمس، والسمع، والبصر، والذوق، والشم) ويقابلها الغيب وسائر الأمور المعنوية غير المحسوسة. ولذلك أطلق على الذين لا يؤمنون بالغيب (ماديون) لأنهم لا يعترفون إلا بالمحسوس. وهم المسمون في القرآن (أهل الدنيا) الذين حكى عنهم القرآن قولهم: **﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾**. الجاثية: ٢٤.

وقد بين القرآن الكريم أن الإنسان مكون من عنصرين: مادة وهي التراب **﴿والله خلقكم من تراب﴾**. فاطر: ١١ ومن روح وهي أمر معنوي لا يحس ولا يصل إليه علم الإنسان **﴿ونفخت فيه من روحي﴾**. الحجر: ٢٩ **﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾**. الإسراء: ٨٥.

وقد تناول التشريع السماوي العنصرين في الإنسان بالتوجيه والتنظيم بما فيه اعتدال في الأمرين كما أنه بين ضرر طغيان أحدهما على الآخر من ذلك قوله تعالى: **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك﴾**. القصص: ٧٧.

وأثنى على الذين يسعون إلى تحصيله ويطلبونه من ربهم في قوله: **﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾**. البقرة: ٢٠١.

---

(١) المنجد ٧٥١ مادة مدد.

وبين سبحانه أنه أجاب دعاءهم بقوله ﴿**فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة**﴾ آل عمران ٤٥ .

وبين أن الإجابة هي : ﴿**للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير**﴾ . النحل : ٣٠ .

أما الميل إلى الدنيا وحدها والركون إليها وعدم الالتفات إلى الآخرة فهذا في نظر الإسلام ضلال مبين قال تعالى : ﴿**الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال مبين**﴾ .

واعتبر القرآن من رضي بذلك ممن آثر المتاع القليل المنتهي على الكثير الدائم في قوله : ﴿**أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل**﴾ .

وبين سبحانه أن هؤلاء الصنف من الناس لا حظ لهم ولا نصيب : ﴿**ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وما له في الآخرة من خلاق**﴾ .

وقد أمر الله نبيه أن يتركهم لأنهم اغتروا بالدنيا وحدها وتشاغلوا عن الآخرة بقوله : ﴿**وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا**﴾ . الأنعام : ٧٠ .

وفي مقابل التحذير من الميل إلى الدنيا ينهى الإسلام عن الرهبانية وترك الدنيا والانقطاع عنها تماماً وذم الذين ينهجون هذا النهج بقوله تعالى : ﴿**ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم، إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها**﴾ . الحديد : ٢٧ . والرسول ﷺ ينفي أن يكون في الإسلام رهبانية بقوله (لا رهبانية في الإسلام)[1] وبين أن رهبانية أمته الجهاد في سبيل الله، بل حارب الرسول ﷺ هذا في أمته كما في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنما تقالوها فقالوا أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم : أما أنا أصلي الليل أبداً وقال الآخر : أما أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله

---

(١) الكنز : ٤/٣٠٤ وقال أخرجه أحمد عن أنس رضي الله عنه .

ﷺ فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله أني لأخشاكم لله واتقاكم له ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني)[1].

وقد بين القرآن أن غير المعتدلين فريقان: منهم من يريد الدنيا ومنهم من يريد الآخرة فقال: ﴿**منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة**﴾. آل عمران: ١٠٢.

وبين سبحانه أنه يعطي كل فريق ما يريد حسب ارادته ﴿**ومن يريد ثواب الدنيا نؤته منها، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين**﴾. آل عمران: ١٤٥.

إلا أن الفارق كبير بين أهل الدنيا وأهل الآخرة، إذ أن الآخرة خير وأبقى: ﴿**قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً**﴾. النساء: ٧٧. ﴿**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾. آل عمران: ١٨٥.

وبذلك تعلم موقف الإسلام من الدنيا (المادة) وكيف وجه الانسانية للأخذ بحظهم منها مع عدم نسيان الجانب الآخر من تكوينهم الروحي والعمل لليوم الآخر، وتتأكد الحقيقة التي وضحها الشهيد البنا رحمه الله أن الإسلام (مادة) كما أنه روح.

وهو: أي الإسلام ثروة:

(ثروة) الثروة لغة: تطلق على كثرة العدد من المال والناس يقال: ثروة رجال، وثروة مال، والثراء: هو المال الكثير[2]. والمراد به هنا ما خلقه الله عز وجل وسخره للإنسان في هذه الحياة للانتفاع فتتحقق الخلافة، وتقوم العمارة لهذه الأرض، وتتحقق العناية العظمى من وجود الإنسان في هذه الحياة، وهي: عبادة الله عز وجل.

والإسلام لم يدع هذا الإنسان حيراناً في كيفية استغلال هذه الثروة

---

(١) البخاري: ١/٧ ومسلم: ٢/١٠٢٠.

(٢) لسان العرب ١٤/١١٠.

والاستفادة منها، أو جاهلاً بأصول الثروة وأنواعها، أو متقاعساً متكاسلاً عن السعي في سبيل الحصول عليها، بل وجهه إلى أفضل السبل وأحسن الوسائل إلى كيفية الاستغلال، وأرشده إلى كيفية الاستفادة والنفع بها، ونفع الآخرين. فبين له أنها مسخرة له ذلولة، وأن سبيل الحصول عليها هو السعي والحركة، قال تعالى: ﴿**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه**﴾ الجاثية: ١٣. كما بين للإنسان وسائل الحصول على الثروة وحدد له منابعها ذاكراً له أنواعها. أما المنابع والوسائل فهي:

١ ـ التجارة، قال تعالى: ﴿**إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم**﴾. البقرة: ٢٨٢.

٢ ـ الزراعة، قال تعالى: ﴿**ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد**﴾. ق: ٩، ١٠، ١١.

٣ ـ الصناعة، وأشار لها بقوله: ﴿**وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون**﴾. الأنبياء: ٨٠.

أما الأنواع فَذِكْرُها في التالي:

١ ـ الثروة المعدنية قال تعالى: ﴿**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس**﴾. الحديد: ٢٥.

٢ ـ الثروة المائية، قال تعالى: ﴿**وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج، ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾. فاطر: ١٢.

٣ ـ الثروات الحيوانية: ﴿**وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً**﴾. النحل: ٦٦، ٦٧.

وفي هذه الآيات مزيد بيان لمصادر الثروة، وتوجيه لكيفية الاستفادة منها وتحذير الاساءة لاستغلالها قال تعالى: **﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين* ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم مبين﴾**. الأنعام: ١٤١، ١٤٢.

أما السبيل إلى الحصول على الثروة فقد بين سبحانه أنه السعي والعمل قال تعالى: **﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾**. الجمعة: ١٠.

وقد بين سبحانه أن التوزيع العادل للثروة هو السبيل لعدم تجميعها عند البعض وسبب لتعميم النفع بها، فأرشد العباد إلى الأخذ به فقال: **﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾**. الحشر: ٧.

وقد شرع من وجوه التوزيع للثروة الكثير منها:

١ ـ الزكاة: وقد جعلها الإسلام ركناً من أركانه وقرنها بالصلاة: **﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾**. البقرة: ٤٣.

٢ ـ الانفاق في سبيل الله: ووجوهه كثيرة، وقد وصف القرآن المؤمنين بقول الله تعالى: **﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾**. البقرة: ٣.

وبين أن البر لا ينال إلا بالانفاق من أحب الأموال **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾**. آل عمران: ٩٢.

وهناك وجوه عدة من شأنها توزيع الثروة على المجتمع ولا تجعلها

متجمعة في أيدي القليل مثل: الإرث والوصية والهدية والهبة والوقف العام. . . وغيرها من وجوه البر والإحسان.

والاستيلاء على الثروة وحيازتها في نظر الإسلام لا بد أن يكون مشروعاً ولا بد أن يكون وفق المبادىء التالية:

١ ـ عدم الاعتداء على الحقوق من اجل الحصول على الثروة مثل: السرقة والغصب. أكل أموال الناس بالباطل، الغلول. . . الخ.

٢ ـ عدم الاستيلاء على الثروة بالوسيلة الممنوعة مثل الاحتكار، القمار، ما يؤخذ في مقابل عمل محرم مثل البغاء، والتكهن ، والخمر، والرشوة وارتكاب الجرائم لقاء أجر، والعقود المحرمة مثل الربا. ومثل هذا كل استيلاء يكسب بطريق عقد باطل: كأن اختل فيه شرط اساسي من شروط العقد كالبيع الباطل والايجارات الباطلة والمضاربة الباطلة. . . الخ.

٣ ـ عدم التعسف في استعمال الحق: وهو أن الإنسان لا يعتدي على حق الغير ولكنه يستخدم حقه استخداماً سيئاً يضر بالآخرين دون أن يصل إلى درجة الاعتداء عليهم والشريعة تمنع ذلك كما تمنع الاعتداء على الحق. من ذلك ما ورد عن سمرة بن جندب رضي الله عنه: أنه كان له عضدة من نخل في حائط رجل من الأنصار. قال ومع الرجل أهله قال: فكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذى به ويشق عليه. فطلب إليه أن يبيعه فأبى فطلب إليه أن يناقله فأبى فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فطلب إليه النبي ﷺ أن يبيعه فأبى فطلب إليه أن يناقله فأبى قال فهبه له، ولك «كذا وكذا» أمراً يرغبه فيه فأبى. فقال عليه الصلاة والسلام أنت مضار فقال رسول الله ﷺ اذهب فاخلع نخله»[1]. فالنبي ﷺ شرع مبدأ منع التعسف في استعمال الحق لأن سمرة لم يتعد على الأنصاري وإنما تعسف فقط في استعمال حق ملكية النخيل.

٤ ـ مبدأ تحريم الاكتناز: وذلك بعدم اخراج الحقوق منه مثل الزكاة، والانفاق

---

(١) سنن أبي داود: ٢/٢٨٣.

الواجب، والبذل عند الحاجة قال تعالى: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾**. التوبة: ٣٤.

تلكم بعض قواعد الإسلام العامة وضوابطه الحكيمة تجاه الثروة حيازة وتصريفاً.

وإنا لا نجد تشريعاً سبق ولا نظاماً موجوداً أو سيأتي مثل ما جاء به الإسلام بل كل النظم المعاصرة عالة عليه وتستمد منه نوره ولكن المنافقين لا يعلمون.

وهو: أي الإسلام:

(كسب): الكسب الطلب والسعي في طلب الرزق والمعيشة[1].

وقد اقتضت سنة الله في الخلق أن لا ينال الإنسان شيئاً مما على الأرض، وما في باطنها من نعم وأرزاق وأقوات إلا بجهد يبذل وعمل يؤدى: **﴿وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾** تبارك: ٥١. فمن مشى أكل ومن كان قادراً على المشي ولم يمش كان جديراً ألا يأكل[2].

والكسب في الإسلام على ثلاثة أضرب:

١ ـ فريضة: وذلك للوصول إلى الكفاية بنفسه ومن يقوته (كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت)[3] أو الوفاء لمن عليه دين أو حقوق عامة أخرى.

٢ ـ سُنة: لمن يطلب زائداً على الكفاية للانفاق منه على الفقراء وسائر وجوه البر والإحسان.

٣ ـ مباح: لزيادة المال والجاه والترفه والتنعم مع سلامة الدين والعِرض والمروءة وبراءة الذمة. وحكى ابن حزم الاتفاق على ذلك[4].

---

(١) لسان العرب لابن منظور: ١٦/١ مادة كسب.
(٢) معالم الثقافة لعبد الكريم عثمان: ١٥٤.
(٣) سنن أبي داود: ٣٩٣/١.
(٤) انظر الآداب الشرعية: ٢٧٨/٣.

ولما كان الكسب في الإسلام بهذه المنزلة، اعتبر كسب الرجل من يده من أجل المكاسب وأفضل الأعمال ـ الحديث ـ (ما أكل أحد طعاماً قط خير له من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده) رواه البخاري[١] وحديث: (أطيب الكسب عمل الرجل بيده) رواه أحمد والحاكم[٢].

ولاهتمام الإسلام بالعمل أمر به بعد أداء فريضة الصلاة، ليعلم الناس أن العمل واجب عليهم كوجوب العبادة قال تعالى: **﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾**. الجمعة: ١٠ [٣].

كما أنه جعل الكسب والعمل قرين الجهاد في سبيل الله قال تعالى: **﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾**. المزمل: ٢٠.

وفي الوقت الذي اهتم الإسلام بالكسب والعمل، شنع فيه على التقاعد والتكاسل عن العمل ممن يقدر عليه حتى لا يكون عالة على الغير، قال: «لأن يحتزم أحدكم حزمة من حطب فيحملها على ظهره فيبيعها خير له من أن يسأل رجلاً فيعطيه أو يمنعه» متفق عليه واللفظ لمسلم[٤].

ويعتبر الإسلام الذي يمد يده وهو قادر على الكسب إنساناً ذليلاً مهيناً مهدور الكرامة، مائع الشخصية، لا وزن له ولا قيمة بين الناس فقال: (اليد العليا خير من اليد السفلى، والعليا هي المنفقة والسفلى هي السائلة) متفق عليه[٥]. وكان رسول الله ﷺ إذا وجد إنساناً يسأل الصدقة وهو قادر على الكسب والعمل يهيء له أسباب ذلك ويحذره من أن يسأل وهو يستطيع

---

(١) صحيح البخاري: ٧٤/٣.
(٢) سنن ابن ماجه: ١/٢.
(٣) التكافل الإجتماعي في الإسلام: ٣٨.
(٤) صحيح البخاري: ٧٥/٣ ومسلم: ٧٢١/٢.
(٥) صحيح البخاري: ١٤٠/٢ ومسلم: ٧١٧/٢.

الكسب حفاظاً على رجولته من أن تهان وكرامته من أن تداس[1]. وفي الحديث: (لا يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم)[2].

ويقول عمر رضي الله عنه: (لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة)[3].

ولم يعتبر الإسلام ترك العمل والكسب رجاء أن يأتي الرزق من حيث لا يحتسب من التوكل كما فهم البعض خطأ. بل اعتبره من التواكل ولقد صحح هذا المفهوم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه حين سئل ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيئاً حتى يأتي رزقي. فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم أما سمع قول النبي ﷺ: (وجعل رزقي تحت ظل رمحي)[4] وقال حين ذكر الطير: (تغدوا خماصاً وتروح بطاناً)[5] وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخلهم، والقدوة بهم[6].

إن التواكل والقعود عن السعي خلق يأباه الإسلام للمسلمين لأنه عدى عن كونه يتعارض مع قواعد الإسلام العامة في معنى العبادة فإنه يحجب المسلمين عن مكان الصدارة في هذا العالم وقد أريد للأمة المسلمة أن تكون الأمة الممتازة في تقديرها لحقيقتها وتقويمها لنفسها، ومكانتها بين الأمم **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾**. البقرة:١٤٣. والشهادة هنا عامة شاملة لا تقتصر على جانب من جوانب الحياة أو نوع من أنواع السلوك.

---

(١) التكافل الإجتماعي في الإسلام.
(٢) صحيح مسلم: ٧٢٠/٢.
(٣) قال في الكنز: ٢٨٦/٤ أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني عن ابن عمر.
(٤) البخاري: ٤٩/٤.
(٥) سنن ابن ماجه: ١٣٩٤/٢.
(٦) ابن قدامة في الآداب الشرعية: ٢٩٠/٣.

وبهذا يتضح مراد الشهيد البنا رحمه الله من أن الإسلام كسب حيث أنه اشتمل على أمر المسلم به ووجهه إليه، وكره إليه القعود والكسل ولم يرض له الذلة والمهانة بالاعتماد على الغير والاستشراف إلى ما في أيدي الآخرين.

ولما كان الكسب ينتج عن غنى فقد ذكر الشهيد البنا رحمه الله أن الإسلام موصوف به فقال وهو: أي الإسلام:

(غنى): الغنى ضد الفقر وهو ما تحصل به الكفاية وفي الحديث: (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى)(1). وقد اقتضت سنة الله سبحانه في عباده ألا يجعلهم متساوين في الرزق لحكمة أرادها، ولمصلحة علمها لعباده من قوام هذا الحياة رحمة منه وعدلاً قال تعالى: **﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾** الزخرف: ٣٢. وبين سبحانه أن الإنسان مفطور على حب المال والحرص عليه في قوله سبحانه وتعالى: **﴿وتحبون المال حباً جماً﴾**. الفجر: ٢٠ وقوله عن الإنسان **﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾**. العاديات: ٨. ومع ذلك فقد أرشده إلى ما فيه اعتدال حتى لا يطغى عليه حب المال فيقع في الهلاك **﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾**. العلق: ٦، ٧. فأرشده إلى الاعتدال في الانفاق والإمساك فقال: **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾**. الإسراء: ٢٩، وأثنى على المستجيبين بقوله: **﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾**. الفرقان: ٦٧. كما أنه ذم المبذرين بقوله: **﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً﴾**. الإسراء: ٢٦، ٢٧. ومن التبذير إضاعة المال في غير وجهه وفي الحديث (إن الله ينهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال)(2) وميزان الاعتدال في الانفاق هو البذل فيما أمر الله أن يبذل فيه

---

(1) البخاري: ٢/١٣٩.

(2) صحيح البخاري: ٣/١٥٧.

ايجاباً واستحباباً، وإباحة من غير اسراف. قال تعالى: **﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾**. الأعراف: ٣٢.

وقال تعالى: **﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾**. الأعراف: ٣١. كما أن ميزان الاعتدال في الإسلام أن لا يبلغ درجة الشح ومنع الحقوق الواجبة والمستحبة **﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن انتم إلا في ضلال مبين﴾**. يس٤٧. وقال تعالى: **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾**. الحشر: ٩. وفي الحديث (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) رواه مسلم[١].

كما أن ميزان كسب الحلال أن يؤتى به من وجهه المشروع، وبوسيلته المشروعة. وفي الحديث (يأتي على الناس زمان ما يبالي الرجل من أين أصاب المال من حلال أم من حرام) رواه البخاري[٢].

وبهذه المباديء يتضح اعتدال نظرة الإسلام نحو المال وكسبه حيث أوجب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره وأشاد بالغني الشاكر الذي يستخدم ماله في نفع الناس ومرضاة الله.

وليس في الإسلام هذا المعنى الذي يدفع الناس إلى الفقر والفاقة وفهم الزهد على غير معناه. وما ورد في ذم الدنيا والمال والغنى والثروة إنما يراد به ما يدعو إلى الطغيان والفتنة والإسراف، ويستعان به على الإثم والمعصية والفجور وكفران النعمة وفي الحديث (نعم المال الصالح للرجل الصالح)[٣] وفي القرآن: **﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾**. النساء: ٥.

---

(١) صحيح مسلم: ١٩٩٦/٤ رقم ٥٦.
(٢) سنن النسائي: ٢٤٣/٧.
(٣) أخرجه أحمد رقم ١٩٧/٤، ٢٠٣ كما في المعجم المفهرس مادة صلح.

بـل نجـد أن الإسـلام شنـع على الفقـر وبين مساوئـه ونفـر منـه وأمـر بالاستعاذة منه وفي الحديث (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر)[1].

والمال في الإسلام هو أحد وسائل الخير في الحياة ولذلك سمـاه خيراً، في أكثر من آية. من ذلك: **﴿كتب عليكم إذا حضر أحـدكم الموت إن تـرك خيراً الـوصية للوالدين والأقربين بالمعـروف﴾**. البقرة: ١٨٠. وقـوله: **﴿وإنـه لحب الخير لشديد﴾**. العاديات: ٨. وقولـه على لسان مـوسى عليه السـلام: **﴿إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾**. القصص: ٢٤.

والخير في هذه الآيات عند أكثر المفسرين: المال. ولذا أنيطت به كثير من الفرائض والواجبات ورغب به لنيل أعلى الدرجات بالمنافسة بـه في سائـر وجوه البر والإحسان: **﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراًوعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**. البقرة: ٢٧٤ **﴿مثـل الـذين ينفقون أمـوالهم في سبيل الله كمثـل حبة أنبتت سبـع سنابـل في كـل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾**. البقرة: ٢٦١.

وهكـذا نخلص من هذا التـوضيح والبيـان من أن الإسـلام مـادة وثـروة وكسب وغنى ـ والله أعلم.

وهو أي الإسلام: (جهاد)

مادة جهد في اللغة العربية تعني الوسع والطاقة والمشقة كما أنه يوصف به المكان الشاق والعمل المضني. ولذلك عرف الجهاد في اللغة بأنه المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب واللسان أو ما أطاق من شيء[2].

أمـا في اصطلاح أهـل العلم فهو يـطلق على استخـدام جميـع القـوى والوسائل التي يمكن استخدامها لاحداث تغيير عام وشامل تعلو به كلمة الله.

ولقـد اقتضت سنة الله سبحـانه وتعـالى في هـذه الحيـاة ألا تستقيم ولا

---

(١) أخرجه أبو داود ٢/ ٦١٨.

(٢) انظر لسان العرب ٣/ ١٣٣.

تصلح إلا بتحقيق الدفاع وقيام الناس به ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾. وأن دينه لا يعلو إلا إذا صارع أهل الدين من أجله: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**﴾. الحج: ٤٠. لذلك شرع الله الجهاد وجعله فريضة لازمة على عباده ولا مناص منها لأحد ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم**﴾. البقرة: ٢١٦ وكتب بمعنى فرض: مثل قوله تعالى: ﴿**كتب عليكم الصيام**﴾ البقرة: ١٨٧ وجعل حكمه باق إلى يوم القيامة (الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل والإيمان بالأقدار[1] وجعله أفضل عمل يقوم به الإنسان بعد الإيمان بالله ورسوله. سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال إيمان بالله ورسوله قيل ثم ماذا قال الجهاد في سبيل الله قيل ثم ماذا؟ قال حج مبرور) متفق عليه[2].

ومقام المجاهدين عند الله عظيم وفضلهم على القاعدين كبير قال تعالى: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً* درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً**﴾. النساء ٩٥ - ٩٦.

والجهاد في الإسلام ليس مقصوراً على القتال كما قد يتصوره البعض بل هو أشمل من ذلك وأعم إذ أنه أنواع. ومن ذلك:

١ - **جهاد النفس والهوى**: وتربيتها على الحق والتزامه وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**﴾. العنكبوت: ٦٩. ويقول ﷺ: (المجاهد من جاهد نفسه)[3].

---

(١) سنن أبي داود: ٢/١٧.

(٢) البخاري: ٣/٦٤ ومسلم رقم ٨٣ جـ ١ ص٨٨.

(٣) جامع الترمذي: ٧/١٢٣ من عارضة الأحوذي.

٢ ـ **جهاد التعليم**: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾. التوبة: ١٢٢. فعبر بالنفير وهو مما يستعمل عادة في الجهاد.

٣ ـ **جهاد اللسان**: ويؤخذ من قوله تعالى لنبيه: ﴿**فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً**﴾. الفرقان: ٥٢. وكقوله ﷺ (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) رواه أبو داود بإسناد صحيح[١].

٤ ـ **جهاد السياسة**: وهو مأخوذ من قوله ﷺ (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) رواه أبو داود وقال الترمذي[٢] حديث حسن.

٥ ـ **جهاد المال**: قال تعالى: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾. التوبة: ٤١.

٦ ـ **جهاد القتال**: قال تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾. البقرة: ١٩٠. ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾. التوبة: ٣٩.

وهذا النوع الأخير من الجهاد لا يعتبره الإسلام حرفة مقصورة على فئة معينة كما يفهم البعض إنما يفرضه بالنفس والمال على كل قادر في الأمة. ويعد الأمة كلها لتكون عند الحاجة جيشاً مجاهداً في سبيل الله، ويقف كل فرد من أفرادها على ثغر من ثغورها ولا يعتمد في هذا الإعداد على التشريع وحده بل يجمع بينه وبين التربية، أي أن يقوم أولاً بوازع الضمير(الإيمان) ثم سلطان القانون (التشريع).

والجهاد بمعناه العام في الإسلام يشمل مباديء يحصرها ابن القيم رحمه الله في أربعة هي: ـ النفس، الشيطان، المنحرفون من الظلمة

---

(١) سنن أبي داود: ٢/١٠.

(٢) سنن أبي داود: ٢/٤٣٨ والترمذي: ٣/٣١٠ من تحفة الأحوذي.

وأصحاب البدع والمنكرات في المجتمع الإسلامي، والكفار والمنافقون[1].

ولقد شرع الإسلام من النظم الجهادية، والأخلاق العسكرية والرحمة الانسانية، والطاقة النبيلة ما لم يصل اليه أي تشريع أو نظام سبق أو سيأتي وما ذاك إلا أنه من عند عزيز حكيم ورب رحيم. وفي هذه الطائفة من النصوص ما يوضح ذلك ويجليه:

١ ـ كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية قال: (اغزوا باسم الله وفي سبيل الله وقاتلوا من كفر بالله: اغزوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً) أخرجه أبو داود عن بريدة[2]. وفي رواية له عن أنس بن مالك بلفظ (انطلقوا باسم الله وبالله ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا صغيراً ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين).

٢ ـ (أن لا نستعين بالمشركين على المشركين) أخرجه أحمد[3].

٣ ـ (من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية ـ ومن قاتل تحت راية عمية يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبيته فقتل فقتلته جاهلية) أخرجه النسائي[4].

٤ ـ (نهى رسول الله ﷺ أن يلقى السم في بلاد العدو).
أخرجه الطحاوي[5].

٥ ـ (من ضيق منزلاً أو قطع طريقاً فلا جهاد له) أخرجه أبو داود[6].

٦ ـ (القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدين) رواه مسلم[7].

---

(١) انظر زاد المعاد ٢/٣٩ وما بعدها.
(٢) سنن أبي داود: ٢/٣٦.
(٣) كنز العمال جـ ٤/٣٥٨.
(٤) سنن النسائي: ٧/١٢٣.
(٥) السنن.
(٦) السنن: ٢/٣٩.
(٧) صحيح مسلم: ٣/١٥٠٢ رقم ١٢٠.

هذه إلماحة موجزة عن فكرة الجهاد الإسلامي تبين مكانته في الإسلام وتوضح اهتمام الإسلام به وتعطي تصوراً عن مبادئه وأخلاقه وما أودع في الجهاد الإسلامي من رحمة بالعالمين ومن أراد مزيداً من التفصيل والبيان ففي القرآن والسنة والفقه الإسلامي وما كتب عنه من كتاب العصر العجب العجاب فليرجع إليه والله الموفق.

وهو أي الإسلام: (دعوة):

في لسان العرب[1] دعا الرجل دعواً ودعاء ناداه والاسم بالدعوة. وهي بهذا المعنى تعني الجهد المبذول وتطلق أيضاً على محتوى الدعوة ومنه قوله تعالى: ﴿**له دعوة الحق**﴾. وهي شهادة أن لا إله إلا الله ومنه الدعاية. (أدعوك بدعاية الإسلام) وهي كلمة الشهادة.

إذن فالدعوة هي الترغيب في الأمر أو بمعنى آخر الدعاية له بما يبذل من جهد الاتصال والدعاية لذلك الأمر حتى يعرف. وهي بهذا التعريف تكون مرادفة لكلمة الإعلان والدعاية.

إلا أن بعض الكتاب المعاصرين ذكر فارقاً بين العبارات الثلاث حيث يقول إن الدعوة الجهد المبذول لبلاغ الرسالة، والإعلام هو الجهد المبذول لتأييد الرسالة، والدعاية هي الأسلوب الذي يروج للرسالة عن طريق التأثير في عواطف الفرد أو الجماعة أو استهوائها بقدر المستطاع[2].

إلا أن دعوة الإسلام تميزت باضافتها إلى غايتها (الله) ولذلك يقال الدعوة إلى الله. وهذه الإضافة قيد ضابط أفادت أن دعوة الإسلام تعني دعوة البشرية جميعاً من أجل تحقيق العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى: ﴿**قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين**﴾. يوسف: ١٠٨. والدعوة إلى الله في الإسلام ذات شأن عظيم

---

(١) لسان العرب جـ ٤/ ٢٥٨.

(٢) الإعلام في صدر الإسلام ص١٠٤ عبد اللطيف حمزة.

ومكانة رفيعة بشهادة القرآن على ذلك. فقولها أحسن الأقوال، وأعمال أهلها مزكاة بالصلاح، وإعلان الانتماء إلى مضمونها دلالة عز وافتخار قال تعالى: **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾**. فصلت: ٣٣. وللدعوة الإسلامية خصائص تميزها عن ما سواها من الدعوات الأخرى وهي كثيرة نذكر منها ما يلي:

١ ـ **الربانية**: لأنها مستمدة من الله وهي له، وهو صاحبها قال تعالى: **﴿له دعوة الحق﴾**. الرعد: ١٤.

٢ ـ **إنها دعوة إلى الحق**: وما عداها دعوة إلى الباطل: **﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾**. غافر: ٢٠.

٣ ـ **إنها دعوة إلى النجاة**: وما سواها دعوة إلى النار **﴿ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾** غافر: ٤١. ويقول تعالى: **﴿أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾**. البقرة: ٢٢١.

٤ ـ **إنها دعوة ثابتة الغاية**: وهذا لم يكن في سواها من دعوات البشر: **﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾**. يوسف: ١٠٨.

٥ ـ **إنها دعوة حياة**: وما عداها دعوة موت **﴿يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾**. الأنفال: ٢٤.

٦ ـ إنها عالمية: توجه نداءها للناس جميعاً **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾**. سبأ: ٢٨.

هذه أهم خصائص الدعوة الإسلامية وفي القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ الكثير والكثير من الخصائص التي لا ينضب معينها ولا ينتهي خيرها.

والدعوة إلى الله عز وجل واجبة على كل مسلم ومسلمة في حدود الاستطاعة والقدرة، ولا يخرج عن هذا الحكم إلا من سقط عنه التكليف:

﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ يوسف: ١٠٨. والمتبع لرسول الله ﷺ كل مؤمن.

ولا يختص العلماء - أو كما يسميهم البعض رجال الدين - بأصل هذا الواجب لأنه واجب الجميع والرسول ﷺ يقول: بلغوا عني ولو آية - وإنما يختص العلماء إضافة على عموم وجوب الدعوة بتبليغ تفاصيل هذا الدين وأحكامه ومعانيه نظراً لسعة علمهم به ومعرفتهم بجزئياته. وهذا الدين دل عليه عمل الصحابة ومن بعدهم قال تعالى: **﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾**. البقرة: ١٥٩، ١٦٠.

وهي تؤدى بصورة فردية يؤديها المسلم بصفته فرداً في الجماعة التي تدعو إلى الله تعالى يقول تعالى: **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾** آل عمران: ١٠٤. والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[1].

والدعوة في نظر الإسلام - لا بد أن تسبق الجهاد - كل أنواع الجهاد التي سبق أن أشرنا إليها - إذ إنه لا يؤاخذ الإنسان بالتكاليف إلا بعد البلاغ: **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾**. الإسراء: ١٥. والبلاغ لا يتم أولاً إلا بالدعوة ولقد كان رسول الله ﷺ لا يغير على قوم ولا يؤاخذ أحداً بما يصدر منه إلا بعد البلاغ والإعلام، وفي حديث معاذ حين أرسله إلى اليمن دلالة واضحة على ما نقول.

---

(١) صحيح مسلم: ١/٦٩ رقم (٤٩).

والدعوة الإسلامية تقوم على أسس لا بد من توافرها وهي:

١ - الداعي: وهو رسول الله ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين إلى قيام الساعة.

٢ - الدعوة: وهي كلمة الشهادة وحقوقها وهي سبيل الله.

٣ - المدعوون: وهم الناس جميعاً عرباً وعجماً، أبيض وأحمر.

٤ - الأسلوب: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وقد جمعها الله عز وجل في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾. النحل: ١٢٥.

وبهذا العرض الموجز لتعريف الدعوة وبيان أهميتها ومكانتها في الإسلام واستعراض خصائصها المميزة لها عن ما سواها وذكر حكم الدعوة إلى الله عز وجل والأسس التي تقوم عليها يتضح حقيقة ما أشار إليه الشهيد البنا رحمه الله من أن الإسلام دعوة كما أنه جهاد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى والله أعلم.

وهو: أي الإسلام: (جيش):

الجيش لغة: من مادة جيش بمعنى غلى.. وفي لسان العرب: الجيش واحد الجيوش، والجيش الجند، وقيل جماعة من الناس في الحرب[1].

ويعرفه العسكريون: بأنه القوة الحامية والبأس المانع الذي يرعى الدولة، ويحمي الأمة، ويدافع عن الوطن والعقيدة والحقوق الإنسانية العامة، من كل اعتداء خارجي، ويؤدب الخوارج على الإجماع والسلطان والقرآن ويفتح الفتوح ويحفظها جميعاً وينجد المستضعفين من المسلمين[2] ولا قوة ولا عزة إلا بالله سبحانه وتعالى ثم بالجيش وعدته.

ومن خلال التعريف ندرك أهمية الجيش ومكانته ولذا نجد أن الإسلام اهتم به اهتماماً كبيراً، وعده أهم وسيلة من وسائل القوة التي يتحقق بها

(١) لسان العرب: ٢٢٨/٦.

(٢) القتال في الإسلام: ١٦.

الجهاد في سبيل الله. فشرع أن يكون جيش من أول يوم شرع فيه القتال وأقام فيه السلطان، وحشد له كل القوى المادية والمعنوية في الأمة وفضل العمل فيه على كل الأعمال واعتبره ذروة الأمر وسنامه، واستغرقت السور والآيات الخاصة به في القرآن الكريم قسطاً كبيراً فصل فيها كل ما يتصل به تفصيلاً عجيباً ووزع أعماله المختلفة ومسؤولياته الكبيرة على جهاتها المختصة توزيعاً دقيقاً وربط بين عناصر القوى المتعددة بروابط متينة يسهل لها حسن التعاون وسرعة التجمع، وجعل اتصالها جميعاً بعضها ببعض كاتصال أعضاء الجسم يجري فيها الدم على قدر معلوم وبحركة منتظمة.

ومن الناحية العملية إذا رجعنا إلى سيرة الرسول ﷺ والتاريخ الإسلامي نجد أن الرسول ﷺ كون جيشاً مقاتلاً من القادرين على القتال من المسلمين وكان في بداية الدعوة كل من دخل في الإسلام يكون جندياً في الجيش الإسلامي، وكان المهاجرون النواة الأولى لهذا الجيش ثم انضم إليهم الأنصار بعد الهجرة وكان أول جيش غزا به الرسول ﷺ في بدر وبلغ عدده ٣١٥ مقاتلاً وبلغ جيش غزوة أحد ٦٥٠ وبلغ الجيش الإسلامي في مؤتة ٣٠٠٠ مقاتلاً وفي تبوك آخر غزوة غزاها الرسول ﷺ بلغ جيشها ثلاثين ألف مقاتل ومعهم عشرة آلاف فارس.

وقد نظم الرسول ﷺ الجيش وجعل عليهم رؤساء يعرفون (بالعرفاء) وكان بواسطة العرفاء يتعرف الرسول ﷺ على أحوال المجاهدين، وكان عريف كل قوم هو زعيمهم والقائم بأمورهم.

أما الخلفاء الراشدون فكانت عنايتهم بتكوين الجيوش وإعدادها امتداداً لما كان عليه رسول الله ﷺ من الاهتمام والعناية حتى أن الخليفة الثاني رضي الله عنه نظم للجيش الإسلامي نظاماً عرف (بديوان الجند) وكان الديوان يسجل فيه أسماء المجاهدين. وقد بلغ عدد الجيش الإسلامي مائة وخمسون ألف مجاهد، وقد تضاعف عدد الجيش تبعاً للفتوحات الإسلامية في عهد عمر رضي الله عنه وعثمان بن عفان رضي الله عنه، وهكذا استمر الخلفاء من بعدهم حتى بلغت الجيوش الإسلامية أعداداً كبيرة ومنظمة تنظيماً جيداً

ومدربة تدريباً عالياً ومسلحة تسليحاً راقياً أكسبته الهيبة ومنحته القـوة ونصر الله به الحق وأعز به دينه ونشـره بـه في الخـافقين.

والإسلام وهو يشرع إعداد الجيش وتكوينه لم يتركه يسير سيراً فوضويـاً بل أقامه على أسس ثابتة وأرشـد إلى تربيته تـربية فـريدة وربـطه بغايـة حميدة ونظم شؤونه بنظام فريد بديع.

فأساسـه قيادة مسؤولـة (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والإمـام راع ومسؤول عن رعيته)[1]. وجندية ملتزمة مبصرة (اسمعـوا وأطيعوا وإن أمـر عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة)[2]،(لا طاعة لمخلوق في معصية الله)[3]. وتـربيته قـائمة على تحقيق شـروط أساسيـة لا بـد من تـوافـرهـا في المقـاتـل المسلم، إذ بدونها لا يمكن أن يتحقق نصر أو ينال نجاح ويجملها حبنكـة[4] في ستة شروط وهي:

١ ـ **وحدة الغاية**: وذلك بأن تكون غاية المقاتلين واحدة وهي بـالنسبة للجيش الإسلامي ابتغاء مرضاة الله سبحانه بالعمل لنشـر دينه وإعـلاء كلمته قـال تعالى: ﴿**انفروا خفافاً وثقـالاً وجاهـدوا بأمـوالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾. التوبة: ٤٩ وقال تعالى: ﴿**وقـاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾. الأنفال: ٣٩.

٢ ـ **وحدة صف المقاتلين وتماسك جماعتهم**: وذلك بتنفيـذهم الدقيق لأوامـر قيـادتهم الحربيـة الواحـدة وأن تكـون قلوبهم على قلب رجـل واحـد من حيث استشعار المسؤولية والوقوف في وجـه العدو.. الـخ. قال تعـالى: ﴿**إن الله يحب الـذين يقاتلون في سبيله صفـاً كأنهم بنيـان مرصـوص**﴾. الصف: ٤.

٣ ـ **الاعتماد على الله في تحقيق النصر وعـدم الاعتزاز بـالنفس**: قال تعـالى:

---

(١) البخاري: ٦/١ ومسلم: ١٤٥٨/٣.

(٢) سنن ابن ماجه ٩٥٥/٢١ رقم ٢٨٦٠.

(٣) صحيح مسلم: ١٤٦٩/٣ رقم ١٨٤٠.

(٤) الشيخ عبد الرحمن حبنكة من كتابه.

﴿وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾. الأنفال: ١٠ .

٤ ـ **شدة البأس في القتال**: قال تعالى: ﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون﴾. الأنفال: ٥٧ .

٥ ـ **الثبات والمصابرة**: وعدم تولية الأدبار مع الاعتصام بالإكثار من ذكر الله، قال تعالى: ﴿يٰأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾. الأنفال: ١٥ ويقول تعالى: ﴿يٰأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾. الأنفال: ٤٥ .

٦ ـ **طاعة القيادة وعدم التنازع في الأمر**: قال تعالى: ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾. الأنفال: ٤٦ .

وبتحقيق هذه الشروط في القتال مع شرط إعداد العدة الكافية السابقة له ومع تحديد الهدف منه كما أمر الله تعالى، يستطيع الجيش الإسلامي حامل رسالة الحضارة الإسلامية المجيدة أن يظفر بالنصر كلما لاقى عدوه (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ الأحزاب: ٦٢[١].

أما غاية الجيش الإسلامي فقد حددها الإسلام بأنها إعلاء كلمة الله. (سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً أي ذلك في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[٢] وقال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ الأنفال: ٢٩ .

أما النظام العسكري في الإسلام فإنه قائم على مبادىء تستمد كل الأنظمة العسكرية المعاصرة من نوره وتقتبس من تعاليمه، وعلى سبيل المثال

---

(١) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ٣٩٦/٤٠٠ بتصرف وإيجاز.

(٢) صحيح مسلم: ١٥١٣/٣.

مبدأ الضبط والربط، ومبدأ اللياقة وحسن الهندام، ومبدأ نظام التجنيد والتسريح، ومبدأ انقسام الجيش إلى متطوعين ونظاميين، ومبدأ معاملة الأسرى، ومبدأ التغير بقسميه، وإعلان الحرب وشروط الهدنة والصلح الخ . . كل هذه المبادىء مما سبق إليها الإسلام بأفضل تشريع وأحسن بيان، ومن أراد أن يرى حقيقة ذلك فليعد إلى كتب السنة والفقه الإسلامي وسيجد ما ينشرح به صدره وتقر به عينه.

ومن هذا ندرك مقصود الشهيد حسن البنا رحمه الله من أن الإسلام شمل في نظامه (الجيش) اعداداً وعدة ولما كان الجيش لا يمكن أن يتحقق منه اخلاص وتفانٍ في جهاده وقتاله ما لم يكن تربى على الإسلام وتبنى أفكاره وسعى لإعلاء كلمته. لذلك قرن الشهيد البنا رحمه الله ذكر الجيش بذكر فكرة الإسلام وبيان اشتمال الإسلام على ذلك فقال وهو أي الإسلام: (فكرة):

يقول الجوهري - التفكر: التأمل. والاسم الفكر والفكرة والمصدر الفكر والفكر بالفتح[1] ومن المعنى اللغوي يتضح أن الفكرة اسم للنتيجة الحقة التي يتوصل إليها عن طريق التأمل السليم والنظر الصحيح. وفكرة الإسلام هي حقائقه التي لا يخطئها الفكر السليم حين يستخدم قواه الفطرية بتأمل وروية. بل يتوصل بها إلى عقيدة يقينية لا يدخل إليها شك ولا ينالها ريب. ولذا كانت عناية القرآن الكريم بالتفكر وإرشاد البشرية إليه عظيمة، ودعوته إليه صريحة ويقرر أن التفكر يوصل إلى فكرة الإسلام الحقة في الله وفي عبادته وفيما أنزل الله تعالى. قال تعالى: **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا،**

---

(١) الصحاح ٢/٧٨٣.

ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾. آل عمران: ١٩٠ إلى آخر السورة.

ويوضح ابن القيم رحمه الله **الفكرة** فيقول وأصلها الفكرة في التوحيد وهي استحضار أدلته وشواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحالته وأن الألهية يستحيل ثبوتها لاثنين كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين، فكذلك من أبطل الباطل عبادة اثنين والتوكل على اثنين بل لا تصح العبادة إلا لله الحق والرب الحق وهو الله الواحد القهار وهذه الفكرة هي حقيقة البراء والولاء. البراء من عبادة غير الله والولاء لله قال تعالى: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾**. الممتحنة: ٤. وقال تعالى: **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون*إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾**الزخرف: ٢٦، ٢٧. وقال أيضاً: **﴿يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾**. الأنعام: ٧٩. وقال تعالى لرسوله ﷺ: **﴿قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون.. إلى آخر الآيات﴾**. وهذه براءة منهم ومن معبودهم وسماها براءة من الشرك وهي **حقيقة المحو والإثبات**، فيمحو محبة ما سوى الله عز وجل من قلبه علماً وقصداً وعبادة كما هي ممحوة من الوجود ويثبت فيه إلاهيته سبحانه وحده. وهي: **حقيقة الجمع والفرق**: فيفرق بين الإله الحق وبين من ادعيت له الإلهية بالباطل ويجمع تأليهه وعبادته وحبه وخوفه ورجاءه وتوكله واستعانته على الهه الحق الذي لا إله سواه.

وهي: **حقيقة التجريد والتفريد**: فيجرد عن عبادة من سواه ويفرده وحده بالعبادة. فالتجريد نفي والتفريد إثبات ومجموعهما هو التوحيد فهذا الولاء والبراء والمحو والإثبات والجمع والفرق والتجريد والتفريد المتعلق بالتوحيد للإلهية هو النافع المثمر المنجي الذي به ينال السعادة والفلاح[1] والشهيد

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ١٠٥.

البنا رحمه الله حين وصف الإسلام بأنه فكرة أراد ما اشتمل عليه من حقائق شاملة منطلقها الإيمان وهدفها الإنسان: **﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾**. الأنعام: ١٢٢. ويدل على مقصوده هذا قوله وهو في معرض الحديث عن دعوة الإخوان المسلمين - ولكن ليس دعوتهم إلا فكرة وعقيدة يقذفون بها في نفوس الناس ليتربى عليها الرأي العام، وتؤمن بها القلوب، وتجتمع من حولها الأرواح -.

تلك هي أسس العمل للإسلام والعمل به في كل نواحي الحياة[١].

وفكرة الإسلام فكرة شاملة عن الله، والكون، والحياة، والإنسان، والحديث عنها لا يتسع له هذا الشرح، ولكن نحيل التوضيح والبيان إلى كتاب (سيد قطب) رحمه الله بعنوان (فكرة الإسلام عن الله والكون والحياة والإنسان) وطبع بعنوان (خصائص التصور الإسلامي ومقوماته) وهو كتاب قيم في ذاته فليرجع إليه.

وبعد.. فهذا هو الأصل يقرر أن الإسلام: نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً:

١ - فهو؛ دولة ووطن، أو حكومة وأمة

٢ - وهو: خلق وقوة، أو رحمة وعدالة

٣ - وهو: ثقافة وقانون، أو علم وقضاء

٤ - وهو: مادة وثروة، أو كسب وغنى

٥ - وهو: جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة.

كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء.

(عقيدة) تقوم على الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقضاء والقدر، عقيدة تخاطب الفكرة الإنسانية مجردة من كل لون صناعي

---

(١) رسالة دعوتنا في طور جديد.

لا تخاطبها على أساس الفلسفة أو المنطق أو النظرات اللاهوتية لأن هذا كله مما وضع الناس للناس[1].

هذه العقيدة ليست مجرد تصديق ولا مجرد اعتراف لله تعالى بالوحدانية والتفرد، إنها إيمان يصدقه العمل، وهي عبادة وجهاد وخلق وسلوك ويؤكد الرسول الكريم ﷺ هذه الحقيقة فيقول: (ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل)[2] رواه البخاري[3].

(وعبادة صحيحة) توقد جذوة العقيدة وتغذيها وتتغذى بها وتحييها وتحيا بها.

وإذا كانت العبادة في الإسلام تعبر عن مظهر الخضوع التام لأمر الله وطاعته طاعة مطلقة والصدع بأمره فإنها (توقيفية) يوقف بها عند الحدود التي حددها الشارع وبلغها ونقلها النبي ﷺ فلا مجال فيها للزيادة والنقصان ولا لتقييد مطلقها أو إطلاق مقيدها ولا لأي نوع من التبديل والتغيير وإن كان لا بد من التقيد بأشكال القيادة الظاهرة، فالعبرة بالتوجه بها خالصة لله وحده[4].

هذا آخر ما فتح الله به عليَّ من توضيح وبيان لهذا الأصل الهام ـ أصل شمولية الإسلام.

وأرجو أن أكون قد وفقت لبيان ما يلزم بيانه وأسأل الله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به القارىء والمستمع والمقتني له. إنه ولي ذلك وهو على كل شيء قدير.

والله أكبر ولله الحمد.

---

(١) نظرات في القرآن: إعداد الشيخ عاشور.
(٢) خيال: شرح الأصول العشرين: ٢٢٩.
(٣) الصحيح أن هذا ليس بحديث وإنما هو من كلام الإمام حسن البصري فليعلم.
(٤) عبد الحكيم خيال: شرح الأصول العشرين.

الأصل الثاني

التعريف بمصادر الاسلام وضوابط الفهم لهما

والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجـع كل مسلم في تـعـرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقاً لقواعـد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف. ويرجع في فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات.



بين يدي هذا الأصل

١ ـ إعلم أن القرآن والسنة متعاضدان على استيفاء الحق وإخراجه من مدارج الحكمة، حتى أن كلا منهما يخصص عموم الآخر ويبين اجماله قال الإمام أبو الحكم بن برجمان في كتابه المسمى (الإرشاد) : ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن وفيه أصله قرب أو بعد، فهمه من فهمه، وعمه عنه من عمه قال تعالى : **﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾** الأنعام: ٣٨. ألا تسمع إلى قول النبي ﷺ في الرجم: (لأقضين بينكما بكتاب الله)[١] وليس في نص كتاب الله الرجم، وقد أقسم النبي ﷺ أن يحكم بينهما بكتاب الله ولكن الرجم فيه تعريض مجمل في قوله تعالى: **﴿ويدرأ عنها العذاب﴾** النور: ٨، وأما تعيين الرجم من عموم العذاب، وتفسير هذا المجمل فهو مبين بحكم الرسول ﷺ وبأمره به، وموجود في عموم قوله تعالى: **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾**. الحشر: ٧. وقوله: **﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾**. النساء: ٨. وهكذا حكم جميع قضائه وحكمه على طرقه التي أتت عليها، وإنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده وبذل وسعه، ويبلغ منه الراغب فيه حيث بلغه ربه تبارك وتعالى لأنه واهب النعم ومقدر القسم.

وهذا البيان من العلم جليل وحظه من اليقين جزيل وقد نبهنا ﷺ على هذا المطلب في مواضع كثيرة من خطابه[٢].

---

(١) البخاري: ٣/٢٤١ ومسلم: ٣/١٣٢٤ رقم ٢٥.

(٢) الزركشي البرهان جـ٣ ١٢٩ وقد أورد أسئلة مفيدة فليرجع إليه.

٢ ـ المسلمون مجمعون على أن الكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامي، وأن كل قضية اختلف فيها فالمرجع في حسم الخلاف فيها نصوص الكتاب والسنة، ونصوص الكتاب والسنة نصوص عربية فلا بد من فهمهما على ضوء قواعد اللغة العربية وعلى ضوء أساليب العرب في الخطاب قال تعالى: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾**. النساء: ٥٩. فالرد إلى الله رد إلى كتابه والرد إلى رسوله رد إلى سنته ﷺ بعد وفاته.

٣ ـ إن هذا الأصل كما يقول سعيد حوى: يعتبر تصحيحاً لمسار الفهم الباطني الذي جعل النصوص بمثابة رموز لا تفهم، كما هو تصحيح لكثير من الاتجاهات الفقهية التي تكلفت في تأويل النصوص، كما هو تصحيح لكثير من الاتجاهات القاصرة عن الرسوخ في العلم[١].

تلك مفاهيم أساسية نضعها بين يدي هذا الأصل للدارس لتكون بمثابة مفتاح للفهم لمضامينه ومحتواه، وهذا بيانه وتوضيحه:

التوضيح والبيان

يقول الشهيد البنا رحمه الله (القرآن الكريم، والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام).

(القرآن): في الأصل مصدر قرأ، قال تعالى: **﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾**. القيامة: ١٨ نحو: كفران ورجحان، ومعناه الجمع، وسمي قرآناً لأنه يجمع السور ويضمها[٢].

وقد خص بالكتاب المنزل على محمد ﷺ فصار له كالعَلم كما أن التوراة لما أنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام

(١) في آفاق التعاليم ٩٣/٩٤.
(٢) لسان العرب: ١/١٢٨.

قال بعض العلماء: (تسمية هذا القرآن قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار تعالى بقوله: ﴿**وتفصيل كل شيء**﴾ يوسف: ١١١ وقوله ﴿**تبياناً لكل شيء**﴾ النحل: ٨٩[١].

ويعرف العلماء القرآن بتعاريف، أجمعها: بأنه الكلام المعجز المنزل على محمد ﷺ، والمكتوب في المصحف المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، فهذا التعريف جمع أهم خصائص القرآن العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم وإن كان قد امتاز بكثير سواها[٢].

أما (السنة): فالأصل فيها أنها الطريقة والسيرة ومنه قوله ﷺ (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها. . . الحديث)[٣] وإذا أطلقت في الشرع: فإنما يراد بها ما أمر النبي ﷺ ونهى وندب إليه قولاً وفعلاً وأقره مما لم ينطق به الكتاب العزيز.

ولذا يقال في أدلة الشرع الكتاب والسنة: أي القرآن والحديث[٤].

وعرف الأصوليون السنة: بما نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، فمثال القول: إنما الأعمال بالنيات. . ومثال الفعل ما نقله الصحابة في شؤون العبادة وغيرها. ومثال التقرير: إقراره ﷺ لاجتهاد الصحابة في أمر صلاة العصر في غزوة بني قريظة وإقراره خالد بن الوليد في أكله للضب[٥].

فالقرآن والسنة المبينان بما ذكرهما في الأصل (مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام) فما المراد بالرجوع هنا؟ وكيف يكون؟ وما دليله؟ وقبل أن نوضح ذلك نبين المعنى اللغوي للفظ:

(مرجع): والتعريف الشرعي لـ(مسلم) و(الحكم) المنبثق من أصلي التشريع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) صحيح مسلم ٢/٧٠٥ رقم ٦٩ ومعجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ٤١٤.
(٢) مناهل العرفان ١/١٢.
(٣) ابن ماجه ١/٧٤ رقم ٢٠٣ الدارمي: ١/١٣٠.
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٤٠٩.
(٥) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي ٤٧.

(فالمرجع): من مصادر رجع، حكاه سيبويه فيما جاء من المصادر التي من فعل يفعل على مفعل بكسر الميم[1] وهو بمعنى: الإعادة على ما كان منه البدء أو تقدير البدء مكاناً كان أو فعلاً أو قولاً، وبذاته كان رجوعه أو بجزء من أجزائه أو بفعل من أفعاله ومنه قوله تعالى: **﴿إلى الله مرجعكم﴾**. المائدة: ٤٨ أي رجوعكم.

والمسلم: المستسلم المنقاد والمذعن والمراد به هنا الذي التزم الإسلام فأسلم وجهه وقلبه لله في كل أمر فهو المسلم **﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾** النساء: ١٢٥. **﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾**. الأنعام: ١٦٢. وبدون تسليم واستسلام لله في حكمه فلا إسلام **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾**. النساء: ٦٥. وحكم الله إنما يعرف بواسطة الوحي الثابت إذ بلغنا إياه الرسول الصادق (والأحكام الشرعية) هي أوامر الله ونواهيه المبينة في كتابه أو سنة رسوله ﷺ منطوقاً أو مفهوماً أو إجماعاً أو قياساً. وبعد أن بينا معنى المرجع والمسلم والحكم بايجاز نعود إلى بيان الرجوع وكيف يكون وما دليله فنقول:

١ - إن رجوع المسلم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لمعرفة الحكم وللفصل عند النزاع هو الأصل الذي لا يختلف فيه اثنان من المسلمين. إلا أن هذا الرجوع:

أ - **قد يكون مباشراً** وذلك بعودة العالم المؤهل إلى كتاب الله وسنة رسوله لأخذ الحكم منهما مباشرة وهذا ما يستدل له بقوله تعالى: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾**. النساء: ٥٩. قال العلماء معناه إلى الكتاب والسنة. وقال تعالى: **﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو**

(٢) لسان العرب ٨/١١٤.

ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾. النساء: ٨٣ والعالم المؤهل المعني هنا هو: من بلغ درجة النظر وسوف يأتي الكلام عنه في الأصل السابع إن شاء الله تعالى.

ب ـ **أو غير مباشر**: وهو من لايجد الأهلية للنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولم يرق إلى درجة الفهم المساعد على الأخذ المباشر وهذا لا يكون إلا في حق العامة من الأميين وممن في حكمهم وهؤلاء واسطتهم في الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لمعرفة حكم الله في أي قضية هم العلماء ويؤخذ ذلك من قوله: **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾**. النحل: ٤٣. وقوله تعالى: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾**. التوبة: ١٢٢. كما أنه قد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم عليه، حيث كان العامة يستفتونهم فيجيبونهم على أسئلتهم ولا ينكر أحد ذلك، ولا يجوز للعامي أن يستفتي إلا من غلب على ظنه أنه من أهل التقوى، وإذا كان في البلد مجتهدون فله سؤال من شاء منهم ولا يلزمه مراجعة الأعلم لجواز سؤال المفضول مع وجود الأفضل[1].

٢ ـ إن الرجوع لا يعني الرجوع إلى النص الحرفي المنصوص عليه في الكتاب والسنة فقط كما يظن البعض، بل إن الرجوع أعم من ذلك كما بينه العلماء في كثير من كتبهم، فالرجوع يشمل العودة إلى النص في الكتاب والسنة أو بما أحال به النص في الكتاب والسنة من اعتماد الإجماع أو القياس أو الاستدلال أو بما كملته القواعد العامة التي دل عليها النص. ويعتبر ذلك كله عود إلى الكتاب والسنة. يقول الآمدي رحمه الله في معرض سياقه لبيان الدليل الشرعي الذي يعود إليه العالم لمعرفة الحكم لذلك إنه إما أن يكون وارداً من جهة الرسول فلا يخلو إما

(١) انظر مذكرة أصول الفقه للشنقيطي ٣١٥.

أن يكون من قبيل ما يتلى أو لا من جهته فإن كان من قبيل ما يتلى فهو الكتاب وإن كان من قبيل ما لا يتلى فهو السنة. وإن لم يكن وارداً من جهة الرسول فلا يخلو إما أن يشترط فيه عصمة من صدر عنه أو لا يشترط ذلك فإن كان الأول فهو الإجماع وإن كان الثاني فلا يخلو أما أن يكون صورته معلوم على معلوم في حكم بناء على جامع أو لا يكون ذلك. فإن كان الأول فهو القياس وإن كان الثاني فهو الاستدلال.
ثم يقول: وكل واحد من هذه الأنواع فهو دليل لظهور الحكم الشرعي عندنا به. والأصل فيها إنما هو الكتاب لأنه راجع إلى قول الله تعالى المشرع للأحكام والسنة مخبرة عن قوله تعالى وحكمه ومستند الإجماع راجع إليهما، وأما القياس والاستدلال فحاصله يرجع إلى التمسك بمعقول النص أو الإجماع، فالنص والإجماع أصل والقياس والاستدلال فرع تابع لهما[1].

٣ ـ إن العلماء الذين يلزمهم الرجوع إلى الكتاب والسنة لمعرفة الحكم الصحيح وللتوصل إلى الفهم السليم للنصوص لم يكن على إطلاقه لكل العلماء فما كل عالم بقادر على ذلك، إذ أنهم يتفاوتون، لأن العلماء جميعاً لا يستوون في فهم ألفاظ القرآن مع وضوح بيانه وتفصيل آياته، فإن تفاوت الإدراك أمر لا مراء فيه، كما أن الاستعداد العلمي والتأهيل التحصيلي يتفاوت فيه الناس، واستيفاء الشروط اللازمة للفهم لا يستكملها إلا القليل ولذا نجد من علماء التفسير الموثق في الفهم والتفسير وغيره ليس كذلك بل نجد ذلك في حق السلف من التابعين ومن بعدهم بل وفي الصحابة من هو أولى بالأخذ بفهمه وتفسيره من غيره (وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

ولذا ذكر الشهيد البنا رحمه الله في هذا الأصل شرطاً أساسياً لمن يريد النظر في كتاب الله عز وجل لفهم نصوصه وتدبر آياته واستخراج أحكامه

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/٢٢٦ ـ ٢٢٧.

فقال: (ويفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف).

إعلم أنه جرت سنة الله أن يرسل كل رسول بلسان قومه ليتم تخاطبه معهم **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾**. إبراهيم: ٤. وأن يكون الكتاب الذي أنزل عليه بسلانه ولسانهم وإذا كان لسان محمد ﷺ عربياً فإن الكتاب الذي أنزل عليه يكون بلسان عربي وبذلك نطق محكم التنزيل **﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾**. يوسف: ٢١. **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾**. الشعراء: ١٩٢/١٩٣. فألفاظ القرآن عربية.

ووجوه المعاني في القرآن توافق وجوه المعاني عند العرب لذلك كان فهم القرآن لا بد أن يكون طبقاً لقواعد اللغة العربية ووجوهها وهو أساس درج عليه السلف، والتزم به الخلق وأكد عليه الشهيد البنا في أصله هذا، ليضبط مسار الفهم المعاصر لكتاب الله من الانزلاق فيما وقع فيه من وقع في عصر الانفتاح والفتوحات الإسلامية، وعصر الكسل والدعة والركود العلمي الذي منيت به الأمة الإسلامية مؤخراً من الرموز الصوفية، والتأويلات الفقهية والقصور العلمي غير الراسخ، وفي هذا يقول إمام المفسرين مجاهد «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب».

إذا علمت ذلك فاعلم أن القرآن قسمان: أحدهما ورد تفسيره عمَّن يعتبر تفسيره، وقسم لم يرد. **(والأول)** ثلاثة أنواع: إما أن يرد التفسير عن النبي ﷺ أو عن الصحابة أو عن رؤوس التابعين.

فالأول: يبحث فيه عن صحة السند.

والثاني: ينظر في تفسير الصحابي فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتمادهم، وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه، وحينئذ إن تعارضت أقوال الجماعة من الصحابة فإن أمكن الجمع فذاك، وإن تعذر قدم ابن عباس رضي الله عنهما لأن النبي ﷺ بشره

بذلك حيث قال: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)[1] فإن تعذر الجمع جاز للناظر أن يأخذ بأيها شاء.

وأما الثالث: وهم رؤوس التابعين إذا لم يرفعوه إلى النبي ﷺ فحيث جاز - للناظر - فيما سبق فكذا هنا والأوجب الاجتهاد.

(والثاني): ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين وهو قليل، وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق[2].

وهذا القسم هو المعني في كلام الشهيد البنا رحمه الله في هذا الأصل لأن مدار فهم القرآن فيما لا نص فيه على قواعد اللغة العربية سواء من حيث أفراد الألفاظ أو من حيث تراكيبها.

أما من حيث أفراد الألفاظ فمن وجوه ثلاثة:

أ - من جهة المعاني التي وضعت للألفاظ المفردة بإزائها وهو يتعلق بعلم اللغة العربية.

ب - ومن جهة الهيئات والصيغ الواردة على المفردات الضالة على المعاني المختلفة وهو علم التصريف.

جـ - ومن جهة رد الفروع المأخوذة من الأصول إليها وهو علم الاشتقاق.

أو من حيث تراكيبها فمن وجوه أربعة:

الأول: باعتبار كيفية التراكيب بحسب الاعراب ومقابله من حيث إنها مؤدية أصل المعنى وهو ما دل عليه المركب بحسب الوضع وذلك متعلق بعلم النحو.

---

(١) جامع الأصول ٦٣/٩ وفي الصحيحين (اللهم علمه الكتاب) وفي رواية (اللهم علمه الحكمة) البخاري: ٣٤/٥.

(٢) البرهان للزركشي: ١٧٢/٢.

الثاني: باعتبار كيفية التراكيب من جهة إفادته المعنى: أعني لازم أصل المعنى الذي يختلف باختلاف مقتضى الحال في تراكيب البلغاء وهو الذي يتكفل علم المعاني بإبراز محاسنه.

الثالث: باعتبار طريق تأدية المقصود بحسب وضوح الدلالة وحقائقها ومراميها وباعتبار الحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه وهو ما يتعلق بعلم البيان.

الرابع: باعتبار الفصاحة اللفظية والمعنوية والاستحسان ومقابله وهو ما يتعلق بعلم البديع(١).

تلك هي الأسس التي يعتمد عليها لفهم كتاب الله عز وجل تفسيراً واستخراجاً للأحكام الشرعية العملية.

وعدم الاعتماد على هذه الأسس يوقع الناظر في كتاب الله في التكلف والتعسف المحذر منه شرعاً في قوله ﷺ: أنا وصالحو أمتي براء من التكلف(٢) وهو الذي نبه إليه الشهيد البنا رحمه الله في قوله (من غير تكلف ولا تعسف).

(والتكلف): هو تجشم المشاق وايقاع الأمر على خلاف العادة ولذلك يطلق على تعرض الشخص لما لا يعنيه(٣).

والخوض في معاني القرآن الكريم حيث لا يوجد نص وإنما اعتماد على الرأي غير المستند إلى العلم بلغة العرب يندرج تحت هذا المضمون وهو التكلف وفي هذا يقول الشافعي رحمه الله (فمن جهل هذا من لسانها ـ يعني العرب ـ وبلسانها نزل القرآن وجاءت السنة وتكلف القول في علمها

---

(١) البرهان للزركشي: جـ ٢ ١٧٣.

(٢) ذكر الحديث سعيد حوى في تفسيره جـ ٤٨١٢/٩ وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أيها الناس من علم منكم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم قال الله تعالى لرسوله ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ ص: ٨٦.

(٣) النهاية لابن الأثير ١٩٦/٤ ولسان العرب ٣٠٧/٩.

تكلف بما يجهل بعضه، ومن تكلف ما جهل وما لم تثبته معرفته كانت موافقته للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة والله أعلم).

وكان بخطئه غير معذور إذا ما نطق في ما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيه)[1].

قال الشاطبي وما قاله حق فإن القول في القرآن والسنة بغير علم تكلف وقد نهينا عن التكلف ودخل تحت معنى الحديث (حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً[2]) لأنه إذا لم يكن لهم لسان عربي يرجعون إليه في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ رجع إلى فهمه الأعجمي وعقله المجرد عن التمسك بدليل يضل عن الجادة[3].

والتكلف والتعسف لكل منهما يقع إما بسلب لفظ القرآن الكريم ما دل عليه وأريد به أو بحمله على ما يدل عليه ولم يرد به.

وهذا الأمر هو الذي يقع فيه كثير من طوائف الابتداع حيث اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة ـ كسلف الأمة وأئمتها ـ وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولادلالة فيها، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم، مما يحرفون به الكلم عن مواضعه. كأمثال الخوارج والروافض والجهمية، والقدرية والمرجئة وغيرهم مثل: الخوض في الأسماء والصفات والرؤية وخلق القرآن ونحو ذلك وما جعل في ذلك من التكلف والتعسف في النصوص وتفسيرها حسب المعتقد الباطل لكل من هذه القضايا وغيرها ومن أقبح ما حصل من تحريف في معاني القرآن، ونحو ذلك سببه ما روي عن الفلاسفة والقرامطة والرافضة من أنهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي منها العالم عجبه. كقولهم في قول الله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾

---

(١) الرسالة ص٥٣.
(٢) جامع الأصول: ٨/٣٤.
(٣) الاعتصام ٢/٢٩٨.

المسد: ١. هما أبو بكر وعمر. وقولهم في قوله تعالى: **﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾**. البقرة: ٦٧ هي عائشة. وقولهم في قوله تعالى: **﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾** التوبة: ١٢ طلحة والزبير... الخ.

من أمثال هذه الخرافات التي تتضمن تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال فإن هذه الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص بحال.

واعلم أنه لا يجوز أبداً تفسير القرآن الكريم بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل علمي يستند إليه لقوله تعالى: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾**الإسراء: ٣٦ وقوله تعالى: **﴿وأن تقولوا على الله ما لم تعلمون﴾**. البقرة: ١٦٩. وعليه حملوا قوله ﷺ (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار) رواه البيهقي بطرف من حديث ابن عباس رضي الله عنه[١] وقوله ﷺ (من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ) أخرجه أبو داود والترمذي وقال غريب من حديث جندب[٢].

حتى يخرج المسلم من هذا الوعيد الشديد فالواجب عليه وهو يريد أن ينظر في كتاب الله ويخوض في معانيه أن يكون ملماً بالتالي:

من علم اللغة العربية ما يكفي لذلك مما أوضحناه فيما سبق.

ومن علم الأصول ما يدرك به حدود الأشياء وصيغ الأمر والنهي والخبر. والمجمل والمبين والعموم والخصوص والظاهر والمضمر والمحكم والمتشابه والمؤول والحقيقة والمجاز والصريح والكناية والمطلق والمقيد.

ومن علوم القرآن الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومعاني غريب

---

(١) وأخرجه الترمذي بلفظ (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) قال أبو عيسى هذا حديث حسن جـ ١١/٦٧ من عارضة الأحوذي.

(٢) جامع الأصول ٢/٣ قال المعلق أخرجه الترمذي رقم ٢٩٥٣ في التفسير وابو داود رقم ٣٦٥٢ في العلم. باب الكلام في كتاب الله بغير علم، وأخرجه الطبري في جامع البيان رقم ٨٠ وفي سنده سهيل لا يحتج به (البخاري واحمد وابو حاتم).

القرآن ومن علوم الفروع ما يدرك به الاستنباط والاستدلال وهذا أقل ما يحتاج إليه ومع ذلك فهو على خطر فعليه أن يقول تحتمل كذا ولا يجزم إلا في حكم اضطر فيه إلى الفتوى به فأدى اجتهاده اليه فيجزم مع تجويز خلافه عند الله. وبهذا أرجو أن أكون قد أوضحت المقصود وأبنت عنه والله من وراء القصد.

ثم يقول الشهيد البنا رحمه الله (ويرجع في فهم السنة إلى رجال الحديث الثقات). وذلك أن القرآن الكريم كله متواتر في اللفظ أما السنة النبوية فمتواترها اللفظي قليل جداً ولذلك ترتب على ذلك مباحث يتوصل بها إلى الحديث المقبول في معرفة الأحكام الشرعية تعاون على إيضاحها علماء الحديث في علم دونوه سموه بعلم (الرواية والدراية) وهو علم واسع يجب على من يريد النظر في سنة رسول الله ﷺ أن يلم به إلماماً كافياً لكي يصل بواسطته للوصول إلى ما يعتمد من النصوص النبوية للاستدلال بها على الأحكام الشرعية.

والمراد بالعودة إلى رجال الحديث الثقات العودة إلى كتبهم الموثوقة المعتنية بهذا المصدر. إذ أن المسلم يمكنه التعرف على صحة الحديث وأصحاب الخبرة في الجرح والتعديل في هذه الكتب، وقد جمع علماء المسلمين الأحاديث الصحيحة في دواوين خاصة كما بينوا الأحاديث المكذوبة والضعيفة في دواوين أخرى فإذا عرف المسلم ذلك باطلاعه على هذه الدواوين وما قرره علماء الحديث بشأن ما فيها من صحيح وضعيف وموضوع عرف عند ذلك الأحاديث الموثوقة التي يعمل بها، ومن أوثق المجامع وأهمها الأمهات الست وأهميتها حسب الترتيب صحيح الإمام البخاري، صحيح الإمام مسلم، جامع الترمذي، سنن أبي داود، سنن ابن ماجه، سنن النسائي وكذلك موطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد وغيرها من الكتب المشهورة وأكملها جميعاً صحيح البخاري أصح كتاب أجمع عليه أهل العلم بعد كتاب الله ويليه في الهيئة صحيح مسلم.

ولا يلزم من تخصيص الشهيد السنة بهذا الضابط أنه لا يشترط لفهم

سنة رسول الله ﷺ معرفة اللغة العربيـة بل إن اللغـة العربيـة أساس من أسس الفهم لسنـة رسول الله ﷺ لأنهـا صادرة من أفصح العرب وأبلغهـا محمـد بن عبدالله ﷺ وهي مبينة لكتاب الله الذي نزل بلسان عربي مبين.

ولذلك فإن فهم اللغة العربية من أساسيات فهم السنة النبوية، فكل مـا يتطلب فهم نصوص القرآن الكريم يتطلبه فهم سنـة رسول الله ﷺ وذلـك مثل علم أصول الفقه والفروع فلا بد من التحصيل في ذلك.

. . . وأخيراً إن هنك علوماً أدرك سلف هذه الأمة ضرورة تـدوينها بمـا أنها بمثابة مفاتيح لفهم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فـأصبح واجباً على الناظر في كتـاب الله وسنـة رسـول الله ﷺ معـرفتهـا والإلمـام بهـا حسب القـاعــدة المشهورة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) تلك العلوم هي:

١ ـ علوم القرآن

٢ ـ علوم الحديث دراية ورواية.

٣ ـ علوم اللغة العربية وأساليب الخطاب فيها.

٤ ـ علم أصول الفقه.

فعلى المسلم الناظر في كتـاب الله وسنة رسـول الله ﷺ أن يكون على إلمام بها ليكون سليم الفهم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قادراً على الاستنباط للأحكام الشرعية منهما.

والله الموفق

الأصل الثالث

أثر الايمان والعبادة
والمجاهدة ومظاهر ذلك

يقول الشهيد البنا رحمه الله (وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه).



بين يدي هذا الأصل

اعلم أن قوماً فقدوا موازين الحق حول ما يظهر على المؤمن من آثار الإيمان والعبادة الصحيحة والمجاهدة، فوقعوا في منزلقات خطيرة استهدفت تصوراتهم وعقائدهم وسلوكهم في هذه الحياة فأفسدت عليهم أقوالهم وأعمالهم وقصدهم وطريقهم الموصل إلى الله، فكانوا بذلك من الهالكين وذلك فيما يلي:

١ ـ لقد تصوروا أن بامكانهم أن يستغنوا من خلال الإلهام والخاطر والكشف عن دراسة الكتاب والسنة وعن العلم بالعقائد والفقه والسير البصير إلى الله وقواعد ذلك: وما دروا أنهم بهذا التصور الخاطىء المنحرف فقدوا الوصول إلى الحق من خلال الميزان الحق وهو الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾ الحديد: ٢٥. ومتى فقد المسلم الميزان وقع في الضلال لحديث (إني تارك فيكم شيئين لا تضلوا ما إن تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي)[١].

٢ ـ لقد تصوروا أنه يمكن أن تصل بعض القلوب إلى العصمة فاعتبروا كل ما يلقى فيها وكأنه وحي منزل فجعلوا قلوب الأولياء والشيوخ كقلوب الأنبياء فضلوا وأضلوا وما دروا أن الله تعبد الخلق برسالة محمد ﷺ وأنه لا

---

(١) انظر جامع الأصول: ١/٢٧٧ وقال أخرجه الموطأ وعن مالك بن أنس قال المعلق أخرجه في القدر رقم٣ باب النهي عن القدر بلاغاً لكن يشهد له حديث ابن عباس عند الحاكم: ١/٩٣ بسند حسن فيتقوى به.

ينبغي أبداً ولا يجوز أن يجعل على قدم المساواة ما يلقى في بعض القلوب مثل ما ألقي في قلب محمد ﷺ فأين ذلك القلب وذلك الوحي من قلوب أخرى وإلقاءات أخرى مختلطة. ومهما ادعى المدعون أن قلباً يرقى إلى حيث يدرك ما يلقى فيه فإن أحداً لا يجوز أن يدعي عصمة القلب وإلا فإنه يكفر.

٣ ـ إن بعض هؤلاء يعتبر الإلهامات والكشوفات والرؤى أصلاً زائداً على الكتاب والسنة يمكن أن تثبت حقائق غيبية زائدة على ما ذكر في الكتاب والسنة وبعضهم يعتبر ما قاله صوفي في هذا المجال واجب التصديق فكأنها نبوة جديدة أو كأنما غير الرسول يمكن أن يكون معصوماً، وذلك فيه من الضلال ما فيه مع أن شيخ الإسلام ذكر أن حذاقهم قال: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة وقال آخر إنه ليقع في القلب النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهد في الكتاب والسنة.

٤ ـ إن قوماً يربطون بين هذه الحالات وترك التكليف فيرون أن الإنسان متى كشف له شيء عن أمر الغيب وما أكثر ما يتوهمون في هذا الشأن يسقط عنه التكليف فلا صلاة ولا صيام ولا غير ذلك، ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى: ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾. الحجر: ١٩ وهؤلاء كفار بإجماع الأمة إذ اليقين في الآية هو الموت بدليل أن رسول الله ﷺ بقي يعبد ربه حتى مات. لذلك وضع الشهيد البنا رحمه الله هذا الأصل ليؤكد به على الميزان الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لتوزن به هذه الآثار الإيمانية فيما تظهر حتى لا تكون مظاهر فتنة وسبيل انحراف، وأداة انزلاق لشباب هذه الأمة ودارسيها فقال: «وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه».

التوضيح والبيان

(الإيمان الصادق) اسم يقع على الإقرار باللسان، والتصديق بالقلب، والعمل بالجوارح، قال الشافعي في الأم: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: الإيمان قول وعمل ونية ـ لا تجزىء واحدة من الثلاثة إلا بالأخرى. وقال أحمد لهذا كان القول أن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر السنة.

وظواهر نصوص الكتاب والسنة تدل على هذا وهي كثيرة مشهورة وقد اتفقوا على أنه لا يدخل في الإيمان من أقر بلسانه ظاهراً وكذب بقلبه وهؤلاء هم المنافقون الذين أخبر الله تعالى عن حقيقتهم بقوله: ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين**﴾. البقرة:٨. كما أخبر عنهم أنهم أشد عذاباً من الجاحدين وأنهم في الدرك الأسفل من النار: ﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**﴾. النساء: ٣٤.

واتفقوا أيضاً على أن المعرفة بالقلب لا تكفي في تحقيق اسم الإيمان فلا بد مع المعرفة والتصديق من الإقرار باللسان، فإن فرعون وقومه كانوا يعرفون صدق موسى وهارون عليهما السلام ومع هذا كانوا كافرين. قال تعالى مخبراً عما قاله موسى لفرعون: ﴿**لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر...**﴾. الإسراء: ١٠٢.

وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ولم يؤمنوا به قال تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون**﴾. الأنعام: ٢٠. بل إن ابليس كان عارفاً بربه ولكنه كان إمام الكافرين.

واتفقوا أيضاً على أن العبد لو صدق بقلبه وأقر بلسانه وامتنع عن العمل

بجوارحه فإنه يكون عاصياً لله ولرسوله ومستحقاً للوعيد الذي ذكره الله في كتابه وأخبر به رسوله الكريم ﷺ ومستحقاً للعقوبة في الدنيا.

ولا خلاف بين أهل السنة إن ما تقدم من تعريف الإيمان بالقول والتصديق والعمل إنما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى ـ استحقاق دخول الجنة وعدم الخلود في النار ـ وإن الإيمان بالنظر إلى أحكام الدنيا مجرد الإقرار باللسان والنطق بالشهادتين فمن أقر بهما أجريت عليه الأحكام في الدنيا فطولب بالتزاماتها وأعطي حقوقها ولم يحكم عليه بكفر إلا إذا جاء بما يناقضها من القول والعمل(١).

ويدل على هذا الأصل قول الرسول ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها)(٢). إذا علمت ذلك فاعلم أن الإيمان الصادق هو الذي يجمع صاحبه هذه المعاني من غير تفريق بينها ، وقد شهد القرآن الكريم بالصدق في إيمان من تحقق بذلك في أكثر من آية من ذلك قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون**﴾. الحجرات: ١٥.

(والعبادة الصحيحة) هي ثمرة الإيمان الصادق ويعرفها أهل العلم بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة(٣). والعبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ الذاريات: ٥٦ وبها أرسل جميع الرسل: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة**﴾. النحل: ٣٦. وقوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه**

---

(١) المصدر السابق نقلاً عن الطحاوية ١١٩.

(٢) صحيح مسلم: ٥٣/١.

(٣) العبودية لابن تيمية ٣٨.

لا إله إلا أنا فاعبدون﴾. الأنبياء: ٢٥. وجعل ذلك لازماً لرسوله حتى الموت: **﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾**. الحجر: ٩٩. والدين كله داخل في العبادة لحديث جبريل المروي عن الصحيحين الدال على ذلك إلا أن العبادة المأمور بها تتضمن معنيين: الذل والحب، فهي تتضمن غاية الذل والمحبة لله تعالى: **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾**. التوبة: ٢٤.

وإذا كانت العبادة الحقة هي التي تضمنت هذه المعاني فهي لا تكون صحيحة ومقبولة عند الله تعالى حتى يأتي بها العبد موافقة لشرع الله إذ إن الله لا يقبل من الأعمال والأقوال إلا ما شرعه لعباده وأمرهم به ولا يقبل من عباده ما أحدثوه في الدين وابتدعوه، وفي الحديث (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) وفي رواية (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)[1] وفي أخرى (فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)[2].

والعبادة الصحيحة لا يتوصل إليها ويتحقق بها إلا بالمجاهدة للنفس والهوى قال تعالى: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾**. العنكبوت: ٦٩، إن من فهم هذه الآية في محلها وسياقها وعرف معناها وعمل بمقتضاها حصَّل خيراً كثيراً والرسول ﷺ يؤكد حقيقة المجاهدة بقوله (والمجاهد من جاهد نفسه وهواه)[3] وجهاد النفس حملها على أمر الله في كل شيء ومن ذلك جهاد الشيطان والعدو.

ونقطة البداية للمجاهدة من الإيمان بالله ووحدانيته وأن محمداً رسول الله ﷺ - وقد لايحس الناس في بيئة اسلامية بأن الأمر ها هنا في باب

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم انظر جامع الأصول: ١/٢٨٩.

(٢) جامع الأصول: ١/٢٧٩ من رواية أبي داود.

(٣) رواه احمد في مسنده ٦/٢١ الطبعة الثانية بمصر بلفظ (المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله). ورواه الترمذي في باب فضائل الجهاد ٧/١٢٣ من كتاب عارضة الاحوزي.

المجاهدة لا يحتاج إلى ذكر هذا، وهذا خطأ كبير، فأكبر شيء على الإطلاق أن يستطيع الإنسان أن يقفز من كفر إلى إيمان، أو أن يعلن إيمانه في بيئة تستنكر الإيمان أو تسخر من أهله **﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾**. التغابن: ١١.

ثم تأتي المرحلة الثانية في المجاهدة وهي: القيام بفروض الوقت من صلاة وصيام وزكاة وحج ونكاح ومعاملة وغير ذلك.

ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي ما يرتبه الإنسان على نفسه من نوافل العبادات من صلاة وصدقة وصيام وحج نافلة وأدعية وأذكار وقراءة قرآن.

ثم تأتي المرحلة الرابعة وهي أخذ النفس بعزائم الأمور وتربيتها على الشدائد من خلال بعض الأعمال النافعة لذلك، مثل الخلوة والصمت إلا من الواجب وما لابد منه والسهر للعبادة من صلاة وتلاوة وذكر والجوع المتمثل في الصيام في الأيام المرغب فيها وسائر الأعمال المشروعة.

ثم تأتي المرحلة الخامسة وهي عملية تأمل النفس والقلب واكتشاف الأمراض ومعالجتها وهي القضية الأخيرة للمجاهدة وإحدى ثمارها الرئيسية[١] وهاتان الاخيرتان يدور حولهما عبارات كثيرين تكلموا عن المجاهدة.

فالإيمان الصادق المستكمل كما ذكرنا، والعبادة الصحيحة على مقتضى الشرع والمجاهدة المنضبطة بتعاليم الشرع ينتج عنها آثار عظيمة تظهر على الإنسان في الدنيا والآخرة كما ذكر الشهيد البنا رحمه الله في قوله (نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده).

أما النور: فهو المشار إليه في قوله تعالى: **﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾**. الأنعام: ١٢٢.

وقد عبر عن حقيقته وأثره الشهيد سيد قطب رحمه الله بقوله: (ويجد

---

(١) انظر تربيتنا الروحية ١٤٦/١٤٨.

الإنسان هذا النور في قلبه فيجد الوضوح في كل شأن وفي كل أمر وفي كل حدث يجد الوضوح في نفسه وفي نواياه وخواطره وخطته وحركته ويجد الوضوح فيما يجري حوله سواء من سنة الله النافذة أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة، أو يجد تفسير الأحداث والتاريخ في نفسه وعقله وفي الواقع من حوله كأنه يقرأ في كتاب. ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه ويجد الراحة في باله وحاله ومآله، ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها وفي استقبال الأحداث واستدبارها ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين)[1].

فهذا النور ذو الأثر الشامل على الإنسان ينتج عنه أمور تظهر في حياة هذا المؤمن المستنير ،دل على إمكان وقوعها الكتاب والسنة وأقرها علماء هذه الأمة وأيدتها الوقائع والمشاهدات لذلك ذكرها الشهيد البنا رحمه الله في هذا الأصل مقرراً لها وضابطاً لها بضوابط شرعية لاتتجاوز الحد الذي أفرط فيه من أفرط ممن لم يستنر الحل من مصادره وإنما استوحاه من الهوى وبإيحاءات الشيطان ـ ولم يقصر بها عن ما يجب أن يقال فيها من حق كما فرط فيه من فرط ممن لم يفهم الشرع ولم يبصر دلائل الحق فقال رحمه الله (ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه) وحتى يتضح الحق في هذه الأمور فلا بد من البيان والتوضيح لنقول:

أولاً الإلهام والخواطر: والإلهام هو أن يلقي الله في النفس أثراً يبعثه على الفعل أو الترك وهو نوع من الوحي يخص الله به من يشاء من عباده[2]. قال تعالى: **﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾**. الشمس: ٧،٨ ويقول الرسول ﷺ (اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي)[3]

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) لسان العرب جـ ١٢ ص ٥٠٥.

(٣) الترمذي ٤/٢٥٤ من تحفة الأحوذي.

وهو أعم من التحديث وذلك لأن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذي حصل له بالإيمان، فأما التحديث فالنبي ﷺ قال فيه (إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر)[1] يعني من المحدثين.

وصورته الشائعة أن يكون خطاباً يلقى في قلب المؤمن يخاطب به الملك روحه وفي الحديث المشهور (إن لـلملك لـمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة فلمة الملك إيعاز الخير وتصديق بالوعيد، ولمة الشيطان إيعاز بالشر وتكذيب بالوعد ـ ثم قرأ ـ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً)[2] وقال تعالى: ﴿**إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا**﴾. الأنفال: ١٢. قيل تفسيرها ـ قووا قلوبهم وبشروهم بالنصر وقيل احضروا معهم القتال، والقولان حق فإنهم حضروا معهم القتال وثبتوا قلوبهم، ومن هذا الخطاب واعظ الله عز وجل قلوب عباده المؤمنين كما في جامع الترمذي ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله تعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى كفتي الصراط سوران لهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوق الصراط، فالصراط المستقيم الإسلام، والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله، فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتى يكشف الستر، والداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب المؤمن)[3]. فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة..

ومن الإلهام الفراسة: وهي نور يقذفه الله في القلب يفرق به بين الحق والباطل والصادق والكاذب، قال تعالى: ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسمين**﴾. الحجر: ٧٥. قال مجاهد: للمتفرسين وفي الترمذي من حديث أبي سعيد

---

(١) جامع الأصول: ٨/٦٠٩ وقال اخرجه البخاري ومسلم.
(٢) الترمذي: ٤/٧٧ من تحفة الأحوذي طبعة هندية.
(٣) الفتح الرباني: ١/٨٣.

رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل) ثم قرأ: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾[1]. الحجر: ٧٥.

والفراسة ثلاثة أنواع: إيمانية وهي فراسة المؤمنين وهي قائمة على الحق دائماً.

ورياضية: وهي التي تحصل بالجوع والسهر والخلوة، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها.

وفراسة خلقية: وهي التي صنف فيها الأطباء واستدلوا بالخلق على الخلق لما فيها من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله.

وهذان النوعان من الفراسة مشتركة بين المؤمن والكافر ولا تدل على إيمان ولا على ولاء ولا تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم[2].

ثانياً الخواطر:

جمع خاطر وهو ما يخطر في القلب من تدبير أو أمر فإن كان خير وصلاح فهو من نور الإيمان وأثره ومن توفيق الله عز وجل ودلالته. وإن كان على غير ذلك فهو من هواجس الشيطان ووساوسه ومنه حديث سجود السهو (حتى يخطر الشيطان بين المرء وقلبه)[3] وفي حديث ابن عباس (قام النبي ﷺ ليصلي فخطر خطرة فقال المنافقون إن له قلبين)[4].

ثالثاً: الكشف:

يقول ابن القيم رحمه الله: المكاشفة الصحيحة علوم يحدثها الرب سبحانه وتعالى في قلب العبد ويطلعه بها على أمور تخفى على غيره وقد

(١) جامع الترمذي: ١١/٢٨٨ ـ ٢٨٩ عارضة الاحوذي.

(٢) انظر شرح الطحاوية ٢/٣١١.

(٣) جامع الأصول: ٥/٥٤٧.

(٤) جامع الترمذي: ١٢/٨٠ عارضة الاحوذي.

يواليها وقد يمسكها عنه بالغفلة عنها ويواريها عنه بالغين الذي يقسي قلبه، وهو أرق الحجب، وبالغيم وهو أغلظ منه، أو بالران وهو أشدها.

فالأول: يقع للأنبياء عليهم السلام كما قال النبي ﷺ: (إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)(١).

والثاني: يكون للمؤمنين.

والثالث: لمن غلبت عليه الشقوة قال تعالى: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾. المطففين: ١٤. قال ابن عباس وغيره وهو الذنب بعد الذنب يغطي القلب حتى يصير كالران كلية(٢).

والكشف الصحيح أن يعرف المسلم الحق الذي بعث الله به رسوله وأنزل كتبه معاينة لقلبه. ويجرد إرادة القلب له فيدور معه وجوداً وعدماً، هذا هو التحقيق الصحيح وما خالفه فغرور قبيح. وذلك فيما يتعلق بمكاشفات القلب أحد صادرات الكشف حين يكون على الصفا وسائراً على الاعتدال ومجانباً للابتداع والضلال. أما كشف السمع والبصر وهو الذي عناه الشهيد البنا رحمه الله فإن ابن القيم رحمه الله قسمه إلى ثلاثة أنواع:

رحماني: وهو خاص بالمؤمنين، ونفساني، وشيطاني وهو الذي وضحه بقوله أما الكشف الجزئي المشترك بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار كالكشف عما في دار الإنسان أو عصا في يديه أو تحت ثيابه أو حملت به امرأته بعد انعقاده ذكراً أو انثى، وما غاب عن العباد من أحوال البعد الشاسع فإن ذلك يكون من الشيطان تارة ومن النفس أخرى، ولذلك يقع من الكفار كالعصاة وعابدي النيران والصلبان. فقد كشف ابن صياد للنبي ﷺ ما أضمره له وخبأه وقال له رسول الله ﷺ (إنما أنت من إخوان الكهان) فأخبر أن ذلك الكشف من جنس كشف الكهان وأن ذلك قدره. وكذلك مسيلمة الكذاب مع

---

(١) صحيح مسلم: ٤/٢٠٧٥ رقم ٤١.

(٢) مدارج السالكين جـ٣ ص٣٢٢/٣٢٣.

فـرط كفره ـ كـان يكاشف أصحـابه بمـا فعله أحدهم في بيتـه وما قـاله لأهله يخبـره شيطانـه ليغوي النـاس، وكـذلـك الأسـود العنسي، والحـارث المتنبي الـدمشقي الذي خـرج في دولـة عبـد الملك بن مـروان وأمثـال هؤلاء ممن لا يحصيهم إلا الله وقد رأينا نحن وغيرنا منهم جمـاعة وشـاهد النـاس من كشف الرهبان عباد الصليب ما هو معروف.

والكشف الـرحماني من هـذا النوع هـو مثـل كشف ابي بكـر لمـا قـال لعائشة رضي الله عنها أن امرأتـه حامـل بأنثى وكشف عمـر رضي الله عنه لمـا قال: يا سارية الجبل... وأصناف هذا من كشف أولياء الرحمن[١].

ويلخص المقصود سعيد حوى بقوله: إن الكشف ممكن وهو مـا يمكن أن يصادفه السـالك إلى الله وهـو من مظاهـر فضل الله وابتلائه ولكنا جميعـاً مقيدون بالنصوص لا بالكشف، والكشف لا تثبت به عقيدة جـديدة ولا يـزاد به على النصوص ولا تتعبد به الأمة ولا تكلف الأمـة بتصديق أصحـابه حتى ولـو كانوا صادقين لأن قلوبهم ليست معصومة في أمر الغيب واحتمـال التوهم قـائم ولأن الكشف قد يكون امتحاناً للانسان أو للناس فينزل به صاحبه أو غيره.

بهذه القيود كلها تدرك محل الكشف في شريعـة الله عز وجـل[٢] ونفهم مقصود الشهيد البنا رحمه الله من أنه ليس من أدلة الأحكام الشرعيـة ولا يعتبر إلا بشرط عدم اصطدامه بأحكام الدين ونصوصه.

رابعاً الرؤى المنامية:

وهي أثر من آثار الإيمـان ومرتبـة من مراتب الهـداية إذا كـانت صادقـة وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (الرؤيـا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)[٣].

---

(١) مدارج السالكين جـ٣ ٢٢٧/٢٣١.
(٢) تربيتنا الروحية: ٢٠٠.
(٣) صحيح البخاري: ٣٩/٩ ومسلم: ١٧٧٤/٤.

والرؤيا: مبدأ الوحي وصدقها بحسب صدق الرائي وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً، وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطىء كما قال النبي ﷺ[1] وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها، فيتعوض المؤمنون بالرؤيا وأما في زمن قوة نور النبوة ففي ظهور نورها ما يغني عن الرؤيا.

وقد قال النبي ﷺ (لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قيل وما المبشرات يا رسول الله؟ قال الرؤيا الصالحة، يراها الرجل المسلم أو ترى له)[2]. وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب وقد قال النبي ﷺ لاصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال: (أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر فمن كان منكم متحريها فليتحرها في العشر الأواخر)[3].

والرؤيا كالكشف منها رحماني ومنها نفساني ومنها شيطاني، قال النبي ﷺ (الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، رؤيا تحزين الشيطان ورؤيا مما يحدث في نفسه في اليقظة فيراه في المنام)[4].

والذي هو سبب من أسباب الهداية هو الرؤيا التي من الله خاصة، ورؤيا الأنبياء وحي فإنها معصومة من الشيطان وهذا باتفاق الأمة ولهذا أقدم الخليل إبراهيم على ذبح ابنه اسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم فتعرض على الوحي الصريح فإن وافقته وإلا لم يعمل بها فإن قيل فما تقولون في رؤية صالحة أو تواطأت؟ قلنا متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي بل لا تكون إلا مطابقة منبهة عليه، أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه، ولم يعرف الرائي اندراجها فيه فيتنبه بالرؤيا على ذلك[5].

---

(١) جامع الأصول: ٢/٥١٦.

(٢) صحيح البخاري: ٩/٤٠ وزيادة (يراها الرجل المسلم أو ترى له) جاءت في الموطأ كما في جامع الأصول: ٢/٢٢٥.

(٣) صحيح البخاري ٣/٦٠.

(٤) انظر جامع الأصول: ٢/٥١٨ وهو بمعنى هذا الحديث.

(٥) تهذيب مدارج السالكين ٥٠.

ومن ثم فاجماع المسلمين متفق على أن الرؤيا في حق غير الأنبياء لا يجوز أن تكون مصدر تشريع، ومتى قالوا: لو أن الإنسان رأى النبي ﷺ في المنام وهو الذي لا يمكن أن يتمثل الشيطان بصورته فأمره أمراً يخالف الشريعة الإسلامية فإننا نقول له: إنك واهم، ويحرم عليه أن يبني على رؤياه، فكيف فيما سوى ذلك من الرؤيا[1].

ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال والمحافظة على الأمر والنهي ولينم على طهارة كاملة، مستقبل القبلة، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه فإن رؤياه لا تكذب البتة.

وأصدق الرؤيا رؤيا الأسحار، فإنه وقت النزول الإلهي، واقتراب الرحمة والمغفرة وسكون الشياطين، وعكسه رؤيا العتمة عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية، وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه (رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام)[2].

وخلاصة القول: إن الإلهام والخواطر والكشف والرؤيا من آثار نور الإيمان إن كانت صادرة من مؤمن صادق، قامت الدلائل الظاهرة والأحوال الباطنة على ذلك وهي كرامة من الله لهم، كما أنها ابتلاء واختبار للثبات على الإيمان والاستقامة عليه.

ومع ذلك فإنها كما يقول الإمام الشهيد البنا رحمه الله (ليست من أدلة الأحكام الشرعية) لأن أدلة الأحكام الشرعية يشترط في مصدرها العصمة ولا عصمة هنا إذ إنه لا عصمة ثابتة شرعاً إلا بما جاء عن الله والرسول بالاجماع وليس ثم هناك شيء من ذلك.

ومع ذلك فإن هذه المكرمات عندما تكون من الله فإنها لا يمكن أن تصادم شرعاً أو تخالفه، أما إذا كانت من النفس والشيطان فإنه لا اعتبار بها

---

(١) تربيتنا الروحية ٢٠٩.

(٢) كنز العمال: ١٥/٣٧٦ وقال أخرجه الطبراني في الكبير والضياء.

لأنها قل أن توافق شرعاً أو تستقيم على أمر مرضي ولذا قال (ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه) والله أعلم.

أما الحلاوة الناشئة عن صدق الإيمان وصحة العبادة وسلامتها وحسن المجاهدة فإنها حلاوة حقيقية تتذوقها روح المؤمن كما يتذوق اللسان حلاوة المطعومات كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة والتي منها قول الرسول ﷺ (ذاق طعم الإيمان من رضي الله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً) أخرجه مسلم[1].

وحديث (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان) وفي رواية (ذاق طعم الإيمان مَن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)[2].

قال العلماء رحمهم الله تعالى: معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق في رضى الله عز وجل ورسوله ﷺ وإيثار ذلك على عرض الدنيا. ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى بفعل طاعته وترك مخالفته وكذلك محبة رسول الله ﷺ - قلت ولا يحصل ذلك إلا لمن خالط الإيمان بشاشة قلبه فاستولى عليه بحلاوته ومذاق طعمه ولذا يقول ابن القيم للإيمان طعم وحلاوة يتعلق بها ذوق ووجد، ولا تزول الشبه والشكوك عن القلب إلا إذا وصل العبد إلى هذه الحال، يباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة فيذوق طعمه ويجد حلاوته[3].

وهذا الذوق هو الذي استدل به هرقل على صحة النبوة، حيث قال لأبي سفيان فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه فقال لا قال وكذلك الإيمان حين

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي جـ ١ ص ٢٢٤ .
(٢) شرح صحيح مسلم بهامش شرح القسطلاني جـ ١ ص ١٢٧ .
(٣) مدارج السالكين جـ ٣/٨٨.

يخالط بشاشة القلوب)[1]. وهذه الحلاوة الحقيقية المحمومة هي التي تشهد لها أحوال الصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح وأهل المعاملات الصادقة مع الله عز وجل ومع دينه الخاتم. ولو أردنا أن نضرب أمثلة ونماذج لتلك الأحوال لما كفاها عشرة مجلدات ولكن نكتفي بثلاثة أمثلة لثلاثة من الصحابة عبروا عن حقيقة تلك الحلاوة بتضحياتهم وهم:

١ ـ بلال بن رباح رضي الله عنه حين صنع ما صنع في الرمضاء إكراهاً على الكفر وهو يقول أحد أحد فمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان وكذلك أيضاً عند موته وأهله يقولون: واكرباه، وهو يقول واطرباه غدا القى الأحبة محمداً وحزبه فتمتزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء وهي حلاوة الإيمان.

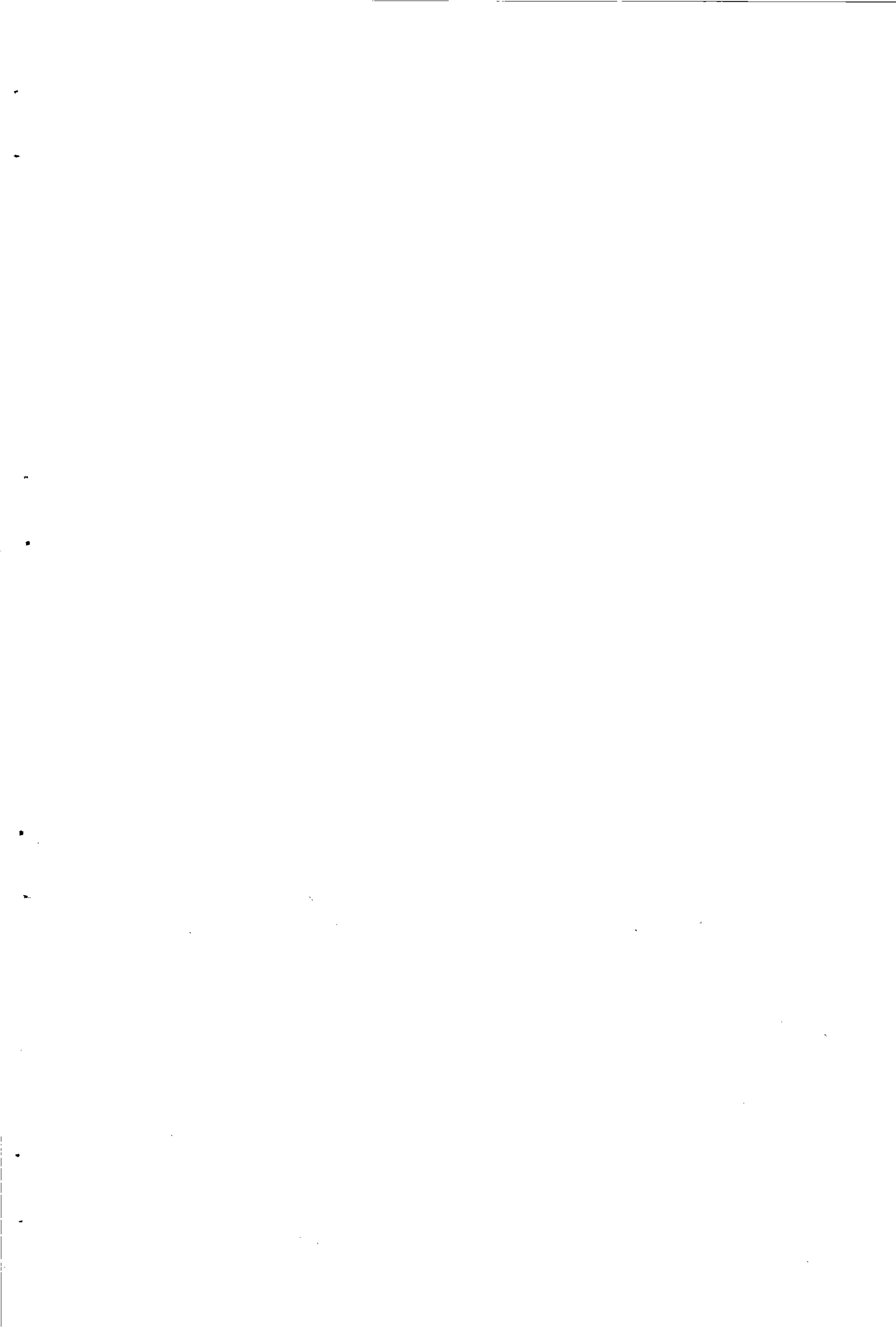
٢ ـ الصحابي الذي سرق فرسه بليل وهو في الصلاة فرأى السارق حين أخذه فلم يقطع لذلك صلاته فقيل له في ذلك فقال: ما كنت فيه أكبر من ذلك ـ وما ذاك إلا لحلاوة الإيمان.

٣ ـ الصحابيان اللذان جعلهما النبي ﷺ في بعض مغازيه ليلة يحرسان جيش المسلمين فنام أحدهما وقام الآخر يصلي فإذا الجاسوس من قبل العدو قد أقبل فرآه فكبد الجاسوس القوس ورمى الصاحبي فأصابه فبقي على صلاته ولم يقطعها ثم رماه ثانية فأصابه فلم يقطع لذلك صلاته ثم رماه ثالثة فأصابه فعند ذلك أيقظ صاحبه وقال لولا أني خفت على المسلمين ما قطعت صلاتي ـ وما ذاك إلا لشدة ما وجد فيها من حلاوة حتى أذهبت عنه ما يجده من ألم السهام[2].

---

(١) صحيح البخاري: ١/٦.

(٢) انظر بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها جـ ١ ص ٢٥/٢٦.



الأصل الرابع

الأخذ بالأسباب ما لم تكن من أسباب الجاهلية «والتمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة».



بين يدي هذا الأصل

١ ـ التوكل على الله عز وجل والاعتماد عليه في كل شيء أصل من أصول الإيمان قال تعالى: **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾**.

٢ ـ إثبات الأسباب والأخذ بها ـ مع الاعتقاد أن مسبب الأسباب هو الله عز وجل ـ لا يتنافى مع التوكل بل من نفاها يكون توكله مدخولاً ولقد كان رسول الله ﷺ سيد المتوكلين ومع هذا كان يأخذ بالأسباب وأحواله في صحته ومرضه وإقامته وسفره وحربه وسلمه دليل على ذلك:

٣ ـ أن ما أبطله الإسلام من أسباب الجاهلية لا يجوز للمسلم اثباته أو الاخذ به بل يجب النفور منه وإنكاره ومحاربته وهذا ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان.

٤ ـ أن هذا الأصل شمل بعض أسباب كانت الجاهلية تتخذها وتتعلق بها وقد جاء الإسلام بإبطالها لما ارتبط بها من الشرك والكفر، فأكد الشهيد البنا رحمه الله على هذه الأمور في هذا الأصل ليضبط به مسار فهم الجهلة فقال عن التمائم والرقى أو في بعضها سلامة للعقيدة وحفظاً للإيمان من الوقوع فيها ـ مستثنياً ما اقره الشرع واعتمده من الأسباب إذا كانت من قرآن ودعاء مأثور.

التوضيح والبيان

ضوابط ومحترزات:

١ ـ قوله: الاما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة ـ هذا الاستثناء يعود إلى التمائم والرقى فقط ولا يشمل كل هذه الأشياء المذكورات لأنه لم يرد فيها عن الله ورسوله ما يدل على إباحتها بل الوارد فيها التحذير منها والتشنيع على أهلها جملة وتفصيلا كما سيأتي.

٢ ـ لقد جمع في هذا الأصل أموراً مختلفة في الأحكام من حيث عظم الذنب وجرم الفعلة. إن منها ما هو حرام ومنها ما هو من الشرك الاصغر ومنها ما هو من الشرك الأكبر أو كفر كما سنعرف مما يأتي إلا أنه رغم تفاوتها فيما ذكرنا فهي منتظمة تحت اسم (منكر) كما ذكره الشهيد. وكل منكر يجب محاربته لقوله تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾. والمنكر يطلق على صغير الذنب كما أنه يطلق على كبيره كما قال تعالى: ﴿**إنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً**﴾. المجادلة: ٢. وقوله: ﴿**إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر**﴾. العنكبوت: ٢٩.

٣ ـ وقوله كل ما كان من هذا الباب ـ أي كل ما كان شبيه كل نوع من هذه الأنواع المذكورات فيأخذ حكمها من حيث إنه منكر تجب محاربته إلا ما استثني شرعاً.

وبعد توضيح المحترزات والضوابط في الأصل نعود إلى بيان المفردات ومعاني كل منها وحكم وآراء أهل العلم في ذلك مدللاً.

أولاً: التمائم:

جمع تميمة وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين في زعمهم، فأبطلها الإسلام[1].

---

(١) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث جـ ١ ص١٩٧.

وفي الحديث الذي رواه أحمد[1] عن عقبة بن عامر مرفوعاً (من تعلق بتميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له) وفي رواية (من تعلق تميمة فقد أشرك). يقول ابن الأثير: إنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم وطلبوا دفع الأذى من غير الله تعالى الذي هو دافعه[2].

وهذا الوعيد الشديد ينصب على ما كانت الجاهلية تعلقه وتعتقد فيه جلب النفع ودفع المؤذيات، أما إذا كان المعلق من القرآن الكريم فإنه مما رخص فيه بعض السلف[3] لأنه لا دافع إلا الله، لا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وبأسمائه وصفاته، والقرآن كلام الله وهو صفة من صفاته عز وجل.

ومنعته طائفة أخرى وهو الأحوط لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل:

الأول: عموم النهي ولا مخصص للعموم.

الثاني: سداً للذريعة فإنه يقضي إلى تعليق ما ليس كذلك.

الثالث: أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك ـ ومن قبيل التمائم الجاهلية لبس الحلقة والخيط والودع ونحوها لرفع البلاء أو دفعه، لما روى عمران بن حصين رضي الله عنه (أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر فقال ما هذا؟ قال من الواهنة فقال انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا انبذها عنك، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً) رواه أحمد[4].

وعن حذيفة رضي الله عنه: أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه وتلا قوله تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ يوسف: ١٠١.

---

(١) الفتح الرباني: ١٨٧/١٧.

(٢) النهاية لابن الأثير ٢٥٢/٢.

(٣) نفس المصدر ١٩٨/١.

(٤) الفتح الرباني: ١٨٧/١٧.

ثانياً: الرقى:

جمع رقية وهي العوذة التي يرقي بها صاحبها الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات[1] وفي الحديث (إن الرقي والتمائم والتولة شرك) رواه أحمد وأبو داود[2]. والمراد بالرقي في الحديث هنا الرقى الموصوفة بكونها شركاً وهي ما يستعان فيها بغير الله تعالى. وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله تعالى وصفاته وآياته والمأثور عن النبي ﷺ فهذا حق جائز ومستحب، يدل على ذلك حديث مسلم عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: كنا نرقي في الجاهلية فقلت يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا على رقاكم ولا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك)[3]. قال الخطابي: وكان عليه الصلاة والسلام قد رقى وأمر بها وأجازها، فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله شرك[4]. وقد حكى الإجماع على جوازها، النووي والحافظ بن حجر والسيوطي وغيرهم رحمهم الله، واشترطوا للرقية الجائزة ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته ـ وباللسان العربي وما يعرف معناه ـ وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى[5].

ثالثاً: الودع:

بالفتح والسكون جمع ودعة وهو شيء أبيض يجلب من البحر يعلق في حلوق الصبيان وغيرهم وفي الحديث (من تعلق ودعة فلا ودعه الله) وإنما نهى عنه لأنهم كانوا يعلقونها مخافة العين[6] وهو منكر تجب محاربته.

---

(١) النهاية لابن الأثير ٢/٢٥٢.

(٢) الفتح الرباني ١٧/١٨٦.

(٣) شرح صحيح مسلم: ٨/٩ هامش القسطلاني وفتح الباري: ١٠/١٩٥ وفتح المجيد: ١٠٣.

(٤) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ١٠٢، ١٠٣.

(٥) النهاية لابن الأثير: ٢/٢٥٤.

(٦) النهاية: ٥/١٦٨.

رابعاً: الرمل:

هـو البحث عن المجهولات بخـطوط تخط على الـرمـل وهـو من الخـرافـات واعتبرها شيخ الإسلام ابن تيمية من العرافـة حيث قال: العـراف اسم للكـاهن والمنجم والرمـال ونحوهم كـالحارز الـذي يدعي علم الغيب أو يدعي الكشف وهو منكر تجب محاربته والقضاء عليه.

خامساً: المعرفة:

العرافة نوع من الكهانة وقال الخطابي وغيره، العراف: هو الذي يتعاطى معرفة مكـان مسروق ومكـان الصلة ونحوهمـا. وفي الحديث (من أتى عـرافاً فسـأله عن شيء فصـدقه بمـا يقول لا تقبـل له صـلاة أربعين يومـاً) أخـرجـه مسلم[١].

فإذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسؤول؟ قال النووي وغيره معنـاه أنـه لا ثواب لـه فيها وإن كـانت مجزئـة بسقوط الفرض عنه ولا بـد من هـذا التأويل في هـذا الحديث فـإن العلماء متفقـون على أنه لا يلزم العـراف إعادة صلاة أربعين ليلة فوجب تأويله[٢].

سادساً: الكهانة:

قال القاضي رحمه الله: كانت الكهـانة في العـرب على ثلاثـة أضرب - أحـدها: أن يكـون للإنسـان ولي من الجن يخبره بمـا يسترقـه من السمع من السمـاء وهـذا القسم بـطل من حين بعث الله نبينـا محمـد ﷺ. والثـاني: أن يخبره بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض وما خفي عنه مما قرب أو بعد وهـذا لا يبعد وجوده، ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين هذين الضربين وأحـالوهمـا

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٥١/٤ رقم ١٢٥.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي: ٧٥/٩.

ولا استحالة في ذلك ولا بُعْدَ في وجوده ولكنهم يصدقون ويكذبون والنهي عن تصديقهم والسماع منهم عام.

الثالث: المنجمون: وهذا الضرب يخلي الله منه لبعض الناس قوة ما لكن الكذب فيه أغلب ومن هذا الفن العرافة وصاحبها عراف وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها، وقد يعتضد بعض هذا الفن ببعض في ذلك بالزجر والطرق والنجوم وأسباب معتادة، وهذه الأضرب كلها تسمى كهانة وقد أكذبهم كلهم الشرع ونهى عن تصديقهم واتباعهم[١].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد بريء بما أنزل على محمد ﷺ رواه أبو داود[٢] والأربعة والحاكم وقال صحيح على شرطهما[٣] وعنه (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ ـ ولقد سئل الرسول ﷺ عن الكهان فقال (ليسوا بشيء)[٤] قال النووي: معناه بطلان قولهم وأن لا حقيقة له[٥].

والخلاصة:

أن الرمل، والمعرفة، والكهانة، من ادعاء معرفة الغيب، وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً**﴾. الجن: ٢٦.

والواجب على ولي الأمر أن يسعى في إزالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين وأصحاب الضرب بالرمل والحصى والقرع والمثالات ومنعهم من الجلوس في الحوانيت والطرقات، أو يدخلوا على الناس في منازلهم لذلك.

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٩/٦٩ ـ ٧٠.
(٢) سنن أبي داود: ٢/٣٤١.
(٣) انظر جامع الأصول: الحاشية: ٥/٦٥. يدلك على مواضعه في الأربعة ومسند أحمد والدارمي.
(٤) شرح صحيح مسلم: ٩/٧٠ بهامش القسطلاني.
(٥) شرح صحيح مسلم: ٩/٧٠ بهامش القسطلاني.

ويكفي من يعلم تحريم ذلك ولا يسعى في إزالته مع قدرته على ذلك قول الله تعالى: ﴿**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون**﴾.[1]

---

(١) شرح الطحاوية ص٤٥١.



الأصل الخامس

رأي الولاة هو الفصل فيما لانص فيه ووجه الفرق بين العبادات والعادات.

(ورأي الإمام ونائبه فيما لانص فيه يحتمل وجوهاً عدة وفي المصالح المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات.

والأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد).

بين يدي الأصل

١ ـ أجمع المسلمون أنه لا اجتهاد مع وجود نص صريح من كتاب الله وسنة رسوله لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم**﴾. الحجرات: ١.

٢ ـ واتفقوا ايضاً أنه حين لا يوجد نص في قضية ما فباب الاجتهاد مفتوح لكل ذي أهلية للتوصل إلى رأي صحيح فيها لحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله الرسول ﷺ إلى اليمن قاضياً.. قال كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال أقضي بما هو في كتاب الله، قال فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال فبسنة رسوله ﷺ. قال: فإن لم يكن في سنة رسوله؟ قال: اجتهد رأيي لا آلو. قال: فضرب رسول الله ﷺ على صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ.

٣ ـ ولا خلاف بين أهل العلم أن رأي العالم عند فقد الدليل المعتبر شرعاً ليس ملزماً للغير وإنما هو رخصة له فقط[١].. أما رأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه أو ترجيحه لأحد الآراء عند الاختلاف فهو ملزم يوجب العمل به لعموم الأمر بطاعته والتحذير من مخالفته ولأن الاجماع والائتلاف وقطع النزاع لا يتحقق إلا بذلك[٢].

٤ ـ أن أي رأي استند في حكمه إلى المصلحة أو العرف أو العادة عند فقدان

---

(١) قطر الولي شرح حديث الولي للشوكاني ٣٩٩.

(٢) انظر مراتب الإجماع لابن حزم ١٢٦.

النص في تلك القضية عرضة للتغيير والتبديل بتغير المصلحة، والأعراف والعادات وقد قالوا: الأحكام المترتبة على العادات تدور معها حيث دارت وتبطل معها حيث بطلت[1].

بعد هذه الأسس المتفق عليها لمسار الاجتهاد الصحيح والرأي المعتبر في الشريعة الإسلامية التي ضبط بها أهل العلم هذا المجال حتى لا تحيد به الأهواء والرغبات والشهوات عن مساره الصحيح، يتضح لنا جلياً أن هذا الأصل الذي وضعه الشهيد البنا رحمه الله هو لقبول الآراء في مجال القوانين والأنظمة الصادرة من الإمام ونائبه الهادفة إلى الإصلاح وهذا بيان ذلك وتوضيحه.

التوضيح والبيان

قوله: (ورأي الإمام ونائبه... الخ).

(الرأي) في الأصل مصدر رأى الشيء يراه رأياً.. ثم غلب استعماله على المرئي نفسه من باب استعمال المصدر في المفعول.

والرأي على ثلاثة أقسام: رأي باطل بلا ريب، ورأي صحيح، ورأي موضع الاشتباه، والأقسام الثلاثة قد أشار إليها السلف.

فاستعملوا الرأي الصحيح وعملوا به، وأفتوا به، وسوغوا القول به وذموا الباطل، ومنعوا العمل والفتيا والقضاء به وأطلقوا ألسنتهم بذمه وذم أهله. والقسم الثالث سوغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الاضطرار إليه، فالباطل ما خالف نصاً ثابتاً صريحاً أو تكلم به في الدين فرضاً والصحيح: ما صدر عن صحابي أو فسر به نصاً أو بنى به وجه الدلالة منه أو توصل إليه بعد طلب الواقعة من مصادرها الأصلية.

---

(١) الفروق جـ١ ص٨٦ نقلاً عن المدخل لدراسة الشريعة ص٢٠٧.

أما المشتبه فيه فهو ما ينتج عن قياس وسائر الأدلة المختلف فيها من استحسان واستصلاح وغيرها.

(الامام): هو من ائتم به من رئيس وغيره، والإمام الذي يقتدى به، وجمعه: أئمة، وإمام كل شيء قيّمه والمصلح له.

والمراد به هنا: من نصبته الأمة خليفة عليها لحراسة الدين وسياسة الدنيا[1].

(ونائبه) هو من أقامه الإمام مقامه لتدبير شؤون الأمة أو ولاه أمراً من أمور المسلمين في أي مجال من مجال حياتهم ليديره نيابة عنه.

(فيما لا نص فيه.. الخ) المراد بالنص هنا الكتاب والسنة والإجماع حيث جاء صريحاً وذلك أنه لا يجوز الخروج على النص، ولا يصح لأحد تعطيله أو الخروج عليه أو المخالفة له، أما حيث لا يوجد نص صريح، وحيث لا يوجد نص له وجوه عدة من حيث المعنى أو الدلالة أو المقتضى، وحيث المصلحة المرسلة التي أطلقها الشارع فلم يشرع حكماً لتحقيقها، ولم يدل دليل شرعي على اعتبارها أو إلغائها فإنه والحالة هذه (رأي الإمام ونائبه) هو الفصل فيما اختلف فيه وهو المرجع على ما سواه إذا كان أهلاً للرأي ومستكملاً للشروط المعتبرة.

يقول شارح الطحاوية: وقد دلت نصوص الكتاب والسنة والإجماع أن ولي الأمر وإمام الصلاة والحاكم وأمير الحرب وعامل الصدقة يطاع في مواضع الاجتهاد وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد بل عليهم طاعته في ذلك وترك رأيهم لرأيه. فإن مصلحة الإجماع والائتلاف ومفسدة الفرقة والاختلاف أعظم من أمر المسائل الجزئية، ولهذا لم يجز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض[2]. والصواب والمقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض.

---

(١) انظر الأحكام السلطانية للماوردي.

(٢) شرح الطحاوية ٢٢٤ تحقيق أحمد محمد شاكر.

أما إذا كان رأي الإمام يصطدم بقاعدة شرعية معتبرة فإنه لا يكون معمولاً به ولا تجب طاعته فيه. مثلاً: لو أصدر قانوناً يبيح السياحة حسب المفهوم المعاصر دون ضابط أو قيد لمصلحة ما وفي الوقت نفسه يتوقف على تنفيذ هذا القانون مفسدة راجعة في الدين والأخلاق فإنه والحالة هذه لا يعمل بهذا القانون لاصطدامه مع القاعدة المشهورة: درء المفاسد أولى من جلب المصالح.

قوله: (وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادة) إعلم أن الأحكام التي تتغير بتغير الزمان هي الأحكام المبنية على العرف والعادة لأنه بتغير الأزمان تتغير احتياجات الناس، وبناء على هذا التغير يتبدل أيضاً العرف وبتغير العرف تتغير الأحكام المبنية عليه. أما الأحكام المستندة إلى أدلة شرعية ولم يظهر فيها ربط الحكم بمصلحة ظرف زمني ولم تبن على عرف وعادة فإنها لاتتغير، كالقصاص من القاتل عمداً لم يبن على عرف وعادة فلا يتغير.

ولأهمية هذا الأصل فقد كتب ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه اعلام الموقعين فصلاً كبيراً أيده بالأدلة والأمثلة من واقع الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ومن تبعهم من علماء الأمة ومجتهديها فليرجع إليه.

ويمثل لتغير العرف والعادة بقولهم: سقوط خيار الرؤية برؤية غرفة من غرف الدار لجريان العرف في الزمن القديم على بناء الدار ومشتملاتها على نمط واحد. ثم لما تغير عرف الناس وعاداتهم في بناء الدار أفتى الفقهاء بعدم سقوط خيار الرؤية برؤية غرفة واحدة بل لا بد من رؤية جميع مشتملات الدار.

وأما تغيره بمصلحة الظرف الزمني فقد استدل الفقهاء له بأعمال وقعت من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقره عليها الصحابة حينما منع المؤلفة قلوبهم من الزكاة بعد أن قويت شوكة الإسلام لتغير المصلحة بتغير الزمان.

وتوقيفه لحد السرقة في عام المجاعة واكتفاؤه بالتعزير نظراً لتغير

الظروف التي أحاطت بالسرقة، وهي المجاعة فكانت شبهة في درء الحد.

وامتناعه عن تقسيم الغنائم من الأراضي المستولى عليها عنوة على المجاهدين أسوة بسائر الغنائم. وغير ذلك من المسائل العلمية الكثيرة وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أمثلة كثيرة لمثل هذا الأصل في كتابه اعلام الموقعين فليرجع إليه[1].

(والعرف) هو ما اعتاده الناس وساروا عليه في أمور حياتهم ومعاملاتهم من قول أو فعل أو ترك، ويسمى أيضاً بالعادة على رأى كثير من الفقهاء وبعضهم يجعل (العادة) هي الأمر المتكرر. أعم من العرف فكل عرف عادة وليس كل عادة عرفاً وبعضهم يجعل العرف هو الأعم. والمختار أن العرف والعادة سواء، فهما اسمان لما ألفهما الناس واعتادوه وساروا عليه في حياتهم وهذا هو الذل يدل عليه كلام الفقهاء.

وينقسم العرف من حيث صحته ومساره إلى قسمين: (صحيح) وهو ما لا يخالف نصاً من نصوص الشريعة ولا قاعدة من قواعدها وإن لم يرد به نص خاص ولا خلاف في اعتباره والاعتداد به عند الفقهاء من مختلف المذاهب بل كانوا يعتدون به ويلاحظونه في الاستنباط وعند تطبيق الأحكام وعند تفسير النصوص وعقود الناس.

(فاسد): وهو ما يخالف أحكام الشريعة وقواعدها الثابتة وقد تعارف كثير من الناس على كثير من المنكرات مثل التعامل بالربا وشرب الخمر وتعاطي القمار ونحو ذلك.

ولا خلاف عند أهل العلم أن العرف الفاسد لا اعتبار له، لأن اعتبار العرف الفاسد اتباع للهوى والأخذ بالهوى بسند الشريعة قال تعالى: **﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾**[2]. المؤمنون: ٧١.

---

(١) راجع المدخل إلى علم أصول الفقه ٣١٦ والمدخل لدراسة الشريعة عبد الكريم زيدان ١٠٢

(٢) المدخل إلى الشريعة الإسلامية ٢٠٥ وما بعدها.

والخلاصة:

أن هـذه القضية تحكمهـا الضوابط الاجتهـادية الـدقيقـة كمـا تحكمهـا شـورى أهل الشـورى في الدولـة المسلمـة على ضـوء المصلحـة الإسـلامية العليا[1].

وقوله: (الأصـل في العبادات التعبـد دون الالتفات إلى المعـاني، وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد).

المشروعات قسمان: أحدهما ما ظهر لنا أنه جالب لمصلحـة أو داريء لمفسدة ـ أو جالبٌ لمفسدة داريء لمصلحة.

ويعبر عنه بـأنه معقـول المعنى. الضرب الثـاني: ما لم يـظهر لنـا جلبه لمصلحـة أو درؤه لمفسدة ويعبـر عنه بـالتعبد أي غيـر معقـول المعنى ـ وفي التعبد من الطواعية والإذعان ممـا لم تعرف حكمتـه ولا تعرف علتـه مما ليس في غيـره. فما ظهـرت علتـه وفهمت حكمتـه فـإن مـلابسـه قـد يفعله لأجـل تحصيله حكمته وفائدته. والمتعبد لا يفعل ما تعبد به إلا إجلالاً للرب وانقياداً لطاعته ويجوز أن تتجرد التعبـدات عن جلب المصالـح ودرء المفاسـد ثم يقع الثواب عليها بنـاء على الطاعـة والإذعان من غيـر جلب مصلحة غيـر مصلحة الثواب ودرء مفسدة غير مفسدة العصيان فيحصل من هذا أن الثواب قـد يكون على مجـرد الطواعيـة من غير أن تحصـل من تلك الطواعيـة جلب مصلحة أو درء مفسدة سوى مصلحة أجر الطاعة[2]. ويدل على هذه الحقيقة الأصولية أمور منها:

١ ـ الاستقـراء حيث إن أكثر العبـادات المأمـور ـ المكلف بهـا ـ غيـر معقولة المعنى وذلك مثل التيمم بالتراب بدلاً من الماء، مـع أن الماء فيـه معنى النظافة والتراب ليس فيه ذلـك، والطهـارة من الحدث مخصـوصة بـالماء

(١) في آفاق التعاليم ٩٦.
(٢) قواعد الأحكام في مصالح الإمام جـ ١/١٨.

الطهور وإن حصلت بغيره وكذلك الصلوات خصت بأفعال مخصوصة على هيئات مخصوصة إن خرجت عنها لم تكن عبادات وهكذا نجد في سائر الفرائض والواجبات التعبدية مثل الصوم والحج وغيرها. ومن خلال ذلك الاستقراء فهم أن من حكمة التعبد العامة الانقياد لاوامر الله تعالى وإفراده بالخضوع والتعظيم لجلاله والتوجه إليه.

أما العاديات: نجد أن الشارع قاصد فيها مصالح العباد والأحكام تدور معها حيث دارت فترى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة فإذا كان فيه مصلحة جاز كالدرهم بالدرهم إلى أجل يمتنع في المبايعة ويجوز في القرض وبيع الرطب باليابس يمتنع حيث يكون مجرد غرض من غير مصلحة ويجوز حيث يوجد مصلحة راجحة كما في العرايا. ولم نجد هذا في باب العبادات مفهوماً كما فهمناه في العادات. بل نجد نصوصاً صريحة في الكتاب والسنة تنص على المصلحة في العادات وقبل أن تنص عليها في العبادات من ذلك قوله تعالى: **﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾**. البقرة: ٧٩. وقوله: **﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾**. البقرة: ١٨٨. وفي الحديث: (لا يقضي القاضي وهو غضبان)[١] وقوله (لا ضرر ولا ضرار)[٢] وقوله: (القاتل لا يرث)[٣] ونهى عن بيع الخمر وقال: (كل مسكر حرام)[٤] وفي القرآن: **﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾**. إلى غير ذلك مما لا يحمل، وجميعه يشير بل يصرح باعتبار المصالح للعباد وإن الأذن دائر معها حيث دارت حسبما بينته مسالك العلة.

---

(١) انظر جامع الأصول: ١٧٥/١٠.

(٢) قال النووي في الأربعين حديث حسن رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسنداً، ورواه مالك في الموطأ مرسلاً وله طرق يقوي بعضها بعضها.

(٣) جامع الأصول: ٦٨١/٩ وقال أخرجه الترمذي وفي الحديث كلام، انظر التعليق بأسفل الصفحة من جامع الأصول.

(٤) جامع الأصول: ٩٠/٥ من رواية الترمذي وأبي داود.

فإذا تقرر ذلك فاعلم أن العبادات إذا وجد فيها التعبد فلا بد من التسليم والوقوف مع النصوص كطلب الصداق في النكاح والذبح في المحل المخصوص في الحيوان المأكول، والفروض المقدرة في المواريث وعدد الأشهر في العدة الطلاقية والوفوية وما أشبه ذلك من الأمور التي لا مجال للعقول في فهم مصالحها الجزئية حتى يقاس عليها غيرها، وذلك ترجيحاً للجانب التعبدي ولأن أمور التعبدات فعلتها المطلوبة مجرد الانقياد من غير زيادة ولا نقصان ولذلك لما سئلت عائشة رضي الله عنها عن قضاء الحائض الصوم دون الصلاة قالت للسائلة: أحرورية أنت ـ إنكاراً عليها أن تسأل مثل هذا وإن لم يوضع التعبد أن تفهم كليته الخاصة ثم قالت: كنا نؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة.

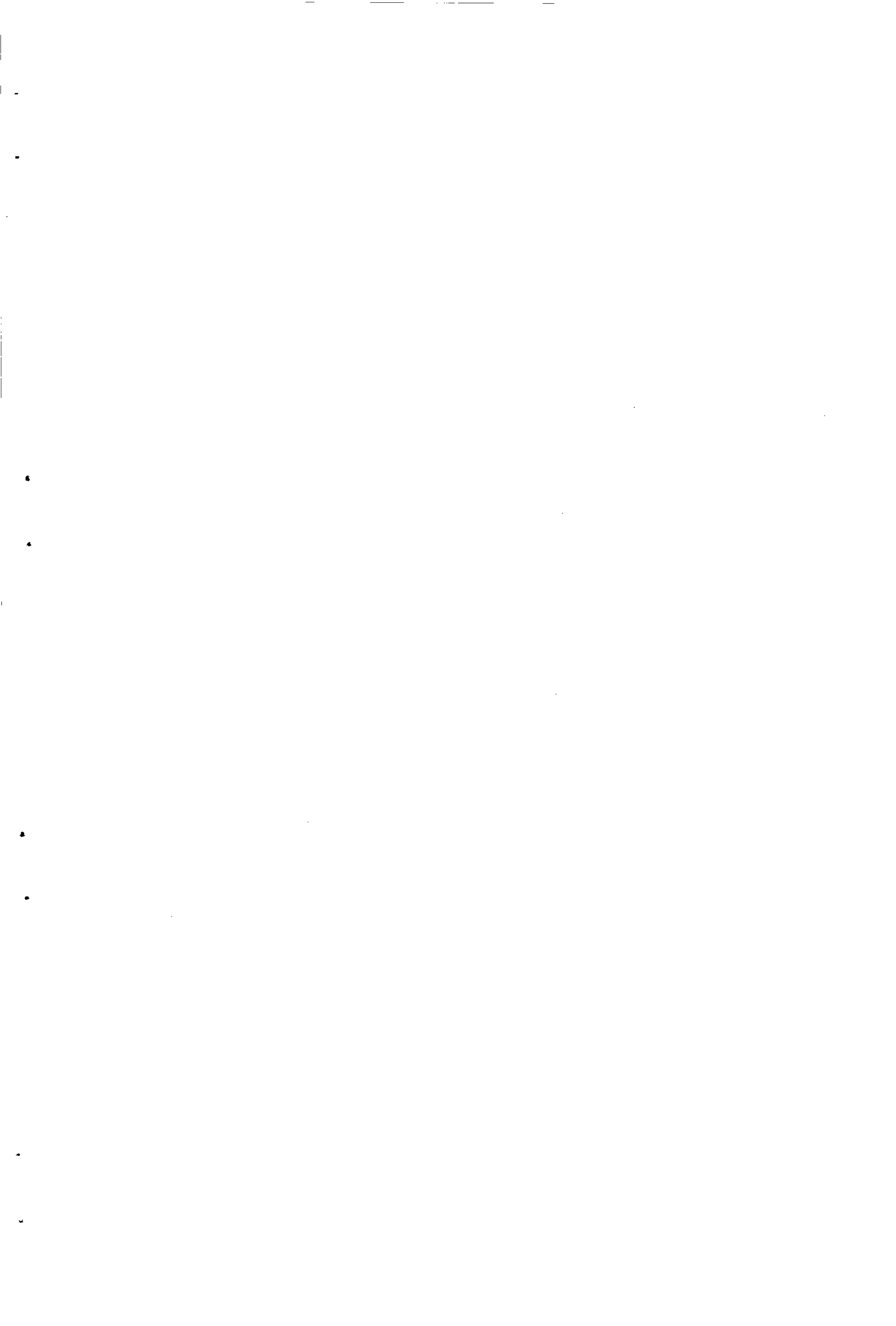
وهذا يرجح التعبد على التعليل بالمشقة.

وقول ابن المسيب في مسألة الشارع بين دية الأصابع، هي السنة يا ابن أخي وغير ذلك كثير والله أعلم. ومعنى هذا التعليل أن لا علة.

الأصل السادس

ميزان اراء الرجال وحدود الأدب
مع سلف هذه الأمة

(وكل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم ﷺ وكل ما جاء عن السلف رضي الله عنهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع، ولكنا لانعرض للأشخاص فيما اختلف فيه بطعن أوتجريح، ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا).



بين يدي الأصل

١ ـ هذا الأصل نطق به كبار سلف هذه الأمة وأئمتها منهم مجاهد والحكم ابن عتبة ومالك وغيرهم رضي الله عنهم[١].

٢ ـ واتفقت الأمة ـ المعقد باتفاقها ـ على ألا عصمة لأحد من البشر إلا لرسول الله ﷺ، ولإجماع الأمة وذلك بشهادة القرآن بذلك في قوله تعالى في حق نبيه: ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾. النجم: ٣، ٤ ولأمر العباد بالأخذ والتلقي منه دون أي تردد في قوله تعالى: ﴿**وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾. الحشر: ٧ والأمر بطاعته مطلقاً في قوله تعالى: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾. النساء: ٥٩ أما الإجماع فلقوله تعالى: ﴿**ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً**﴾. النساء: ١١٥. وفي الحديث: (إن أمتي لا تجتمع على ضلالة)[٢].

٣ ـ أن طريق أهل السنة والجماعة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ حين قال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)[٣]. ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي

---

(١) انظر أعلام الموقعين جـ ٣ ص٣٥٥.

(٢) ابن ماجه: ٢٠/١٣٠٣ رقم ٣٩٥٠.

(٣) جامع الأصول: ٢٧٩/١ وقال أخرجه أبو داود والترمذي.

محمد ﷺ، ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد وبهذا سموا أهل الكتاب والسنة وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين (والإجماع) هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه العلم والدين.

وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأفعال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين، والاجتماع الذي ينضبط هو مما كان عليه السلف الصالح : إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة[1].

وإذا علمت ذلك فاعلم أن كلام الشهيد البنا رحمه الله في هذا الأصل يخرج وما قاله من سبقه من الدعاة المجددين وأهل العلم العاملين من مشكاة واحدة، وهي الشريعة الإسلامية منها تلقوا أدبهم وعلى أصولها ومبادئها السمحة بنوا أحكامهم، فجاءت حقاً أسلم للقلوب وأبعد عن الإفراط والتفريط المنهي عنه والمذموم وحتى يتضح الأمر فهذا بيانه وتوضيحه :

التوضيح والبيان

قوله : (وكل أحد يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ)، يبنى عليه أمران مهمان لا بد من معرفتهما ذكرهما الشهيد البنا رحمه الله بقوله :

١ ـ (وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع).

٢ ـ (ولكنا لا نعرض للأشخاص فيما اختلف فيه بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا).

---

(١) الفتاوى لابن تيمية جـ٣ ص١٥٧.

فقـوله: (وإلا فكتـاب الله وسنة رسـوله أولى بـالاتباع) قلت: بل أوجب وألـزم ولا خيار لمؤمن ولا مؤمنـة في ذلك قال تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنـة إذا قضى الله ورسـولـه أمـراً أن يكـون لهم الخيـرة من أمـرهم**﴾. الاحزاب: ٣٦.

واعلم أنه ليس أحد من الأئمـة والمقبولين عنـد الأمة قبـولاً عامـاً يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته دقيق أو جليـل فإنهم متفقـون اتفاقـاً يقينـاً على وجوب اتبـاع الرسـول ﷺ وعلى أن كل أحـد من الناس يؤخـذ من قوله ويترك إلا الرسول ﷺ. ولكن إذا وجد لـواحد منهم قـول قد جـاء حديث صحيح بخلافه فلا بد أن يكون لـه من عذر في تـركه، وجميـع الأعذار ثـلاثة أصناف:

أحدهما: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.
الثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.
الثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

وهذه الأصناف تتفرع إلى أسباب متعددة تزيد على العشرة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه رفع الملام عن الأئمة الأعلام فليرجع إليه.

وهذان الأمران المشـار إليهما في كـلام الشهيد البنـا رحمه الله ذكـرهما ابن القيم في كتابه اعلام الموقعين تحت عنوان تنزيه الشريعة فيقول:

الأول: النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ودينـه وتنزيهـه عن الأقوال البـاطلة الناقصة ـ لما بعث الله به رسوله من الهدى والبينات ـ التي هي خلاف الحكمة والمصلحة والعدل والرحمة وبيان نفيها عن الـدين وإخراجهـا منه وإن أدخلـها فيه من أدخلها بنوع تأويل.

والثاني: معرفة فضل أئمـة الإسلام ومقـاديرهـم وحقـوقهـم ومراتبهم وأن فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ولرسوله لا يوجب قبول كل ما قالوه.

ومـا وقع في فتـاويهم من المسائـل التي خفي عليهم فيهـا مـا جـاء بـه

الـرسول فقـالوا بمبلغ علمهم والحق في خـلافهـا لا يـوجب إخـراج اقـوالهم جملة. وتنقيصهم والوقيعة فيهم. ـ فهذان طرفان جائران عند القصد ـ وقصد السبيـل فيهمـا فـلا يؤثم ولا يعصم ولا نسلك فيهم مسلك الرافضة في علي ومسلكهم في الشيخين بـل نسلك مسلكهم أنفسهم فيمن قبلهم من الصحابـة فإنهم لا يؤثمونهم ولا يعصمونهم ولا يقبلون كل أقاويلهم ولا يبدرونهم.

ولا منافاة بين الأمرين لمن شرح الله صدره للإسلام وإنما يتنافيان عند أحد رجلين: جاهـل بمقدار الأئمـة وفضلهم أو جاهـل بحقيقة الشـريعة التي بعث الله بها رسوله ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الـرجل الجليـل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثـار حسنة وهـو من الإسلام وأهله بمكـان. قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور بل ومـأجور لاجتهـاده فلا يجـوز أن يتبع فيها ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين[١].

قلت وهذا الأدب الذي يجب أن تلتزم به الأمـة في حق سلفها وخـاصة علمائها هو الأدب الذي أدب به الله المؤمنين ووصفهم بقوله: **﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الـذين سبقونـا بالإيمـان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾**. . الحشر.

يقول القرطبي (والذين جاءوا من بعـدهم) يعني التابعين ومن دخـل في الإسلام إلى يوم القيامة[٢].

وبـذلـك يتضـح كـلام الشهيـد رحمـه الله بقـولـه: (ولكنـا لا نعـرض للأشخاص فيمـا اختلف فيه بـطعن أو تجريـح ونكلهم إلى نياتهم وقـد أفضوا إلى ما قدموا إليه)

والله أعلم.

---

(١) اعلام الموقعين جـ ٣ ص٣٥٣.

(٢) تفسير القرطبي جـ ١٨ ص٢١.

الأصل السابع

في الاجتهاد والتقليد والمذهبية

ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلة إمامه، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صدق من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر.

بين يدي هذا الأصل

١ - إن موضوع الاجتهاد والتقليد من المواضيع التي أكثر فيها أهل العلم الخلط خصوصاً بعد المائة الرابعة للهجرة، وقد كان الأمر فيها سهل وميسور لا تكلف ولا تشدّيد ولا إفراط ولا تفريط، فمن بين موجب للاجتهاد ومانع للتقليد ومشنع على أهله - ومن بين موجب للتقليد وساد لباب الاجتهاد فتحجر على واسع وجنى على الشريعة بتعطيل أحد خصائصها ومميزاتها. والمعتدل من التزم أدب السلف وسار على نهج الصحابة والتابعين وسائر القرون المفضلة المشهود لها بقول الرسول ﷺ (خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)[1]. من فتح باب الاجتهاد وعدم التشنيع على المقلدين المتبعين للمجتهدين من غير تعصب.

٢ - ونتج عن هذا الخوض المذموم أمور ما أغنى المسلمين عنها، من أخطرها التعصب المذموم لمن ليس بمعصوم أدى بالكثير إلى تعطيل مواهبه، وتجميد جهده ونشاطه من الاستفادة مباشرة من الكتاب والسنة وهما اللذان لا تنتهي أحكامهما على ما استحدث من أحداث وظهر من تصرفات سلباً وإيجاباً **﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾**. الأنعام: ٣٨.

والتساهل المشؤوم الذي جعل نصوص الكتاب والسنة لعبة لمن ليس لتحمل مسؤولياتها أهلاً من أدعياء العلم الذي تسلقوا جدرانه ولم يدخلوا إليه من أبوابه ولم يهتدوا إليها عن طريق حريته وخبرائه، فحملوا النصوص ما لم تحمل، والشريعة ما ليس منها فاصطدموا بالفطرة وتناقضوا مع الواقع وما كان دين الله يوماً من الأيام كذلك **﴿ألا يعلم من**

---

(١) صحيح البخاري: ٢/٥.

خلق وهو اللطيف الخبير﴾. الملك: ١٤.

٣ ـ وما أجمل التوسط والاعتدال اللذان هما ميزة هذا الدين وصفة أهله ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾. البقرة: ١٤٣. ووزن الأمور والأحكام بما فطر الله عليه العباد من مواهب وخصائص وتفاوت في المدارك والمراعاة للواقع برعاية المصالح وتجنب المفاسد كما هو مبنى الشرع وأساسه. وهكذا كان حال السلف الصالح رضوان الله عليهم في نظرهم للكتاب والسنة ومحاولة الفهم السليم لنصوصهما واستخراج الأحكام من مدلولهما وما كانوا يكلفون أنفسهم ما لا يستطاع، ولا يقصرون عن المستطاع خصوصاً في هذا الباب (باب الاجتهاد والتقليد).

٤ ـ إن دراسة الفقه الإسلامي أخطأ فيها أربعة: متعصب لا يرى الحق إلا في مذهبه وكاره الفقه من أصله، ورافض دراسة الكتاب والسنة من أجل الفقه ورافض الفقه بحجة الكتاب والسنة.

إن بعض الناس فرطوا في دراسة الكتاب والسنة من أجل الفقه، وبعض الناس طالبوا بالعودة إلى الكتاب والسنة وترك الفقه وكلا ذلك تفريط، فلا تعارض بين دراسة الكتاب والسنة ودراسة علوم الإسلام الأخرى إذا أخذت عن أصلها فعلى قدر علم الإنسان في الكتاب والسنة مع تقواه وصلاحه وعدالته تكون جودة فهمه للكتاب والسنة.

ولا شك أن أجود فهم للكتاب والسنة هو فهم الأئمة الأعلام الذين أجمعت الأمة على توثيقهم ولا يمكن أن يستغني عنهم إنسان أبداً في فهم الكتاب والسنة بل أي إنسان في عصر ما لا بد أن يكون عالة على فهومهم وهذا شيء لا ينكره إلا جاهل ما عرف شيئاً من واقعات الشريعة[1].

٥ ـ والزاماً بهذا التوسط والاعتدال، ورغبة ملحة لما كان عليه السلف في هذا

---

(١) جند الله ثقافة وأخلاقاً ١١٧.

الباب من فهم سليم وأسلوب حكيم وتجنباً عن الانزلاق الذي وقع فيه الكثير مما ذكرنا، وعودة بالأمة المعاصرة إلى الجادة والمعين الصافي والأخذ عن مصادره وتحصينها من الأخطاء الذي وقع فيها أولئك الأصناف الأربعة في الفقه والاستنباط. فقد وضع الشهيد البنا رحمه الله هذا الأصل وهذا بيان ذلك وتوضيحه.

التوضيح والبيان

يقول الشهيد البنا رحمه الله (ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين).

قوله (درجة النظر) هي درجة الاجتهاد: وهي الدرجة التي لا تبيح للمسلم التقليد في أمور الدين وتلزمه بالاستقلالية في أخذ الأحكام مباشرة من النصوص حسب القواعد المتفق عليها للأخذ أو الاستنباط أو الاستخراج.

والاجتهاد لغة: بذل الجهد في استفراغ الوسع في فعل، ولا يستعمل إلا فيما فيه جهد ومشقة ومنه قوله تعالى: **﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾**[١]. التوبة ٧٩.

وفي اصطلاح أهل الأصول: بذل الفقيه وسعه في الأدلة لأجل أن يحمل له الظن أو القطع بأن حكم الله في المسألة كذا.

والأصل في الاجتهاد قوله تعالى: **﴿يحكم به ذوي عدل منكم﴾** المائدة ٩٥. وقوله تعالى: **﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً﴾**. الأنبياء: ٧٨/٧٩ وقوله ﷺ (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر... الحديث)[٢] وقوله ﷺ حين قال له: أجتهد

---

(١) مذكرة أصول الفقه ص٣١١ للشنقيطي.

(٢) صحيح البخاري: ١٣٢/٩ وصحيح مسلم ١٤٣/٣ رقم ١٥.

رأيي بعد أن لم يجد في كتاب الله ولا سنة رسول قال له: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي رسول الله)[1] والمجتهد: هو من اتصف بصفات الاجتهاد من صحة الإيمان، وفهم مقاصد الشريعة على كمالها وتمكن من الاستنباط بناء على فهمه منها[2]. وحوى خمسة أنواع من العلم: علم كتاب الله عز وجل وعلم سنة رسوله ﷺ وأقاويل علماء السلف من إجماعهم واختلافهم، وعلم اللغة، وعلم القياس، وهو طريق استنباط الحكم من الكتاب والسنة إذا لم يجده صريحاً في نص الكتاب أو السنة أو إجماع.

والاجتهاد خصيصة من خصائص الشريعة الإسلامية وهو باب لا يغلق إلا بقيام الساعة أما التقليد فهو ضرورة يلجأ إليها العامة المبتدئون ويحاول التخلص منها المتعلمون ويمتنع عن الوقوع فيها العلماء والمجتهدون. وفي ذلك رحمة لأمة الإسلام وخروج بها عن الوقوع في الحرج (ما جعل عليكم في الدين من حرج) الحج ٧٨.

ومحل الاجتهاد ومجاله: أدلة الأحكام الشرعية الفرعية العلمية فلا اجتهاد في القضايا العقلية واللغوية ولا القضايا العقائدية المتعلقة بأصول الدين مثل الإيمان بالله وبالرسل وبالكتب وباليوم الآخر والقضاء والقدر وما يتعلق بها من أصول للعقائد، ولذلك لا اجتهاد فيما كان دليله قطعياً أو ما هو معلوم من الدين بالضرورة كالعبادات الخمس والزكاة وصوم شهر رمضان والحج، وتحريم الزنى والربا وشرب الخمر وما أشبه ذلك.

إذ أن هذه الأمور مما يجب علمه حسب النصوص الواردة فيه ودلالتها عليه ولأن المخطىء فيها يعد آثماً. كما أنه لا يجوز التقليد فيها لأن الناس كلهم يشتركون في إدراكه والعلم به فلا معنى للتقليد فيه، أما ما عدا ذلك من الأحكام التي لا تعلم إلا بالنظر والاستدلال كفروع العبادات والمعاملات

---

(١) سنن أبي داود ٢/٣٧٢.

(٢) الموافقات جـ ٤ ص ١٠٥ للشاطبي.

والفروج والمناكحات وغير ذلك من الأحكام التي يخطىء فيها باجتهاده لا يكون آثماً فهذا هو مجال الاجتهاد وهو المعني بقول الشهيد البنا رحمه الله (في أدلة الأحكام الفرعية).

والناس في هذه الأحكام الفرعية العملية على ثلاث أقسام[1]:

إنسان وصل إلى رتبة الاجتهاد فمكلف في السير على ما يوصله إليه اجتهاده وإنسان عالم بمصادر القول وموارده ولم يصل إلى رتبة الاجتهاد فمكلف أن يسير على رأي من اقتنع أن معه الحق من الأئمة.

وإنسان عامي عادي فله أن يتابع أي إمام من الأئمة فمن سأله فأفتاه له أن يعمل بفتواه، إن كان من أهل الفتوى والهدى ومن ثم قال العلماء: العامي لا مذهب له، وقالوا مذهبه مذهب من أفتاه، وبذلك يتضح قول الشهيد البنا رحمه الله للصنف الأخير من الناس: (أن يتبع إماماً من ائمة الدين) والأئمة جمع إمام وهو المقتدى به في الدين وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿**واجعلنا للمتقين إماماً**﴾. الفرقان: ٧٤.
قال ابن عباس والحسن والسدي: أئمة يقتدى بنا في الخير، وقال غيرهم هداة مهتدين دعاة إلى الخير[2].

وكذلك الصنف الثاني إلا أنه أرشده بقوله (ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلة إمامه وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صدق من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر) وهو الاجتهاد.

«ولا غرابة أن يوجد في هذه الأمة مجتهدون وأن يوجد علماء في مذاهب هؤلاء المجتهدين يفتون ويفقهون على مذاهبهم، وأن يوجد بعد ذلك عامة يفقهون على مذهب إمام أو أن يأخذ بفتوى أي إمام مجتهد.

---

(١) انظر الأحكام في أصول الأحكام للآمدي جـ ٤/٢٢١.
(٢) تفسير مختصر ابن كثير جـ ٧/٦٤٢.

وشيء عـادي بل من الأسهـل الميسر للعـامي أن يعتمد إمـاماً مجتهـداً ويتفقـه على مذهبـه حتى لايضيع في خضم الأقـوال المتعددة، فالتفقه على مذهب واحد أسهل على الإنسان،وأقرب لتفقهه وأبعد عن ضياعـه وأجدى أن يعرف كيفية البحث عن المسألة التي يحتاج إلى معرفة حكمها، وكما أن ذلك أسهل على العامي فهو أسهل على المتعلم في بداية تلقيـه وأخذه»[1] شـريطة ألا يتعصب لرأي ذلك الإمام متى وجد الدليل الحق إلى خـلافه أو أرشـد إليه ممن هو كفؤ وأهل لذلك. وهـذه المعاني هي التي دل عليهـا الكتاب والسنـة والإجماع.

أما الكتاب فيقول تعالى ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ وهو عام لكل المخاطبين ويجب أن يكون عاماً في السؤال عن كل ما لايعلم.

أما السنة: فقصة العسيف ـ روى البخاري في صحيحـه عن قصة الرجل الذي كان عسيفاً على رجل فزنى بإمرأته وفيها: فاستفتيت أهل العلم في ذلك فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام)[2] الحديث هذا القول قاله الـرجل للرسـول ﷺ ولم ينكر عليـه ذلك فـدل هذا على أن على الجـاهل أن يسأل عما يجهل وليس عليه أن يتعلم حتى يصل إلى الاجتهاد.

وأما الإجماع: فهو أنه لم تزل العامـة في زمن الصحابـة والتابعين قبـل حدوث المخالفين يستفتون المجتهدين ويتبعونهم في الأحكام الشرعية.

والعلماء منهم يبادرون إلى إجابة سؤالهم من غير إشارة إلى ذكر الدليل ولا ينهونهم عن ذلك من غير نكير[3]. فكان إجماعـاً على جواز اتبـاع العامي للمجتهد مطلقاًـ يقول ولي الله الـدهلوي: وهذا قـد اتفقت الأمة على صحتـه في ما بعد قرن ـ بل الأمم كلها اتفقت على مثله في شرائعهم[4].

أما المعقول: فقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن جعـل الاجتهاد ملكـة

---

(١) انظر جولات في الفقهين الكبير والأكبر ٧١/٧٤.

(٢) صحيح البخاري ٩/٩٤.

(٣) عقد الجيد ٩٨.

(٤) الآمدي: الاحكام في أصول الأحكام ٤/٢٠٨.

وقدرة على استنباط الأحكام الفرعية الشرعية من أدلتها وإن لم يمنحها لجميع عباده. بل لمن اصطفاهم من خلقه. وقليل ما هم ـ وعلى هذا ـ فالاجتهاد ليس في استطاعة كل واحد من خلقه. فإذا كلف به من لايقدر عليه كان ذلك تكليفاً بما ليس في وسعه والتكليف بما ليس في الوسع لا يجوز لقوله تعالى ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾ البقرة/٢٨٢ على أن الاجتهاد لا بد له من التوافر على تحصيل العلوم اللغوية والشرعية وقواعد الشريعة وهذا يحتاج إلى زمن طويل فلو اشتغل الناس به جميعاً لاقتضى حتماً الاشتغال عن المعايش وتعطيل الحرب والمصانع وخراب الدنيا وفساد الكون وغير ذلك مما يقوم عليه نظام الاجتماع ويبنى عليه إقامة العمران وفي هذا من الحرج والإضرار المنهي عنه في قوله تعالى: **ما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ الحج/٧٨ وقوله ﷺ (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) وهو عام في كل حرج وضرر وضرورة كونه نكرة في سياق النفي.

ويستأنس لهذا بأنه معقول في قول تعالى: ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾. التوبة ١٢٢.

واعلم أن التقليد يكاد يكون عند جميع العلماء المعتد بأقوالهم قديماً وحديثاً غير مرضي به خاصة للمتعلمين والعلماء إذ أن التقليد هو الأخذ بقول الغير من غير معرفة دليله وهذا في غير العامة ـ أما العامة فقد حكى ابن عبد البر عن اختلاف العلماء في أنهم يقلدون علماءهم وأنهم المرادون بقوله تعالى ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ النحل ٤٣ وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بخبره بالقبلة إذا أشكلت عليه فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين فلا بد له من تقليد عالم[1] ومما يروى عن الأئمة الأربعة في ذم التقليد، وعدم الاعتبار به وتشديدهم في

---

(١) انظر إيقاظ همم أولي الأبصار ٣٨.

النكيـر على من يعلم بـآرائهم من غيـر أن يعـرف دليلهم هـذه الـطائفــة من الأقوال:

١) الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه يقول: لاينبغي لمن لايعرف دليلي أن يفتي بكلامي وكان إذا أفتى يقـول: هذا رأي النعمـان بن ثابت ـ يعني نفسـه ـ وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب.

٢) الإمام مالـك بن أنس رضي الله عنه يقول: ما من أحـد إلا وهو مـأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صـاحب هذه الـروضة ـ يعني الـرسول ﷺ ـ ويقـول أنا بشـر أخطىء وأصيب فـانظروا في رأيي فمـا وافق الكتاب والسنـة فخذوا بـه ومالم يوافق فاتركوه.

٣) ويقول الإمام الشافعي رضي الله عنه: (إذا صح الحديث فهـو مذهبي) وفي رواية (إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فـاعملوا بالحـديث واضربـوا بكلامي الحـائط) وقال لأحـد تلاميـذه (. . . لا تقـلدني في كل مـا أقول وانـظر ذلـك لنفسك فإنه دين).

٤) الإمـام أحمد بن حنبـل رضي الله عنه يقول: (أنظروا في أمـر دينكم فـإن التقليد لغير المعصوم مذموم وفيه عمى البصيرة).

ولذا: فاللازم على العلماء والمتعلمين كما يقول الشهيد البنا (أن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر).

وأخيراً فإن ابن القيم رحمه الله قسم التقليد ثلاث أقسام:

ما يحرم القول فيه والإفتاء به، وإلى مايجب الصبر إليه، وإلى ما يسوغ في غير إيجاب.

والمحرم هو على ثلاث أقسام:

أحـدها: الاعـراض عما نـزل الله وعدم الالتفـات إليـه اكتفـاء بتقليـد الآباء.

الثاني: تقليد من لا يعلم المقلد انه أهل لأن يأخذ بقوله.

الثالث: التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد. والفرق بين هذا والنوع الأول أن الأول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة وهذا قلد بعد ظهور الحجة فهو أولى بالذنب.

وقال أن هذا القدر من التقليد هو مما اتفق السلف والأئمة الأربعة على ذمه وتحريمه وأما تقليد من بذل جهده في اتباع ما أنزل الله وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو أعلم منه فهذا محمود غير مذموم، ومأجور غير مأذور(١).

ويلخص شيخ الإسلام خاصة القول في مسألة الإجتهاد والتقليد فيقول: والذي عليه جماهير الأمة أن الإجتهاد جائز في الجملة والتقليد جائز في الجملة لا يوجبون الإجتهاد على كل أحد ويحرمون التقليد ولا يوجبون التقليد على كل أحد ويحرمون الإجتهاد وأن الإجتهاد جائز للقادر على الإجتهاد والتقليد جائز للعاجز عن الإجتهاد، فأما القادر على الإجتهاد فهل لا يجوز له التقليد؟ هذا فيه خلاف والصحيح أنه يجوز حيث عجز عن الإجتهاد، وإما لتكافؤ الأدلة وأما لضيق الوقت عن الإجتهاد، وأما لعدم ظهور دليل له فإنه حيث عجز سقط عنه وجوب ما عجز عنه وانتقل إلى بذله وهو التقليد كما لو عجز عن الطهارة بالماء، وكذلك العامي إذا أمكنه الاجتهاد في بعض المسائل جاز له الإجتهاد فإن الإجتهاد منصب يقبل التجزؤ والإنقسام، فالعبرة بالقدرة والعجز وقد يكون الرجل قادراً في بعض عاجزاً في بعض ولكن القدرة على الاجتهاد لا تكون إلا بحصول علوم تفيد معرفة المطلوب، فأما مسألة واحدة من فن فيبعد الاجتهاد فيها والله أعلم(٢).

وبهذه الإشارات واللطائف نكتفي في هذا الباب توضيحاً لما ذكره الشهيد البنا رحمه الله في هذا الأصل ومن أراد مزيداً من البيان في هذا الباب فعليه بالمراجع التالية:

(١) أعلام الموقعين ج ٢ ص ١٦٩.
(٢) فتاوى أبي تيمية ج ٢٠/٢٠٤.

(١) اعلام الموقعين لابن القيم .

(٢) الاحكام للآمدي .

(٣) القول المفيد للشوكاني .

(٤) عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد لولي الله الدهلوي .

(٥) ايقاظ همم اولى الأبصار للقلاني وغيرها من كتب علم الأصول .

الجزء الثاني



الأصل الثامن

الخلاف في الفروع وأدب المختلفين فيها

والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً للتفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب.

ين يدي هذا الأصل

١ ـ لقد أمر الله العباد أن يتفقوا ولا يختلفوا في الدين وأن يأتلفوا ولا يفترقوا فيما شرع الله، فقال تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾** آل عمران: ١٠٢، ١٠٣.

٢ ـ وحذر هذه الأمة من أن تقع فيما وقع فيه من سبقها من الأمم من الفرقة والاختلاف بعد أن جاءهم دين الله واضحاً بيناً **﴿لا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾** آل عمران (١٠٥).

٣ ـ إن الاختلاف المحذر من الوقوع فيه هو الاختلاف في ذات الدين **﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾** الشورى: ١٣ والاختلاف في أصوله الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع وذلك لأن الأصول الثابتة في الكتاب والسنة والإجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنها ومن دخل فيها كان من أهل الإسلام المحض وهم أهل السنة والجماعة[1] وما تنوعوا فيه من الأقوال والأعمال المشروعة فهو بمنزلة ما تنوعت فيه الأنبياء قال تعالى **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾** العنكبوت: ٦٩ وقال **﴿لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾** المائدة: ١٥، ١٦. وقال **﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في**

---

(١) فتاوى ابن تيمية جـ ١٩ ص١١٧.

السلم كافة﴾ البقرة: ١٠٨. والتنوع قد يكون في الوجوب تارة وفي الاستحباب تارة أخرى. ومن الوجوب ما هو فرض عين ومنه ما هو فرض كفاية والاستحباب منه ما هو أفضل مطلقاً ومنه ما ليس كذلك(١).

٤ ـ إن المختلفين على ثلاث مراتب:

الأولى هم الذين اختلفوا في ذات الدين أو في أصوله الثابتة بما هو معلوم من الدين بالضرورة فهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾** هود: ١١٨، ١١٩ ويشمل هذا اليهود والنصارى والمجوس ويشمل كذلك سائر الملحدين والكافرين وهذا الاختلاف هو الذي بعث الله النبيين ليحكموا فيه بين المختلفين **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** البقرة ٢١٣ والذين هداهم الله للحق هم المرحومون المستثنون في الآية الأولى بقوله **﴿إلا من رحم ربك﴾** هود: ١١٩ وهي أمة الإسلام.

المرتبة الثانية: وهي في أمة الإسلام الذين يجمعهم اسم ملة الإسلام في الجملة وهم الذين يقع منهم الاتفاق في أصل الدين ويقع الاختلاف في بعض قواعده الكلية فممكن أن تكون الآية تنتظم هذا القسم من الاختلاف ولذلك صح عنه صلى الله عليه وسلم أن أمته تفترق إلى بضع وسبعين فرقة، وأخبر أن هذه الأمة تتبع سنن من كان قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع وشمل ذلك الاختلاف الواقع بين الأمم قبلنا، ويرشح وصف أهل البدع بالضلالة وإيعادهم بالنار وذلك بعيد عن عام الرحمة(٢) ويشمل هذا أصل فرقة البدع والضلالة الاثنين والسبعين.

---

(١) المصدر السابق جـ ١٩ ص١٢١.

(٢) الاعتصام جـ ٢ ص١٦٩.

المرتبة الثالثة: وهو ما يعرض لأهل الاتفاق من الاختلاف لكن ليس في أصل الملة ولا في أصولها وكلياتها المعلومة من الدين بالضرورة وإنما يكون في فروعها وذلك أن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالاً للظنون وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق عليها عادة فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف فيها لكن في الفروع دون الأصول وفي الجزئيات دون الكليات فلذلك لا يضر هذا الاختلاف، وقد نقل المفسرون عن الحسن في هذه الآية **﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾** هود: ١١٩ قال أما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافاً يضرهم - يعني أنه في مسائل الاجتهاد التي لا نص فيها يقطع العذر بل لهم فيه أعظم العذر.

والشارع لما علم أن هذا النوع من الاختلاف واقع أتى فيه بأصل يرجع إليه وهو قوله تعالى: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾** النساء: ١٩ فكل اختلاف من هذا القبيل حكم الله فيه أن يرد إلى الله وذلك رده إلى كتابه وإلى رسوله ﷺ وذلك رده إليه إذا كان حياً وإلى سنته بعد موته وكذلك فعل العلماء رضي الله عنهم.

وأصحاب هذه المرتبة هم الفقهاء الذين اختلفوا في فروع الفقه مع اتفاقهم على أصول الدين يقول البغدادي: وقد علم كل ذي عقل من أصحاب المقالات المنسوبة إلى الإسلام أن النبي ﷺ لم يرد بالفرقة المذمومة التي (هي من أهل النار) فرقة الفقهاء الذين اختلفوا في فروع الفقه مع اتفاقهم على أصول الدين لأن المسلمين فيما اختلفوا فيه من فروع الحلال والحرام على قولين:

أحدهما: قول من يرى تصويب المجتهدين كلهم في فروع الفقه وفرق الفقه كلها عندهم مصيبون.

والثاني: قول من يرى في كل فرع تصويب واحد من المختلفين فيه وتخطئة الباقين من غير تضليل فيه للمخطئين فيه[1].

---

(١) الفرق بين الفرق.

قلت بل قد أثبت لـه أجر الاجتهـاد لقولـه ﷺ «إذا حـكم الحاكم فـاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله اجر واحد»[1].

إذا علمت ذلك فاعلم أن هذا الإجمال لمـا جاء في هـذا الأصل قـربنا بـه المقام ليصح لك مراد الشهيد البناء رحمـه الله بقولـه «الخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً للتفرق في الـدين ولا يؤدي إلى خصومـة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره».

بعـد هذا التـوضيح الإجمـالي لهذا الأصـل الثامن نعـود إلى التوضيـح والبيان لمفرداته وجمله فنقول:

التوضيح والبيان

قـولـه «الخـلاف الفقهي في الفـروع» احتـراز من الخـلاف العقـائـدي وكذلك الخـلاف في الأصول والكليـات لما بين النـوعين من فرق في الحكم كما عرفت مما سبق وأنه لا يسوغ الاختلاف في العقـائد والأصـول وفيما هـو معلوم من الدين بالضرورة وفي المجمع عليه.

وقوله «ليس سبباً للتفرقة في الدين» لأن المختلفين في الفروع لا يضلل أحدهما الآخر ولا يبدعه ولا يكفره أما الخلاف العقـائدي والأصـولي فإنـه من أسباب ذلك لما يحصل فيه من رمي كل بالضلالة والابتداع وهـو المعني بقول الرسول ﷺ «ستفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة»[2].

وكذلك «لا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء» لأن البغض في ميزان الشرع لا يكون إلا من أجل الله وذلك حين تنتهك حرمة الله عز وجل أو تترك فريضة

---

(١) صحيح البخاري: ١٣٢/٩ صحيح مسلم: ١٣٤٣/٣ رقم ١٥.

(٢) سنن ابن ماجه: ١٣٢٢/٢ وسنن أبي داود: ٥٠٣/٢ اللفظ لابن ماجه. وفي الزوائد. إسناده صحيح. رجاله ثقات.

له ولا شيء من ذلك هنا بل إن هذا مما شرع الله ورسوله وهو الاجتهاد وقد بين الرسول ﷺ «أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب له أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»[1] وإلى هذا المعنى أشار الشهيد البنا رحمه الله في هذا النوع من الاختلاف بقوله «ولكل مجتهد أجره» وإن وقع شيء من ذلك إنما سببه التعصب الأعمى المذموم أو الجهل بمقاصد الشرع ومراميه.

ويؤيد هذا المفهوم وقوعه قطعاً ممن حصل لهم محض الرحمة وهم الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان رضي الله عنهم بحيث لا يصح إدخالهم في قسم المختلفين بوجه فلو كان المخالف منهم في بعض المسائل معدُوداً من أهل الاختلاف ـ ولو بوجه ما ـ لم يصح اطلاقاً القول في حقه إنه من أهل الرحمة وذلك باطل بإجماع أهل السنة.

بل قد أُقروا على ذلك من رسول الله ﷺ بل ومن القرآن الكريم ومن أمثلة ذلك اجتهاد الصحابة في قطع اللينة وتركها واجتهادهم في صلاة العصر لما بعثهم النبي ﷺ إلى بني قريظة فصلى قوم في الطريق في الوقت وقالوا إنما أراد التعجيل لا تفويت الصلاة. وأخرها قوم إلى أن وصلوا صلوها بعد الوقت تمسكاً بظاهر لفظ العموم فلم يعنف النبي ﷺ واحدة من الطائفتين وقال ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»[2].

وقد اتفق الصحابة في مسائل تنازعوا فيها على إقرار كل فريق للفريق الآخر على العمل باجتهادهم كمسائل في العبادات والمناكح والمواريث والقضاء والسياسة وغير ذلك وحكم عمر أول عام في الفريضة الحمارية بعدم التشريك وفي العام الثاني بالتشريك في واقعة مثل الأولى ولما سئل عن ذلك قال تلك على ما قضينا وهذه على ما نقضي وهم الأئمة الذين ثبت بالنصوص

---

(١) انظر صحيح البخاري: ١١٣/٥.

(٢) سنن أبي داود ٢٦٨/٢ وهو في البخاري ومسلم.

أنهم لا يجتمعـون على باطـل ولا ضـلالـة ودل الكتـاب والسنـة على وجـوب متـابعتهم وتنازعـوا في مسائـل علمية اعتقـاديـة كسمـاع الميت صـوت الحي وتعذيب الميت ببكاء أهله ورؤية محمد ﷺ ربه مثل الموت مع بقاء الجماعـة والألفة وهذه المسائل منها ما أحـد القولين خـطأ قطعـاً ومنها مـا المصيب في نفس الأمر، واحـد عنـد الجمهـور اتبـاع السلف والآخـر مؤد لمـا وجب عليـه بحسب قوة إدراكه[1].

بل إن جماعة من السلف الصالح جعلوا اختلاف الأمة في الفروع ضرباً من ضروب الرحمـة روي ذلك عن القـاسم بن محمد وعمـر بن عبد العـزيز. روى ابن وهب عن القاسم قال: لقد أعجبني قول عمر بن العزيـز ما أحب أن أصحاب محمد ﷺ لا يختلفون لأنه لو كان قولاً واحداً لكان النـاس في ضيق وإنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان سنة[2].

ومع تقرير هذه الحقيقة في هذا الأصل فقد أرشد الشهيد البنا رحمه الله إلى أدب يجب أن يتحلى به المجتهد عند التحقيق في أمـر من أمور الخـلاف الفرعي كان عليه الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان في أمر لا بد أن يكـون حاصلاً وواقعاً من أهل الحق والانصـاف فقال «ولا مـانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعـاون على الوصـول إلى الحقيقة من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب».

نعم إنه أدب يجب أن يتحلى به كـل طالب علم يـريـد الـوصـول إلى الحقيقـة عن طريق الـوسائـل العلمية والأدلـة الشرعيـة من غيـر تحـامـل على المخـالف ولا بغية الاستعـلاء عليه ولأهميـة هذا الأدب فـلا بد من تـوضيحـه وبيانه .فالتحقيق- هو البحث عن شيء ما حتى يصل إلى حقيقة صوابـاً كان أو خطأ ليحصل به التصديق وينتفي به الشك، يقـال تحقق عنده الخبـر أي صح وحققت قوله وظنه تحقيقاً صـدقت، وكلام محقق أي رصين قال الراجز:

---

(١) الفتاوي الكبرى جـ ١٢٢/١١ .

(٢) الفتاوي الكبرى جـ ١٢٢/١٩ .

دع ذا وحبر منطقاً محققا[1].

والمراد به هنا البحث عن الحكم الشرعي المختلف فيه بأحد الأمرين:

الأول: النظر في الأدلة المتوافرة مباشرة مستخدماً المبادىء والقواعد المعتبرة عن أهل العلم التي يلزم الباحث الاستعانة بها للوصول إلى الحقيقة في ذلك الحكم، إن كان أهلاً لذلك.

وقد سبق الكلام عليها وبمقدار ما يلتزم الباحث بهذه المبادئى والقواعد يكون تحقيقه متصفاً بكونه «علمياً» له حظ من الاعتبار وجدير بالتقدير عند أهل العلم.

الثاني: بمسائلة أهل العلم ومناظرتهم في ذلك الحكم ملتزماً بأدب المناظرة وشروطها القائمة على النزاهة المتمثلة في التجرد للحقيقة والالتزام بالموضوعية وذلك لأن الحق مطلوب والتعاون على النظر في العلم وتوارد الخواطر فيه معتد به وكان يفعله صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم في مشاورتهم كتشاورهم في مسألة الجد والاخوة وحد شرب الخمر، ووجوب العزم على الإمام إذا أخطأ كما نقل من إجهاض المرأة جنينها خوفاً من عمر رضي الله عنه وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها.

وسلك على ذلك من تبعهم بإحسان من الأئمة المجتهدين كأمثال الشافعي وأحمد ومحمد بن الحسن ومالك وأبي يوسف وغيرهم من العلماء رحمهم الله.

قوله «في مسائل الخلاف » احتراز من مسائل الاعتقاد لأنها من المعلومة من الدين بالضرورة وأدلتها قطعية الثبوت والدلالة، وقد أجمع أهل السنة والجماعة أن لا مناظرة فيها إلا إن اقتضتها ضرورة رد الابتداع ودحض الباطل ووقاية العامة من الفتنة. يقول ابن عبد البر رحمه الله «أما الفقه فقد أجمعوا على الجدال فيه والتناظر لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع على الأصول

(١) الصحاح للجوهري: ١٤٦١/٤.

للحاجة إلى ذلك. وليس الاعتقادات كذلك لأن الله عز وجل لا يوصف عند الجماعة ـ أهل السنة ـ إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله ﷺ أو أجمعت الأمة عليه وليس كمثله شيء فيدرك بقياس أو بإمعان النظر، وقد نهينا عن التفكير في الله وأمرنا بالتفكر في خلقه الدال عليه، والدين قد وصل إلى العذراء في خدرها والحمد لله[1].

وإذا كان التحقيق العلمي عن طريق المناظرة سائغاً وغير ممنوع فاعلم أن شروطاً وآداباً يلزم التحقق بها ممن يريد الاستفادة منها فهي بعد ابتغاء وجه الله والوصول إلى الحقيقة.

(١) أن لا يقدمها على فرض عين أو فرض كفاية تلزمه أَقْدَمُ منها في ميزان الشرع لأن هذه أولويات اعتبرها الشارع الحكيم. وقد قيل من عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فقد كذب.

(٢) أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً. لأن الصحابة ما تشاوروا إلا في ما تجدد من الوقائع أو ما يغلب وقوعه كالفرائض.

(٣) أن تكون المناظرة في خلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر والسلاطين فإن الخلوة أحب لله وأحرى بصفاء الذهن والفكر لإدراك الحق وفي حضور الجمع ما يحرك دواعي الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقاً كان أو مبطلاً.

(٤) أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يديه أو يد من يعاونه ويرى رفيقه معيناً لا خصماً ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر الحق كما كان صحابة رسول الله ﷺ كما حصل في حق عمر والمرأة وقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر[2].

وكقول علي رضي الله عنه لسائل أجابه علي فقال له ليس كذلك يا أمير

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/٩٢.

(٢) إحياء علوم الدين: ١/٧٢.

المؤمنين ولكن كذا وكذا فقال: أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم.

وكقول أبي موسى رضي الله عنه حينما أستدرك عليه ابن مسعود رضي الله عنه فيمن قتل في سبيل الله: لا تسألوني وهذا الحبر بين أظهركم[(١)].

ولقد قال الشافعي رحمه الله: «ما باحثت أحداً فاخترت أن يكون الحق يجري على لساني ليس إلا وإنما قصدي أن يظهر الله الحق على لسان من شاء من ألسنتنا».

(٥) أن لا يمنع معينه في النظر أن ينتقل من دليل إلى دليل ومن اشكال إلى اشكال فهكذا كانت مناظرات السلف.

(٦) أن يناظر من يتوقع منه الاستفادة ممن هو مشتغل بالعلم. وبالتزام هذه الآداب والشروط يحافظ على الحب في الله، ويتحقق التعاون على الوصول إلى الحقيقة ويتجنب المساوىء المحذر منها في هذا الباب وهو المراء المذموم والتعصب القبيح.

وذلك أن المراء المذموم هو الجدل الذي نهى عنه رسول الله ﷺ وحذر منه بقوله «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل[(٢)] ثم قرأ **﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾**[(٢)] وفي حديث آخر في معنى قوله تعالى **﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾** «الآية» هم أهل الجدل الذين عناهم الله بقوله **﴿فاحذروهم﴾**[(٣)] ولقد ندب رسول الله ﷺ إلى ترك المراء ولو على حق في قوله «من ترك الكذب وهو مبطل بنى له قصر في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بني له بيتاً في وسطها»[(٤)].

---

(١) بهجة النفوس: ١.

(٢) جامع الترمذي: ١٣٢/١٢ من عارضة الأحوذي.

(٣) انظر سنن ابن ما جه: ١٩/١ بلفظ (يا عائشة إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله فاحذروهم). وفي رواية (الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم) انظر البخاري ٤٢/٦١ ومسلم ٢٠٥٣/٤ رقم (١).

(٤) سنن أبي داود: ٥٥٣/٢ جامع الترمذي: ١٥٩/٨٠ من عارضة الأحوذي وسنن ابن ماجه: ١٩/١ واللفظ له.

أما التعصب فقد وصفه الغزالي بقوله «هو من آفات العلماء السوء فإنهم يبالغون في التعصب للحق، وينظرون للمخالفين بعين الإزدراء والاستحقار فشيعت فيهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوافر بواعثهم على طلب نصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير لأنجحوا فيه، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالأتباع ولا يستميل الاتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم اتخذوا التعصب عادتهم والفهم وسموه ذباً عن الدين ونضالاً عن المسلمين وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس[1].

قلت هذا إذا كان في الحق فكيف إذا كان في الباطل ومن أهل الباطل فإن الخطر محقق فيه بل ممن ذم الله عز وجل أهله في أكثر من آية ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون**﴾ البقرة ١٧٠. وقوله ﴿**وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا**﴾ المائدة ١٠٤ هذا وفي القرآن شواهد كثيرة يذم فيها من أعرض عما أنزل الله وقنع بتقليد الآباء.

وذكر ابن القيم عن فتنة وكيد المتعصبين ما يندى له الجبين في قوله: تالله إنها فتنة عمت فأعمت ورمت القلوب فأصمت وربي عليها الصغير وهرم فيها الكبير واتخذ لأجلها القرآن مهجوراً وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطوراً ولما عمت به البلية وعظمت بسببها الرزية بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها ولا يعدون العلم إلاإياها فطالب الحق من مظانه لديهم مفتون ومؤثره على ما سواه عندهم مغبون. نصبوا لمن خالفهم في طريقهم الحبائل وبغوا له الغوائل ورموه عن قوس الجهل والبغي والفساد وقالوا لإخوانهم: ـ إنا نخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ـ فحقيق

---

(١) إحياء علوم الدين: ٦٨/١.

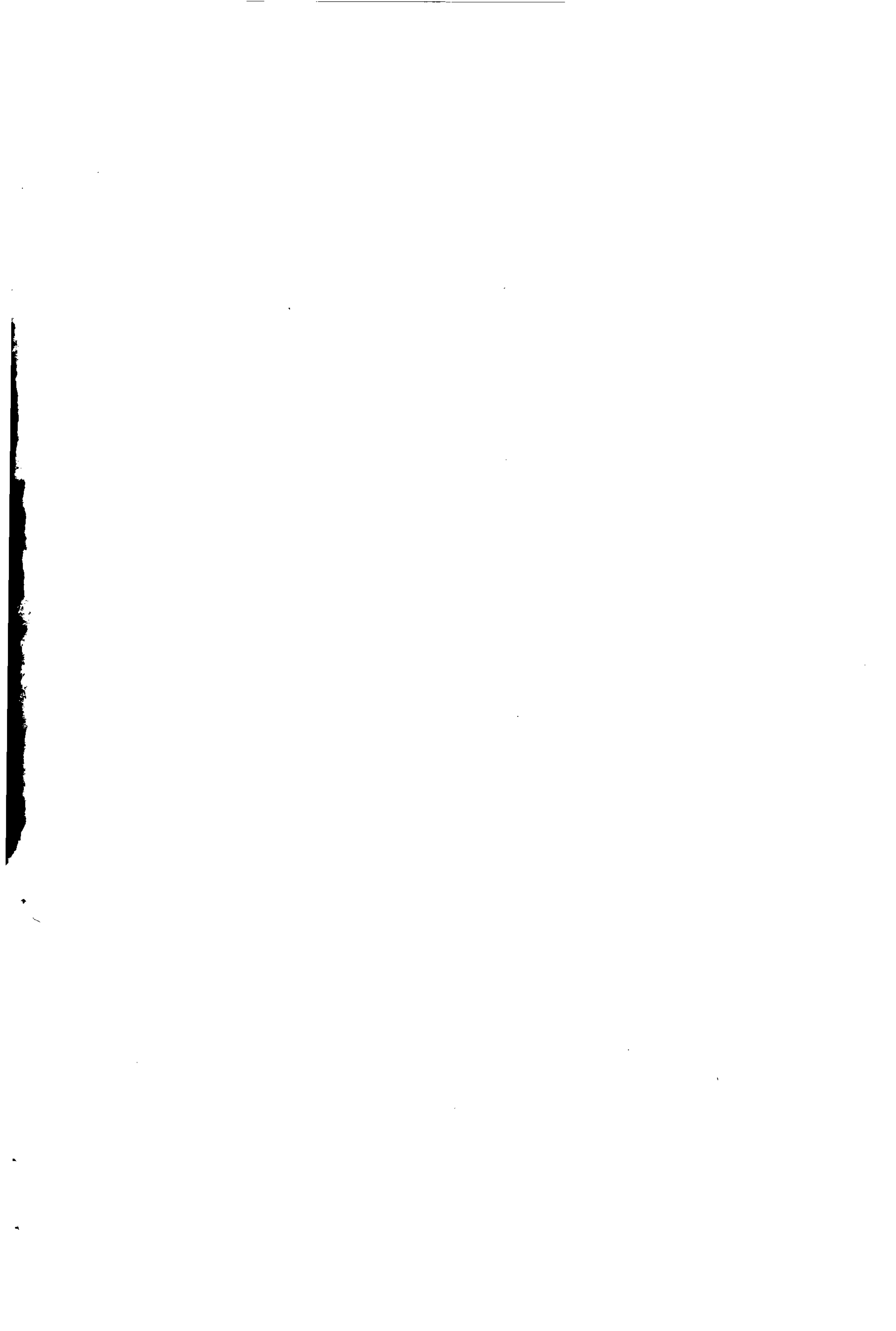
بمن لنفسه عنده قـدر وقيمة أن لا يلتفت إلى هؤلاء ولا يـرضى لها بمـا لديهم وإذا رفع له علم السنة النبويـة شمر اليـه ولم يحبس نفسه عليهم فمـا هي إلا ساعة حتى يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور وتتساوى أقدام الخلائق في القيـام لله وينـظر كـل عبـد مـا قـدمت يـداه ويقـع التمييـز بين المحقين والمبـطلين، ويعلم المعـرضـون عن كتـاب ربهم وسنـة نبيهم أنهم كـانـوا كاذبين[1].

وبذلك نكون قد عرفنا قيمة العبارة وخطورتها التي نبه عليها الشهيد البنا رحمه الله بقوله «من غير أن يجر إلى مراء مذموم أو تعصب».

والله أعلم.

---

(١) اعلام الموقعين: ١/٨.



الأصل التاسع

التكلف في دين الله محظور.

«وكل مسألة لا ينى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعاً. ومن ذلك:

(أ) كثرة التعريفات للأحكام التي لم تقع.

(ب) والخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد.

(جـ) الكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته وفي التأويل مندوحة».

بين يدي هذا الأصل

لسيد قطب رحمه الله كلام في هذا الموضوع صالح لأن يكون مقدمة بين يدي هذا الأصل. وهو زبدة فهم صحيح لمجموع الأحاديث والآيات الواردة في هذا الصدد أحببت أن أثبته هنا للفائدة مع تصرف في بعض كلامه. فأقول:

يقول سيد قطب رحمه الله: إن المعرفة في الإسلام إنما تطلب لمواجهة حاجة واقعة وفي حدود هذه الحاجة الواقعة، فالغيب وما وراءه تصان الطاقة البشرية أن تنفق في استجلائه واستكناهه، لأن معرفته لا تواجه حاجة واقعية في حياة البشرية وحسب هذا القلب البشري أن يؤمن بهذا الغيب كما وضعه العليم به. فأما حين يتجاوز الإيمان به إلى البحث عن كنهه، فإنه لا يصل إلى شيء أبداً، لأنه ليس مزوداً بالمقدرة على استكناهه إلا في الحدود التي كشف الله عنها فهو جهد ضائع فوق أنه ضرب في التيه بلا دليل يؤدي إلى الضلال البعيد.

ففي طول العهد المكي لم يتنزل حكم تنفيذي شرعي، وإن تنزلت الأوامر والنواهي عن أشياء وأعمال ـ ولكن الأحكام التنفيذية كالحدود والتعازير والكفارات لم تنزل إلا بعد قيام الدولة المسلمة التي تتولى تنفيذ هذه الأحكام.

ووعى الصدر الأول هذا المنهج واتجاهه، وفي حدود القضية فلم يكونوا يفتون في مسألة إلا إذا كانت وقعت بالفعل وفي حدود القضية المعروضة دون تعصب للنصوص، ليكون للسؤال والفتوى جديتهما وتمشيهما كذلك مع ذلك المنهج التربوي الرباني.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يلعن من سأل عما لم يكن. ذكره الدارمي في مسنده[1]، وذكر عن الزهري قال: بلغنا أن زيد بن ثابت الأنصاري كان يقول إذا سئل عن الأمر: أكان هذا؟ فإن قالوا نعم قد كان حدث فيه بالذي يعلم، وإن قالوا: لم يكن قال: فذروه حتى يكون[2]. واستدعي عمار بن ياسر وقد سئل عن مسألة فقال: هل كان هذا بعد؟ قالوا لا. قال: دعونا حتى يكون فإذا كان تجشمناها لكم[3]. وقال الدارمي: حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة قال: حدثنا ابن فضيل عن عطاء عن ابن عباس قال: ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاثة عشر مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن منهن ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام**﴾ ﴿**ويسألونك عن المحيض**﴾ أو شبهه. ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم[4].

وقال مالك: أدركت هذا البلد «يعني المدينة» وما عندهم علم غير الكتاب والسنة فإذا تنزلت نازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء فما اتفقوا عليه أنفذه، وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله ﷺ[5].

وقال القرطبي في سياق تفسيره للآية[6] ﴿**لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**﴾ روى مسلم عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنع وهات وكره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[7] قال كثير من العلماء: المراد بقوله وكثرة السؤال: التكثير من السؤال في المسائل الفقهية تنطعاً، وتكلفاً فيما لم ينزل والأغلوطات وتشقيق المولدات وقد كان السلف يكرهون ذلك ويرونه من التكلف ويقولون إذا نزلت النازلة وفق المسؤول لها».

---

(١) سنن الدارمي: ١/ ٥٠.
(٢) سنن الدارمي: ١/ ٥٠.
(٣) سنن الدارمي: ١/ ٥٠.
(٤) سنن الدارمي: ١/ ٤٩.
(٥) و (٦) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٣٢.
(٧) صحيح مسلم: ٣/ ١٣٤١ رقم ١٤ وهو في صحيح البخاري.

إنه منهج واقعي جاد يواجه وقائع الحياة بالأحكام المشتقة لها من أصول شريعة الله مواجهة عملية واقعية. . مواجهة تقدر المشكلة بحجمها وشكلها وظروفها كاملة وملابستها ثم تقضي فيها بالحكم الذي يقابلها ويغطيها ويشملها وينطبق عليها انطباقاً كاملاً دقيقاً.

فأما الاستفتاء عن مسائل لم تقع، فهو استفتاء عن فرض غير محدود، وما دام غير واقع، فإن تحديده غير مستطاع، والفتوى عليه حينئذ لا تطابقه لأنه فرض غير محدد، والسؤال والجواب حينئذ يحملان معاً معنى الاستهتار بجدية الشريعة، كما يحملان مخالفة المنهج الإسلامي القويم.

إن هذا الدين جد وقد جاء ليحكم الحياة، جاء ليعبد الناس لله وحده وينتزع من المغتصبين لسلطان الله هذا السلطان فيرد الأمر كله إلى شريعة الله لا إلى شرع أحد سواه، وجاءت هذه الشريعة لتحكم الحياة كلها ولتواجه بأحكام الله حاجات الحياة الواقعية وقضاياها ولتدلي بحكم الله في الواقعة حتى تقع بقدر حجمها وشكلها وملابساتها.

ولم يجىء هذا الدين ليكون مجرد شارة وشعار، ولا تكون شريعته موضوع دراسة نظرية لا علاقة لها بواقع الحياة ولا لتعيش مع الفروض التي لم تقع وتضع لهذه الفروض الطائرة أحكاماً فقهية في الهواء. .

هذا هو جد الإسلام، وهذا هو منهج الإسلام، فمن شاء من علماء هذا الدين أن يتبع منهجه بهذا الجد فليطلب تحكيم شريعة الله في واقع الحياة أو على الأقل فليسكت عن الفتوى والقذف باحكام في الهواء[1].

تلك هي مقدمة هذا الأصل وسيأتي مزيد بيان وتوضيح في ثنايا التفصيل عن فقرات الأصل ونحن نوضحه ونبينه فإلى التوضيح والبيان فنقول:

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٨٧ ـ ٩٨٨.

التوضيح والبيان

قوله «وكل مسألة لا ينبني عليها عمل» المراد بالعمل هنا عمل القلب والجوارح لأنهما موضع الطلب شرعاً.

والمسائل على قسمين:

الأول: قسم ينبني عليها عمل وهي مما تعبد الله بها عباده بمقتضى الخطاب الشرعي أو الوضعي فهذا مما يجب على المسلم معرفتها تعلماً، وسؤالاً لأهل العلم، ومراجعة لهم وتفقهاً لفروعها إلى غير ذلك مما تحتاجه المعرفة ويتطلبه العلم السابق بيانه وإيضاحه وهذا القسم هو الذي وردت فيه الآيات والآثار في الخوض فيه أمراً، وترغيباً وبياناً لفضله وفضل طالبه ـ إلى غير ذلك مما هو متعلق بهذا المقام.

الثاني: ما لا ينبني عليها بأن كانت من باب العقائد التي كلفت بها وليست من باب الفقهيات التي يحتاجها أو يعانيها المسلمون، وليست من باب السلوكيات ولا يتوقف عليها فهم نصوص الكتاب والسنة، وليست لازمة في أمر دنيا ودين، مثل هذه المسائل التي ذكرها الشهيد البنا رحمه الله وسيأتي توضيحها لا ينبغي أن تشغل فيها وقتاً لأنها لاتخرج عن كونها إتعاباً للأنفس والعقول وإضاعة للوقت في غير طائل بل لعلها داخلة في أخلاقيات المتفاصحين والمتقعرين والمتفيهقين وكل ذلك كما يقول الشهيد البنا رحمه الله «من التكلف الذي نهينا عنه شرعاً» قال تعالى ﴿**قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين**﴾ ص ٨٦ وقال ﷺ «أنا وصالحوا أمتي براء من التكلف»(١).

ولم يدل على استحسانه دليل شرعي كما يقول الشاطبي والدليل على ذلك:

---

(١) انظر في آفاق التعاليم ص٩٧ والحديث ذكره الغزالي في الإحياء كما في كشف الخفاء: ١/٢٣٥، وقال: قال النووي ليس بثابت. وأخرجه الدارقطني في الأفراد بسند ضعيف عن الزبير بن العوام مرفوعاً كما أنه ذكر له شواهد، وأحاديث أخرى بمعناه صحيحة فليرجع إليه.

١ ـ استقراء الشريعة في أن الشارع الحكيم يعرض عما لا يفيد عملاً مكلفاً به ولا يجيب إلا بما هو مكلف به الإنسان كما في السؤال عن الأهلة وعن الروح، وعن الساعة، وغيرها من الأسئلة التي كان القرآن الكريم يجيب السائل عما هو مكلف به لا على مقصوده.

٢ ـ أنه خوض فيما لا يعني المكلف لحديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[١] إذ لا ينبني على الخوض في هذه المسائل فائدة لا في الدنيا ولا في الآخرة. أما في الآخرة فلأنه يسأل عما أمر به أو نهي عنه، وأما في الدنيا فإن علمه بما علم من ذلك لا يزيده في تدبير رزقه ولا ينقصه، وأما اللذة الحاصلة عنه في الحال فلا تفي مشقة اكتسابها وتعب الطلب بلذة حصولها.

٣ ـ إن الشرع قد جاء ببيان ما تصلح به أحوال العبد في الدنيا والآخرة على أتم الوجوه وأكملها فما خرج عن ذلك قد يظن أنه على خلاف ذلك وهو مشاهد في التجربة العادية. فإن المشتغلين بالعلوم التي لا تتعلق بها ثمرة تكليفية تدخل عليهم فيها الفتنة والخروج عن الصراط المستقيم ويثور بينهم الخلاف والنزاع المؤدي إلى التقاطع والتدابر والتعصب حتى يتفرقوا شيعاً، وإذا فعلوا ذلك خرجوا من السنة، ولم يكن أصل التفرق إلا بهذا السبب حيث تركوا الاقتصار من العلم على ما يعني وخرجوا إلى ما لا يعني فذلك فتنة المتعلم والعالم[٢] وقد ذكر الشهيد البنا رحمه الله ثلاثة أمثلة يوضح بها هذا الأصل الهام في حياة المسلم وخاصة طالب العلم ورجل الدعوة الإسلامية فقال «ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع، والخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته، وفي التأول مندوحة».

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: ٩/ ١٩٦ من عارضة الأحوذي.
(٢) انظر الموافقات: ١/ ٥٠.

فهذه الثلاثة الأمثلة ليست كل ما حصر في هذا الباب، وإنما هي من أهم مسائله الخطيرة التي وقعت بسببها الأمة الإسلامية في خطر عظيم، استهدف دينها ومصادر شريعتها ووحدتها القائمة على الأخوة والائتلاف والالتزام بالسنة والبعد عن الخلاف. بل وردت نصوص تحذر من الخوض فيها ومجاراة أهل الهوى فيها. ولذلك سنوضح كل مثل بما يقتضيه المقام مبينين ما يندرج تحته من مسائل وما ليس منه أو مستثنى.

١ ـ قوله «كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع». لقد كان من أدب الصحابة رضوان الله عليهم أنهم لا يسألون عن شيء لم يقع، وذلك لأنهم تلقوا هذا الخطاب الرباني ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم عفا الله عنها والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين**﴾ المائدة: ١٠١ ـ ١٠٢.

وسمعوا قول نبيهم ﷺ «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المؤمنين فحرم عليهم من أجل مسألته». وقوله «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك الذين من قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فاتخذوا منه ما استطعتم»[١].

ولذلك فما كانوا يسألون رسول الله ﷺ إلا بما وقع وكان القرآن يرد عليهم أو الرسول ﷺ يبينه لهم بسنته. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن منهن. يسألونك عن الشهر الحرام ويسألونك عن المحيض أو قال: ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم[٢] قال ابن القيم: ومراد ابن عباس بقوله ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة، المسائل التي حكاها الله في القرآن عنهم وإلا فالمسائل التي سألوه عنها وبين لهم أحكامها

(١) جامع بيان العلم وفضله: ٢/١٤١.
(٢) سنن الدرامي: ١/٥١.

بالسنة لا تكاد تحصى ولكن إنما كانوا يسألون عما ينفعهم من الواقعات ولم يكونوا يسألونه عن المقدرات والأغلوطات وعضل المسائل، ولم يكونوا يشتغلون بتفريع المسائل وتوليدها بل كانت هممهم مقصورة على تنفيذ ما أمر به فإذا وقع بهم أمر سألوه عنه فأجابهم[1].

وكان صحابة رسول الله ﷺ يكرهون من يسأل عن ما لم يكن ويحذرونه من ذلك بل ولا يردون عليه. جاء رجل إلى ابن عمر رضي الله عنه فسأله عن شيء لا أدري ما هو فقال له ابن عمر: لا تسأل عما لم يكن فإني سمعت عمر بن الخطاب يلعن من يسأل عما لم يكن[2].

وذكر الزهري قال: بلغنا أن زيد بن ثابت الأنصاري كان يقول إذا سئل عن الأمر: أكان هذا؟ فإن قالوا: نعم قد كان حدث فيه بالذي يعلم وإن قالوا: لم يكن قال: فذروه حتى يكون[3].

وتبع الصحابة على هذا الأدب والالتزام التابعون رضوان الله عليهم.

عن القاسم قال: إنكم تسألون عن أشياء ما كنا نسأل عنها وتنقرون عن أشياء ما كنا ننقر عنها وتسألون عن أشياء ما أدري ما هي ولو علمناها ما حل لنا أن نتكتمكموها[4].

إذا علمت ذلك فاعلم أن المراد هنا «بكثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع» ليس على إطلاقه وإنما يشمل صعاب المسائل وعضلها، والأغلوطات فيها، وما لم يكن في باب التفقه في دين الله والاستنباط للأحكام من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وعلى ما كان يعتمد على الرأي المذموم والقياس الباطل كما حكى ذلك ابن عبد البر وحكاه عن جمهور العلماء وذلك لما ورد في هذه المسائل من آثار تنهى عن الوقوع فيها من ذلك.

---

(١) انظر اعلام الموقعين: ٢/٧٥.
(٢) سنن الدارمي: ١/٥٠.
(٣) سنن الدارمي: ١/٥٠.
(٤) سنن الدارمي: ١/٤٩.

عن معاوية رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الأغلوطات فسرها الأوزاعي قال: يعني صعاب المسائل وفي رواية عنه أنهم ذكروا المسائل عنده فقال: أما تعلمون أن رسول الله ﷺ نهى عن عضل المسائل».

وعن سهيل بن سعيد رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كره المسائل وعابها، وفي الحديث «سيكون في أمتي أقوام يتعاطى فقهاؤهم عضل المسائل أولئك شر أمتي»[1] وأخرجه الطبراني ورمز السيوطي إلى حسنه[2].

«أما ما كان من باب التفريعات الفقهية التي وقعت مسائلها خلال العصور واضطر العلماء للإجابة عليها فسجلوها، أو المسائل الفقهية التي يحتاجها واحد في الجيل الواحد فإنه ليس مقصوداً في هذا الأصل ولا تتناوله الأدلة في الحكم وذلك للأدلة الأخرى التي تطلب من المسلم أن يتفقه في دين الله، والقواعد العامة في الإسلام، التي توجب أن يكون في الأمة علماء متخصصون ترجع إليهم الأمة في معرفة الحلال والحرام فيما يسألونهم، من ذلك قوله تعالى **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾** وقول الرسول ﷺ «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[3] وقوله تعالى **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾** ولقد فهم علماء الأمة التابعون فمن بعدهم على أن هذه المسائل المشار إليها ليست من قبيل المسائل التي لا ينبني عليها عمل، بل فهمت أنها ضروزيات مربوطة بالفقه والتفقه في دين الله قال ابن مسعود رضي الله عنه: زيادة العلم الابتغاء ودرك العلم بالسؤال فتعلم ما جهلت واعمل بما علمت»[4] وقال ابن شهاب: العلم خزانة مفاتحها المسألة. وفي الحديث «شفاء العي السؤال»[5].

---

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله: ٢/١٣٩.
(٢) الجامع الصغير: ٢/٣٦.
(٣) متفق عليه.
(٤) جامع بيان العلم وفضله: ١/٨٧.
(٥) سنن أبي داود: ١/٨٢.

وقدم رجل على عبد الله بن المبارك وعنده أهل الحديث فاستحيى أن يسأل وجعل أهل الحديث يسألونه فنظر إليه ابن المبارك فكتب بطاقة ألقاها إليه فإذا فيها. إن تلبست عن سؤالك عبد الله ترجع غداً بخفي حنين

فأعنت الشيخ بالسؤال تجده سلساً يلتقيك بالراحتين
وإذا لم تصح صياح الثكالى قمت عنه وأنت صفر اليدين[1]

وإن الثروة الفقهية التي خلفها لنا أئمة الاجتهاد في القرون المفضلة من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وغيرهم لخير دليل على أن هذا القبيل من المسائل لا يدخل في مضمون هذا الأصل لأن هذه المسائل المنقولة عنهم ما جاءت إلا عن طريق التفريعات للمسائل والإجابات على الأسئلة.

قال ابن عبد البر: السؤال اليوم لا يخاف منه تحريم ولا تحليل من أجله فمن سأل مستفهماً وراغباً في العلم ونفي الجهل عن نفسه باحثاً عن معنى يجب الوقوف عليه فلا بأس به (فشفاء العي السؤال) ومن سأل متعنتاً غير متفقه ولا متعلم فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره[2].

وقال الحافظ: قال بعض الأئمة: والتحقيق في ذلك أن البحث عما لا يوجد فيه نص على قسمين:

أحدهما: أن يبحث عن دخوله في دلالة النص على اختلاف وجوهها فهذا مطلوب لا مكروه بل ربما كان فرضاً على من يعين عليه من المجتهدين.

ثانيهما: أن يدقق النظر في وجوه الفروق بين متماثلين بفرق ليس له أثر في الشرع مع وجود الجمع أو بالعكس، بأن يجمع بين متفرقين بوصف طردي مثلاً فهذا الذي ذمه السلف وعليه ينطبق حديث ابن مسعود رفعه «هلك المتنطعون» أخرجه مسلم[3] فرأوا أن فيه تضييع

---

(١) جامع بيان العلم وفضله: ١/٩٠.
(٢) تفسير القرطبي: ٦/٣٣٣.
(٣) صحيح مسلم: ٤/٢٠٥٥ رقم ٧.

الزمان بما لا طائل تحته ومثل الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها لا في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع وهي نادرة الوقوع.

فيصرف فيها زماناً كان صرفه في غيرها أولى ولا سيما أن من لازم ذلك إغفال التوسع في بيان ما يكثر وقوعه. ومنها ما لم يكن له شاهد في عالم الحس كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هذه الأمة إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل الصرف والكثير منه لم يثبت فيه شيء فيجب الإيمان به من غير بحث، وأشد من ذلك ما يوقع كثرة البحث عنه في الشك والحيرة، ثم يقول: إذا تقرر ذلك فمن يسد باب المسائل حتى فاته معرفة كثير من الأحكام التي يكثر وقوعها فإنه يقل فهمه وعلمه، ومن توسع في تفريع المسائل وتوليدها ولا سيما فيما يقل وقوعه أو يندر ولا سيما إن كان الحامل على ذلك المباهاة والمغالبة فإنه يذم فعله وهو عين الذي كرهه السلف، ومن أنعم في البحث عن معاني كتاب الله محافظاً على ما جاء في تفسيره عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه الذين شاهدوا التنزيل وحصل من الأحكام ما يستفاد من منطوقه ومفهومه، وعن معاني السنة وما دلت عليه كذلك مقتصراً على ما يصلح للحجة منها فإنه الذي يحمد وينتفع به وعلى ذلك يحمل عمل فقهاء الأمصار من التابعين ممن بعدهم حتى حدثت الطائفة الثانية فعارضتها الطائفة الأولى فكثر المراء والجدال وتولدت البغضاء وتسموا خصوماً وهم من أهل دين واحد.

والواسط هو المعتدل من كل شيء وإلى ذلك يشير قوله ﷺ «فإنما أهلك الذين قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»[1] فإن الاختلاف يجر إلى عدم الانقياد وهذا كله من حيث تقسيم المشتغلين بالعلم.

وأما العمل بما ورد في الكتاب والسنة والتشاغل به فقد وقع الكلام في أيهما أولى والإنصاف أن يقال كلما زاد على ما هو في حق المكلف فرض عين فالناس فيه على قسمين: من وجد في نفسه قوة الفهم والتحرير فتشاغله

---

(١) صحيح مسلم: ٤/١٨٣٠ رقم ١٣٠.

بذلك أولى من إعراضه عنه وتشاغله بالعبادة لما فيه من النفع المتعدي.

ومن وجد في نفسه قصوراً فإقباله على العبادة أولى لعسر اجتماع الأمرين فإنّ الأول: لو ترك العلم لأوشك أن يضيع بعض الأحكام بإعراضه والثاني: لو أقبل على العلم وترك العبادة فاته الأمران لعدم حصول الأول له وإعراضه عن الثاني. والله الموفق(١).

المثال الثاني قوله «والخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن الكريم كما بين لهم ألفاظه فقوله تعالى **﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾** النحل: ٤٤ يتناول هذا وهذا.

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً(٢) ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة.

ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر(٣).

ولذلك فقد اتفق أهل التفسير أن أحسن طرق التفسير وأصحها أن يفسر القرآن بالقرآن، ثم بالسنة المرفوعة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين، وفي الأخير خلاف والجمهور على اعتماده إن تواطأوا عليه أو قال به الأكثر فإن تساوى الاختلاف فلا يكون بعضهم حجة على بعض ولا على من

---

(١) فتح الباري: ٣/٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٢) انظر حياة الصحابة: ٢/١٧٦.

(٣) انظر مقدمة في أصول التفسير: ٣٥.

بعدهم ويرجع في ذلك إلى اللغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك.

وهـذه المراتب هي التي تـطلق على مجملها عنـد أهل التفسيـر بـأنهـا التفسير المأثور وأنواع التفسير كما يقول ابن عباس رضي الله عنه أربعة حـلال وحرام لا يعذر أحد بجهالتـه، وتفسير تفسـره العرب بـألسنتها، وتفسيـر يفسره العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

فـالذي تعـرفه العـرب بألسنتهـا هـو مـا يـرجـع إلى لسـانهم من اللغـة والإعراب، وأما ما لا يعذر أحد بجهالته فهو ما يتبادر إلى الأفهام معرفـة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكـام ودلائل التـوحيد وكـل لفظ أفاد معنى واحداً جلياً يعلم أنه مراد الله تعالى، فهذا القسم لا يلتبس تأويله إذ كل أحـد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله**﴾ محمد: ١٩ أنه لا شريك له في الألوهية ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى «أقيموا الصـلاة وآتوا الزكـاة» ونحوه طلب إيجـاب المأمـور بـه وإن لم يعلم أن صيغـة افعـل للوجوب وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى فهو ما يجري مجـرى الغيوب كالآيات التي يذكر فيها الساعة والروح والحروف المقطعة والمتشابهة ونحو ذلك.

وأمـا ما يعلمـه العلماء ويـرجع إلى اجتهـادهم فهـو الـذي يغلب عليـه إطلاق التأويل وهذا الأخير هو الذي يسميه أهل التفسير: التفسير بالـرأي ومنه الجائز وهو ما ذكر وأما الممنوع فالمراد به كما يقول الشهيد البنا «أن يقول فيـه بغير علم جهلاً، أو تورطاً أو هروباً من الوصف بالجهـل» أو أن يتحكم الهواء وتتغلب الأغراض فتجور بصاحبها عن نهج الصواب وتعدل به عن طريق الحق فلو أصاب أحدهم مع هذه النية فقد أخـطأ وأثم ـ لحديث التـرمذي وأبي داود عن جنـدب قال: قـال رسول الله ﷺ: «من قـال في القرآن بـرأيه فـأصاب فقـد أخـطأ»[1] ولا شـك أن الـذين يجتهـدون في تحـريـر الحق متجـردين لـه من أهوائهم فهم مثابون، إن أخطأوا فلهم أجر وإن أصابوا فلهم أجران إن شاء الله

---

(١) جامع الترمذي: ١١/٦٨ من عارضة الأحوذي وسنن أبي داود: ٢/٢٨٧.

تعالى وبهذا يجمع بين رغبة السلف في التفسير وتعظيمهم لقدر المفسرين وبين خوفهم من القول في القرآن بالرأي وما ورد من النهي عن ذلك»[1].

ومن التفسير المذموم والداخل في التفسير بالرأي الممنوع ما ذكره الشهيد البنا رحمه الله «من الخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد» وذلك لأنها من المسائل التي لا يترتب عليها عمل، ولا يدخل في مضمونها الآيات التي جاء العلم القطعي يفسرها كما لا يدخل في ذلك أن يسجل الإنسان فهمه لمثل هذه الآيات فذلك أدب العلماء في كل العصور.

والشيء الذي نهى عنه الشهيد البنا هو الخوض في مثل هذا ومظهر ذلك الجزم حيث لا جزم، والجدال في مثل هذه الشؤون حيث لا ينبغي الجدال.

كما أن الخوض في مثل هذا في آيات القرآن خروج بالقرآن عن غاية نزوله وهو كما يقول الشهيد البنا رحمه الله وغيره من العلماء: إن القرآن الكريم لم ينزل ليكون كتاب هيئة أو طب أو فلك أو زراعة أو صناعة ولكنه كتاب هداية وإرشاد وتوجيه اجتماعي إلى أمهات المناهج الاجتماعية التي إذا سلكها الناس سعدوا في دنياهم وفازوا في آخرتهم.

وهو إنما يعرض العلوم الكونية ومظاهر الوجود المادية الطبيعية بالقدر الذي يعين على الإيمان بعظمة الخالق جل وعلا ويكشف عن بديع صنعه وعما أودعه في هذا الكون من المنافع والفوائد لبني الإنسان حتى يسر لهم بذلك طرائق الاهتداء إلى الاستفادة من هذه الخيرات في الأرض وفي السماء وفيما بين ذلك ثم ترك بعد ذلك للعقل الإنساني أن يجاهد ويكافح في سبيل الكشف عن دساتير هذا الوجود والاستفادة بما فيه من قوى ومنافع وحثه على ذلك وجعل ذلك من أفضل العبادة وأعلى أنواع الذكر ﴿**قل انظروا ماذا في**

---

(١) مقدمات تفسير القرآن/١٣.

السمٰوات والأرض﴾ يونس ١٠١. ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ آل عمران ١٩٠ ـ ١٩١.

ولقد ذهب كثير من المؤلفين والمفسرين في القديم والحديث إلى أن القرآن قد تضمن كل أصول العلوم الكونية، وحاولوا أن يصلوا إلى ذلك بتطبيق آيات الخلق والتكوين وما إليها على ما عرف الناس من هذه العلوم، ومن هؤلاء الإمام الغزالي قديماً في ـ ظواهر القرآن ـ والشيخ الطنطاوي جوهري حديثا في تفسيره ـ الجواهر ـ والدكتور عبد العزيز إسماعيل في كتابه ـ القرآن والطب ـ وأمثاله وهو جهد مشكور ولا شك ولكنه تكليف بما لم يكلفنا الله به قد يصل في كثير من الأحيان إلى التكلف والخروج بالقرآن عما نزل له من الهداية والإصلاح الاجتماعي وتقرير قواعدها في النفوس والمجتمعات وتعريض لمعاني كتاب الله تبارك وتعالى لاختلاف الآراء وتضارب المقررات العلمية واختلاف أقوال العلماء.

ولهذا كره بعض السلف هذا المعنى وأشار إليه كما فعل ذلك الشاطبي في الجزءِ الثاني من الموافقات وناقشه مناقشة دقيقة خلص منها إلى أن القرآن «لم يقصد فيه تقرير لشيء من هذه العلوم وإن كان قد تضمن علوماً هي من جنس علوم العرب أو ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاعتداء بأعلامه والاستنارة بنوره أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا».

ثم يقول: ولكن الذي لا يمكن أن يكون محل نزاع هو: أن القرآن حين أشار إلى النواميس الكونية والمظاهر الوجودية المادية كان من دقة التعبير وصدق التصوير بحيث لا يمكن أبداً أن يصطدم بما يكشف العقل الإنساني عنه في أطواره المختلفة من حقائق هذه العلوم ومقرراتها وخصوصاً إذا لاحظنا أن هذه المقررات العلمية تنقسم إلى قسمين: قسم تظاهرت عليه الأدلة وتوافرت له الحجج حتى كاد يلحق بالبديهيات وقسم لا زال في طور البحث

العلمي، وكل الذي بين يدي العلماء الكونيين منه فروض تؤيدها بعض القرائن التي لم ترق إلى مرتبة الأدلة القاطعة أو الحجج المقنعة.

فما كان من القسم الأول: فلا شك أن ما أشار إليه القرآن الكريم فيه يوافق كل الموافقة ويطابق كل المطابقة ما عرفه العلماء الكونيون حتى إنه من الحق أن يقال إن ذلك من إعجاز هذا الكتاب الذي جاء به أمي لم يتعلم في مدرسة ولم يلتحق بجامعة من الجامعات. ومن أمثلة ذلك إشاراته إلى أطوار الجنين وتلقيح الرياح وتكون السماء وصلته بالرياح... الخ.

وما كان من القسم الثاني فمن التجني وظلم الحقيقة أن يوازن بينه وبين ما جاء في القرآن الكريم، فلننتظر حتى يطمئن العلم الكوني إلى ما بين يديه، ويؤمن العقل الإنساني بما وصل إليه، ثم ننظر على ضوء هذا الإيمان إلى النص القرآني ولن نجدهما إلا متعاونين على تثبيت دعائم الحقيقة **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أو لم يكف بربك أنه على شيء شهيد﴾** فصلت: ٥٣[(١)].

المثال الثالث: «الكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم، وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته، وجزاء نيته، وفي التأول مندوحة».

الأصحاب: جمع صاحب، وهو لغة مجرد الرؤية، وفي العرف يطلق على الرؤية مع المخالطة والمراد به هنا كما يقول البخاري من صحب النبي أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه قال الحافظ: يعني أن اسم صحبة النبي ﷺ مستحقاً لمن صحبه أقل ما يطلق عليه اسم صحبة لغة، وإن كان العرف يخص ذلك ببعض الملازمة ويطلق أيضاً على من رآه رؤية ولو على بعد. قال: وهذا الذي ذكره البخاري هو الراجح وعليه أكثر المحدثين[(٢)].

وفائدة صحبته ﷺ كما يقول ابن العيسوي: في الدنيا الفتح وفي الآخرة

---

(١) مقدمات تفسير القرآن للبنا رحمه الله.

(٢) فتح الباري: ١/٧.

النجـاة من النار قـال النبي ﷺ: «يغـزو فئـام من النـاس فيقـال لهم فيكم من صحب رسـول الله ﷺ فيقال نعم فيفتـح لهم وذكر ثـلاث درجـات» الحـديث أخرجه البخاري[1] وقال النبي ﷺ: لن يدخل النار أحد رآني ولا رأى من رآني فذكر درجتين وكذلك ذكر في الخيرية ثلاث درجات فقال: خيـر الناس قـرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم[2].

ومكـانة صحبـة رسول الله ﷺ عـظيمة وفضـل الصحابـة الكرام عـظيمة وردت بذلك الآيات والآثار الكثيرة ولذا يقـول الشوكـاني رحمه الله: اعلم أن الصحـابة لا سيمـا أكابـرهم الجامعين بين الجهاد وبين يدي رسـول الله ﷺ والعلم بما جاء به وأسعدهم الله سبحانه من مشاهـدة النبوة وصحبـة رسول الله ﷺ في السـراء والضراء وبـذلهم أنفسهم وأمـوالهم في الجهـاد في سبيـل الله سبحانه حتى صاروا خير القـرون بالأحـاديث الصحيحة فهم خيـرة الخيرة لأن هـذه الأمة هي كمـا أكرمهم الله بقـوله ﴿**كنتم خيـر أمة أخـرجت للناس**﴾ آل عمران ١١٠ وكانوا الشهداء على العباد كما في القرآن العظيم فهو خير العباد جميعـاً وخيـر الأمم سـابقهم ولاحقهم وأولهم وآخـرهم وهؤلاء الصحـابـة رضوان الله عليهم هم خير قـرونهم وأفضل طـوائفهم إلى يوم القيـامة. فتقـرر بهذا أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم خير للعالم بـأسره من أولـه إلى آخره لا يفضلهم أحـد إلا الأنبياء والمـلائكـة ولهـذا لم يعـدل مثـل أحـد ذهبـاً مد أحدهم ولا نصيفه[3].

ومن الآيـات الـواردة في فضلهم والثنـاء عليهم قـولـه تعـالى ﴿**للفقـراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصـادقون. والـذين تبؤوا الـدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجـة مما أوتـوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم**

---

(١) فتح الباري: ٤/٤٤.
(٢) انظر عارضة الأحوذي: ١٣/١٢٤.
(٣) قطر الولي: ٢٧٦.

المفلحون. والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ الحشر: ٧ ـ ١٠.

ولقد وصفهم الله عز وجل بأفضل الصفات وأكرمها في أكثر من آية منها:

١ ـ أنهم مؤمنون حقاً في قوله ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾ الأنفال: ٧٤.

٢ ـ الراشدون في قوله ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾ الحجرات: ٧.

٣ ـ أنهم الفائزون، في قوله تعالى ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ التوبة: ٢٠.

٤ ـ أنهم الصادقون، قال تعالى ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ الحشر: ١٠.

٥ ـ رضي الله عنهم ورضوا عنه، قال تعالى ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ التوبة: ١٠٠.

٦ ـ أنهم أهل التوبة والرحمة، قال تعالى ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾ التوبة: ١٠٧.

٧ ـ أنهم المبشرون من ربهم، قال تعالى ﴿**الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون. يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم**﴾ التوبة: ٢٠ ـ ٢١.

٨ ـ خير أمة أخرجت للناس قال تعالى ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ آل عمران: ١١٠.

٩ ـ أهل التقوى، قال تعالى ﴿**إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً**﴾ الفتح: ٢٦.

١٠ ـ وهم غيظ الكفار، قال تعالى ﴿**ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾ الفتح: ٢٩. ذلك هو ثناء الله عز وجل (عليهم) على صحابة نبيه الكريم ﷺ، وذلك هو وعد الله عز وجل لهم بالجنة، وتلك هي صفاتهم العالية التي وصفهم الله عز وجل بها.

فما معتقد أهل الإيمان من بعدهم فيهم؟ وما هي حدود المفاضلة فيما بينهم؟ وما أدب ذلك؟ وما موقفهم فيما شجر بينهم حسب ميزان الشرع وأدب الإسلام مع السابقين الأولين أصحاب هذه المكانة والدرجات الرفيعة والمقام الكريم؟

أما معتقد أهل الإيمان فيهم فخلاصته كما يذكره الطحاوي في رسالته بقوله: ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان[1].

---

(١) شرح الطحاوية: ٢/٢٦١.

أما حدود المفاضلة، فإنا نقف فيها حيث وقف النص في تفضيل بعضهم على بعض، مع اعتقاد أنهم بمجموعهم أفضل خلق الله عدا الأنبياء والملائكة كما سبق بيانه... وشريطة ألا يكون إجراء المفاضلة مقصوداً به التنقيص والنيل من بعضهم لأن ذلك من أخلاق أهل البدع والضلال مثل الروافض والخوارج ونحوهم، أو مما لا نص فيه، وهذا المعنى الأخير هو المقصود به في كلام الشهيد البنا رحمه الله في قوله «والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم» يعني من المسائل التي الخوض فيها لا ينبني عليه عمل بل إن هذا النوع من التفاضل سبب من أسباب الفتنة بين الناس في أمر لا يعلم حقيقته إلا الله عز وجل أو نبيه ﷺ.

فأما إجراء المفاضلة فيما هو منصوص فإنه إما أن يكون النص قطعياً ثبوتاً ودلالة في فضل بعض الأصحاب على غيرهم فهذا جزء من العقيدة التي ينبغي على كل مسلم أن يعرفها.. وإما أن يكون النص غير قطعي إلا أنه صحيح أو حسن فهذا يعتبر إنكاره فسوقاً، ويوضح ذلك القرطبي في المفهم ما ملخصه: الفضائل جمع فضيلة وهي الخصلة الجميلة التي يحصل لصاحبها بسببها شرف وعلو منزلة، إما عند الحق، وإما عند الخلق، والثاني لا عبرة به إلا إن أوصل إلى الأول، فإذا قلنا فلان فاضل فمعناه أن له منزلة عند الله وهذا لا يتوصل إليه إلا بالنقل عن الرسول ﷺ فإذا جاء ذلك فإما أن يكون قطعياً قطعنا به أو ظناً عملنا به، وإذا لم نجد الخبر فلا خفاء أنا إذا رأينا من أعانه الله على الخير ويسر له أسبابه أنا نرجو حصول تلك المنزلة له لما جاء في الشريعة من ذلك. قال: وإذا تقرر ذلك فالمقطوع به بين أهل السنة بأفضلية أبي بكر ثم عمر ثم اختلفوا فيمن بعدهما، فالجمهور على تقديم عثمان، وعن مالك التوقف، والمسألة اجتهادية ومستندها أن هؤلاء الأربعة اختارهم الله تعالى لخلافة نبيه وإقامة دينه فمنزلتهم عنده بحسب ترتيبهم في الخلافة، والله أعلم[1].

---

(١) انظر فتح الباري: ٣٤/٧.

إلا أن الحافظ بن حجر رحمه الله حكى الإجماع في الأخير بين أهل السنة أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، رضي الله عنهم أجمعين[1].

والدليل على جواز المفاضلة بين الأصحاب فيما فيه نص عمل الصحابة رضوان الله عليهم وإقرار الرسول لذلك كما في صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نخير بين الناس في زمن النبي ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهم. وفي رواية عن عبد الله بن عمر «كنا لا نعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب رسول الله ﷺ فلا نفاضل بينهم».

وفي رواية عن مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نقول ورسول الله ﷺ حي: «أفضل أمة النبي ﷺ بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان» زاد الطبراني في روايته: فيسمع رسول الله ﷺ فلا ينكره.

قال ابن معين: من قال: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وعرف لعلي سابقتيه وفضله فهو صاحب سُنة، وقد ذكر له من يقول: أبو بكر وعمر وعثمان ويسكتون.. فتكلم فيهم بكلام غليظ[2].

وترتيب الصحابة في الفضل كما دلت النصوص على ذلك واتفق عليه أهل السنة والجماعة على أن أفضلهم أبو بكر ثم عمر وقال جمهورهم ثم عثمان ثم علي ثم العشرة المبشرون بالجنة ثم أهل بدر ثم أهل أحد ثم أهل بيعة الرضوان، وممن له مزية أهل القبلتين من الأنصار، وكذلك السابقون الأولون وهم من صلى إل القبلتين في قول ابن المسيب وطائفة[3].

وأما الخوض فيما شجر بين الصحابة رضوان الله عليهم من خلاف أدى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) شرح صحيح مسلم: ٢٤٨/٩ بهامش شرح القسطلاني.

(٣) المصدر السابق: ١٦/٧.

إلى اقتتـال بعضهم بسببه فقـد حذر الشهيـد البنا رحمـه الله منه كمـا حذر من الكـلام في المفـاضلة غيـر المستنـدة إلى نص، أو المؤديـة إلى التنقيص، أو المسببة للفرقة والاختلاف وشيـوع الفتن في قولـه «والكلام في المفـاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف، ولكل فضـل صحبته وجزاء نيته، وفي التأول مندوحة».

نعم إن معتقـد أهل السنـة والجماعـة كما يقـول النـووي رحمـه الله أن خـلافة عثمـان رضي الله عنه صحيحـة و أنـه قتـل مـظلومـاً وقتلتـه فسقـة لأن موجبات القتل مضبوطة، ولم يجر عنـه ما يقتضيـه، ولم يشارك في قتله أحـد من الصحابة وإنما قتله همج ورعاء وغوغاء القبائـل وسفلة الأطراف والأرذال، تحزبوا وقصدوه من مصر فحصروه حتى قتلوه رضي الله عنه.

وأجمعوا أيضاً أن خلافة علي رضي الله عنه صحيحة وكـان هو الخليفـة في وقته لا خلافة لغيره.

وأمـا معاويـة رضي الله عنه فهـو من العدول الفضـلاء النجباء رضي الله عنه وأما الحروب التي جرت فكانت لكل طائفة شبهة اعتقدت تصـويب نفسها بسببهـا وكلهم عـدول رضي الله عنهم ومتـأولـون في حـروبهم وغيـرهـا، ولم يخـرج بشيء من ذلك أحـد منهم عن العـدالـة لأنهم مجتهـدون اختلفـوا في مسـائل من محـل الاجتهاد كمـا يختلف المجتهـدون من بعـدهم في مسـائـل الـدمـاء وغيــرهـا، ولا يلزم من ذلــك نقص أحـد منهم واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا على ثلاثة أقسام:

قسم ظهـر لهم بالاجتهـاد أن الحق في هذا الـطرف وأن مخـالفـه بـاغ فوجب عليهم نصرته وقتال الباغي عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعـدة إمام العـدل في قتال البغـاة في اعتقاده. وقسم عكس هؤلاء، وظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر

فوجب عليهم مساعدته وقتال الباغي عليه.

وقسم ثالث اشتبهت عليه القضية وتحيروا فيها ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم لأنه لا يحل الإقدام على قتال المسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك، ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين وأن الحق معه لما جاز لهم التأخر عن نصرته في قتال البغاة عليه، فكلهم معذورون رضي الله عنهم. ولهذا اتفق أهل الحق ومن يعتد به في الإجماع على قبول شهاداتهم ورواياتهم وكمال عدالتهم رضي الله عنهم أجمعين[1].

كما اتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، وقد عفا الله عن المخطىء في الاجتهاد، بل بين أنه يؤجر أجراً واحداً وأن المصيب يؤجر أجرين[2]. وفي ذلك يقول صاحب الزبد:

وما جرى بين الصحاب نسكت   عنه وأجر الاجتهاد نثبت

وقد قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه «دماء طهر الله أيدينا منها فلنصن ألسنتنا عنها». وبذلك يتضح لك كلام الشهيد البنا رحمه الله بقوله «وفي التأول مندوحة» أي خروج عن الوقوع في جناب صحابة رسول الله ﷺ وقد أثنى الله عليهم بما أثنى به ووصفهم بما وصفهم به وبما قاموا به من خدمة لدين الإسلام.. أما سب صحابة رسول الله ﷺ فإنه لا يصدر إلا من أصحاب البدع والضلالات الذين زاغت قلوبهم عن الحق والصراط المستقيم وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب أصحابه بقوله «لا تسبوا أصحابي فلو أن

---

(١) شرح مسلم: ٢٤٨/٩ مع تصرف.
(٢) فتح الباري: ٣٦/١٣.

أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[1].

وقد اختلف أهل العلم في العقوبة التي يجب أن تنفذ في ساب صحابة رسول الله ﷺ، فقال القاضي عياض: ذهب الجمهور إلى أنه يعزر وعن بعض المالكية يقتل، وخص بعض الشافعية في ذلك بالشيخين والحسنين، وكذلك من كفر من صرح النبي ﷺ بإيمانه أو تبشيره بالجنة إذا تواتر الخبر بذلك عنه لما تضمن من تكذيب رسول الله ﷺ.

وأخيراً ما أجمل نصيحة الإمام الشوكاني للسائل عن مذهب أهل الحق في شأن ما شجر بين الصحابة في الخلافة بقوله: إن كان هذا السائل طالباً للنجاة مستفهماً عن أقرب الأقوال إلى مطابقة مراد مولاه كما يشعر بذلك تصرفه في سؤاله فليدع الاشتغال بهذا الأمر ويترك المرور من هذا المضيق الذي تاهت فيه الأفكار وتحيرت عنده أفكار أهل الأنظار فإن هؤلاء الذين نبحث عن حوادثهم ونتطلع لمعرفة ما شجر بينهم قد صاروا تحت أطباق الثرى ولقوا ربهم في المائة الأولى من البعثة، وها نحن الآن في المائة الثالثة عشرة فما لنا والاشتغال بهذا الشأن الذي لا يعنينا ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[2]، وأي فائدة لنا في الدخول في الأمور التي فيها ريبة وقد أرشدت إلى أن تدع ما يريبنا إلى ما لا يريبنا ويكفينا من تلك القلاقل والزلازل أن تعتقد أنهم خير القرون وأفضل الناس.

وقال: وقد تلاعب الشيطان بكثير من الناس فأوقعهم في الاختلاف في خير القرون الذين قال رسول الله ﷺ في شأنهم لبعض من هو من جملتهم

---

(١) إذا أردت أن تقف على حقيقة رأي أهل بيت النبوة في صحابة رسول الله ﷺ وفي الشيخين خاصة فارجع إلى الرسالة الوازعة للمعتدي عن سب صحابة سيد المرسلين للإمام يحيى بن حمزة الذي أثبت فيها أن الإمام علي وأكابر أهل البيت السابقين منهم والمقتصدين غير قائلين في أحد من الصحابة بكفر ولا فسوق وإنما هو قول أهل الرفض والضلال.

(٢) جامع الترمذي: ٩/١٩٦ من عارضة الأحوذي.

لكنه تأخر إسلامه عنهم «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحـدهم ولا نصيفه»[1] فإذا كان مثل أحد ذهباً من المتأخرين من الصحابة المخاطبين بهذا الخطاب لا يبلغ مد أحد متقدميهم ولا نصيفه، فما أظنه يبلغ بمثل أحـد ذهباً منا مقدار حبـة من أحدهم ولا نصفهـا، فرحم الله أمـرأ اشتغل بمـا أوجبه الله عليه وطلب منه وترك ما لا يعود عليه بنفع لا في الدنيا ولا في الآخرة بـل يعود عليه بالضر ولو لم يكن من الضر إلا مجرد ما أرشدنا إليه رسول الله ﷺ بقولـه «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» لكفى فهذا والله مما لا يعنينا ومن ظن خلاف هذا فهو مغرور مخدوع قاصر الباع عن إدراك الحقـائق ومعرفـة الحق على وجهه كائناً من كان، والله لو جاء أحدهم يوم القيامة بمـا يملأ الـدنيا من الحسنـات مـا كـان لنـا من ذلـك شيء ولـو جـاء أحـدهـم «وصـانهـم الله» من السيئـات بمثل ذلـك ما كـان علينا من ذلـك شيء ففيما العبث وعـلام تضييـع الأوقات في الترهات[2].

هذا آخر ما أردت توضيحه في هذا الأصل وأرجو أن أكون قد أوضحت وأبنت بما هو حق ومفيد والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رسالة التحف في مذاهب السلف ص٤٦ الرسائل السلفية.

الأصل العاشر

في عقيدة الايمان بالله وصفاته

«معرفة الله تبارك وتعالى، وتوحيده وتنزيهه، أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة، وما يليق بذلك من المتشابه نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ آل عمران: ٧.

بين يدي هذا الأصل

(١) عقيدة الإيمان في الإسلام ذات مزايا تختص بها دون سواها من العقائد المصنوعة من البشر المملاة من الأهواء والأغراض والرغبات أو المدعاة زعماً أنها عقائد إلهية وقد حولها التحريف والتغيير إلى الاستحالة في أن تكون قد جاءت من عند الله أو تكلم بها رسل الله، ومن أبرز هذه المميزات:

١ ـ الوضوح والبساطة: إذ لا تعقيد فيها ولا غموض، فليس في عقيدة التوحيد ما في عقائد التثليث أو الثنوية ونحوها من الغموض والتعقيد الذي يعتمد دائماً على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين (إعتقد وأنت أعمى).

٢ ـ الانسجام مع الفطرة ولا تتناقض معها أبداً **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾** الروم: ٣٠.

٣ ـ الثبات في أصولها حيث لا تقبل الإضافة، ولا ترضى بالحذف وغير قابلة للتحريف والتبديل من كائن من كان من البشر، بل ويستنكر القرآن ذلك ممن وقع منه في قوله **﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾** الشورى: ٢١.

٤ ـ قائمة على الدليل والبرهان فلا تكتفي في تقرير قضاياها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم كما هو حال بعض العقائد الأخرى وإنما شعارها **﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾** البقرة: ١١١، وعرض

القرآن لعقيدة الإيمان بالغيب كله مربوط بالدليل والبرهان المنطقي والعقلي، وكل دارس للقرآن يحسه ويعلمه به.

٥ ـ الوسطية: فلا يوجد فيها إفراط ولا تفريط:

أ ـ **في وحدانية الله**: لقد رفضت الإنكار الملحد كما رفضت التعديد الجاهل والإشراك الغافل، وأثبتت للعالم إلهاً واحداً لا إله إلا هو **﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل أفلا تذكرون. قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله، قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾** المؤمنون: ٨٤، ٨٩.

ب ـ **في صفات الإله**: فليس فيها غلو في التجريد والسلوب كما فعلت الفلسفة اليونانية كما أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذي وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية والنصرانية وغيرهما بل هي مقررة لتنزيه الله تعالى ـ إجمالاً ـ عن مشابهة مخلوقاته **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** الشورى١١. وتصفه بصفات الإيجاب **﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾** البقرة: ٢٥٥ **﴿إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدىء ويعيد وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد﴾** البروج: ١٢، ١٣، ١٤، ١٥. وهي وسط بين التقليد الأبله الذي يأخذ عقائد الآباء بالوراثة **﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾** الزخرف: ٢٣. وبين الذين يريدون أن يتعرفوا على كنه الذات الإلهية وهم بعد لم يعرفوا كنه أنفسهم التي بين جنوبهم ولا ماهية حياتهم وموتهم، ولا كنه شيء من القوى الكونية المحيطة بهم فكيف يطمح العقل بعد ذلك في معرفة كنه الألوهية. وهي مع هذا تفتح الباب للنظر

في الكون والتفكر فيه ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ يونس: ١٠١. ﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم﴾ الروم: ٨.

(٢) - إن أسماء الله الحسنى وصفاته العلى مصدر إثباتها وطريق معرفتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة لا سواها، ويجب على كل مسلم أن يقف عندها إذ أنه ليس للعقل فيها حق الزيادة أو النقصان ولا حق النفي والاثبات وفي مدلولات اللغة العربية الفصحى ما يدرك به المسلم المراد من آيات الصفات وأحاديثها مع التزام قوله تعالى في هذا الباب ﴿ليس كمثله شيء﴾ الشورى: ١١.

(٣) - لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم في الثابت من أسماء الله وصفاته عن طريق القرآن أو الرسول ﷺ معتقدهم فيها الإيمان بها من غير تأويل مع استقرار معنى التنزيه ونفي التشبيه في أنفسهم، ولكنه فيما بعد الصحابة، وجد نفاة للصفات ووجد مشبهة، فانقسم أهل السنة والجماعة بسبب ذلك قسمين، قسم التزم الموقف الأول واعتبر ما سواه بدعة، وقسم بدأ يتكلم رداً على النفاة ورداً على المشبهة فاقتضى منه تفصيلات ترتب عليها معارك كثيرة. هذه المعارك لا يصح أن تدخل صفوف جماعة المسلمين لما يترتب على ذلك من أضرار أقلها الفرقة والخلاف، ولذلك فقد حسم الشهيد البنا رحمه الله باب هذا الجدل العريض بأن ألزم جماعة الإخوان بالموقف الأول الذي كان عليه الصحابة، لا تأويل ولا تعطيل مع التوحيد والتنزيه، وهذا هو الموقف الأسلم والأحكم والأعلم، يدرك ذلك كل من عانى متاعب النقاش في هذا الموضوع»[1].

وفي التوضيح والبيان مزيد تفصيل... وهذا أوان الشروع...

---

(١) انظر الإيمان والحياة للقرضاوي ص ٤٧. وانظر في آفاق التعاليم.

التوضيح والبيان

قوله (معرفة الله تبارك وتعالى.... الخ): معرفة الله هي أسمى المعارف وأجلها وهي الأساس الذي تقوم عليه الحياة الروحية كلها، فمنها تفرعت المعرفة بالأنبياء والرسل وما يتصل بهم من حيث عصمتهم ووظيفتهم وصفاتهم والحاجة إلى رسالتهم وما يلحق بذلك من الولاية والكرامة والكتب السماوية، وعنها تفرعت المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة ـ المادة ـ من الملائكة والجن والروح، وعنها انبثقت المعرفة بمصير هذه الحياة وما تنتهي إليه من الحياة البرزخية والحياة الأخروية من البعث والحساب والعقاب والجنة والنار... الخ وهي من منازل إياك نعبد وإياك نستعين قال الله تعالى **﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾** المائدة: ٨٣.

وعرّف صاحب المنازل المعرفة بقوله (إحاطة بمعنى الشيء كما هو) إلا أن هذا التعريف حسب ظاهره لا يجوز أن يطلق على معرفة الله عز وجل إذ أنه لا يتصور أن يعرف الله البتة بهذا المعنى، ويستحيل عليه هذا الباب بالكلية فإن الله سبحانه لا يحاط به علماً ولا معرفة ولا رؤية فهو أكبر من ذلك وأجل وأعظم، قال تعالى **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً﴾** طه: ١١٠. بل حقيقة هذا الحد انتفاء تعلق المعرفة بأكبر المخلوقات حتى بأظهرها وهو الشمس والقمر، بل لا يصح أن يعرف أحد نفسه وذاته، قاله ابن القيم ثم ذكر تعريف المعرفة عند أهل هذا الشأن ـ أي أهل المعرفة ـ فقال: «هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه»، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالماً بالله، وبالطريق الموصل إلى الله وبآفاتها وقواطعها، وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة، فالعارف عندهم: من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم صدق الله في معاملته، ثم أخلص له في مقصوده ونيته، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته، ثم صبر على

أحكام الله في نفسه وبلياته، ثم دعا إليه على بصيرة بدينه وآياته، ثم جرد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله، ولم يشبها بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم، ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم، فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة إذا سمي به غيره على الدعوى والاستعارة»[1].

وأول العارفين وأفضلهم نبينا محمد ﷺ، يقول الرسول ﷺ «أنا أعرفهم بالله وأشدهم له خشية»[2]، ويليه العلماء العاملون لقوله تعالى **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** فاطر: ٢٨.

والعارف الحق هو الذي يتلون بتلون أقسام العبادة: فبينا تراه مصلياً إذ رأيته ذاكراً أو قارئاً أو معلماً أو مجاهداً أو حاجاً، أو مساعداً للضعيف أو مغيثاً للملهوف فيضرب لكل غنيمة من الغنائم بسهم، فهو مع المتسببين متسبب، ومع المتعلمين متعلم ومع الغزاة غاز، ومع المصلين مصل، ومع المتصدقين متصدق، فهو ينتقل في منازل العبودية من عبودية إلى عبودية وهو مقيم على معبود واحد لا ينتقل في منازل العبودية إلى غيره[3].

وقد قالوا إن مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطوية إلى النصيحة[4].

واعلم أن طرق معرفة الله ثلاثة:

أولاً: العقل والنظر فيما خلق الله عز وجل من أشياء، وقد ذكر الله ذلك في أكثر من آية من كتابه العزيز، من ذلك قوله تعالى: **﴿قل انظروا ماذا**

---

(١) مدارج السالكين جـ ٣ ص٣٣٧.
(٢) البخاري: ٨/٣١ مسلم ٤/١٨٢٩ رقم ١٢٧.
(٣) مدارج السالكين جـ ٣ ص٣٤٢.
(٤) نفس المصدر جـ ٣ ص٣٤٥.

في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ يونس: ١٠١. وقال تعالى: **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾**. آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

وميدان عمل العقل في التفكر للوصول إلى معرفة الله ليس الذات لأن الله لا يحاط به علماً، والإنسان عاجز عن الإحاطة ولكن ميدانه ما خلق الله من شيء في هذا الوجود:

وفي كل شيء له آية　　تدل على أنه الواحد.

وفي الحديث «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله، إنكم لن تقدروا قدره»[1] وفيه ضعف إلا أن معناه صحيح.

ثانياً: الرسل وبما أنزل الله عليهم من كتب بينت حقيقة المعرفة ومقتضياتها وبما أخبروا به عن ربهم ولأنهم أعرف الناس بربهم قال تعالى **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾** الحديد: ٢٥.

ثالثاً: معرفة أسماء الله وصفاته والتدبر في آثارها ومدلولاتها وذلك لأنها الوسائل التي تعرف الله بها إلى خلقه وهي النوافذ التي يطل منها القلب على الله مباشرة، وهي التي تحرك الوجدان وتفتح أمام الروح آفاقاً فسيحة تشاهد فيها أنوار الله وجلاله وهذه الأسماء هي التي ذكرها الله سبحانه في قوله **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾** الإسراء: ١١٠. وهي التي أمرنا الله أن ندعوه بها **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾** الأعراف: ١٨٠. وعددها تسعة وتسعون اسماً كما في الصحيحين[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية مرفوعاً بسند ضعيف.
(٢) البخاري: ٨/١٠٩ مسلم: ٤/٢٠٦٢.

رسول الله ﷺ قال «لله تسعة وتسعون اسماً من حفظها دخل الجنة وإن الله وتر يحب الوتر» وعدها الترمذي في روايته[1].

فهذه الأسماء التي تفتح آفاقاً واسعة من المعرفة بـالله إذا فهم الإنسان وأدرك معناها وانفعلت بها نفسه واتخذها نبـراساً فـإنها تكشف لـه عن أكبر حقيقة من حقائق هذا الوجود[2] وكذلك صفات الله عز وجـل: لا يستقر للعبد قدم في المعرفة ـ بل ولا في الإيمان ـ حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرجه عن الجهـل بربـه، فالإيمان بالصفات وتعـرفها هـو أساس الإسلام وقاعـدة الإيمان، وثمـرة شجرة الإحسـان، فمن جحد الصفـات فقد هـدم أسـاس الإسـلام والإيمـان وثمرة شجرة الإحسان، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان وقد جعل الله سبحانه منكر الصفات مسيء الظن به وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهـل الشرك والكفـر والكبائـر فقال تعـالى **﴿وما كنتم تستترون أن يشهـد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيـراً ممـا تعلمـون. وذلكم ظنكم الـذي ظننتم بـربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسـرين﴾** فصلت: ٢٣ فـأخـبر سبحانـه أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته من سوء ظنهم به وأنه هو الذي أهلكهم وقد قال في الظانين ظن السوء **﴿عليهم دائـرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعـد لهم جهنم وسـاءت مصيـراً﴾** الفتح: ٦ ولم يجيء مثـل هـذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه وجحد صفـاته وإنكـار حقائق أسمائه من أعظم ظن السوء به[3].

تلك هي طرائق معرفـة الله عز وجـل وسبيل الـوصول إليهـا، واعلم أن معرفة الله عـز وجل لا تكـون حقة إلا بتحقق العبـد بمراتب التـوحيد الثـلاث

---

(١) الترمذي: ١٣/٣٦ ـ ٤٢ من عارضة الأحوذي.
(٢) العقائد الإسلامية: سيد سابق ص٢٠ بتصرف.
(٣) مدارج السالكين جـ٣ ص٢٤٧.

والتي أجملها الشهيد البنا رحمه الله في هذه الكلمة بقوله «وتوحيده».
والتوحيد مصدر وحد يوحد توحيداً أي جعله واحداً، وسمي دين الإسلام توحيداً لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا ند له، وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا به من عند الله، وهي متلازمة كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر فما ذاك إلا أنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب، وإن شئت قلت التوحيد نوعان: توحيد المعرفة والإثبات وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتوحيد في الطلب والقصد وهو توحيد الإلهية والعبادة.

وقد أفصح القرآن الكريم عن النوع الأول جد الإفصاح كما في أول سورة الحديد، وطه وآخر سورة الحشر، وأول سورة السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك، أما النوع الثاني فقد تضمنته سورة ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ وقوله تعالى ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم..**﴾ وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول سورة يونس ووسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام وغالب سور القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه.

فإن القرآن إمَّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهو حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ ﴿**الحمد لله**﴾ توحيد و ﴿**رب العالمين**﴾ توحيد ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ توحيد و ﴿**مالك يوم الدين**﴾

توحيد و ﴿**وإياك نعبد وإياك نستعين**﴾ توحيد و ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ توحيد متضمن السؤال للهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ الذين فارقوا التوحيد.

ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهد له به ملائكته وأنبياؤه ورسله وأهل العلم قال تعالى ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾[1]. آل عمران: ١٨.

هذا والتوحيد هو أول دعوة للرسل وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم به السالك إلى الله تعالى، فما من رسول إلا ودعا قومه إليه فيقول لهم ﴿**يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ الأعراف: ٥٩. وقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ الأنبياء: ٢٥. وقال تعالى ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ النحل: ٣٦.

والتوحيد مفتاح دعوة الرسل، ولهذا قال النبي ﷺ لرسوله معاذ بن جبل وقد بعثه إلى اليمن «إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله وحده، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة... وذكر الحديث[2].

وقال ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»[3] ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك كما هي أقوال أرباب الكلام المذموم.

---

(١) مدارج السالكين جـ ٣ ص٤٢٩ ـ ٤٥٠.
(٢) البخاري: ٩/ ١٤٠ مسلم: ١/ ٥٠.
(٣) مسلم: ١/٥٣ رقم ٣٦.

والتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال ﷺ «ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[1] فهو أول واجب وآخر واجب، فالتوحيد أول الأمر وآخره، وتوحيد الله عز وجل في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته لا يصح ولا يستقيم إلا بكمال تنزيهه جل وعلا، ولذلك أشار إليه الإمام الشهيد في قوله (وتنزيهه) والتنزيه: تسبيح الله عز وجل وإبعاده عما يقول المشركون وتنزيه الله تعالى إبعاده عما لا يجوز عليه من النقائص ومنه الحديث في تفسير «سبحان الله» هو تنزيهه أي إبعاده عن السوء وتقديسه[2].

وكمال تنزيه الله عز وجل في ذلك كله يقتضي أمرين: وصفه بصفات الكمال التي وصف نفسه بها أو وصفه بها الرسول، وتنزيهه عن كل ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ على مقتضى قوله تعالى **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** الشورى: ١١. وقال سبحانه **﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾** الإخلاص: ٤. وقال سبحانه **﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾**.

يقول القرطبي عند تفسيره قوله تعالى **﴿ليس كمثله شيء﴾**: والذي يعتقد في هذا الباب أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمائه وعُلى صفاته لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يشبه به، وما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي إذ صفات الله عز وجل بخلاف صفات المخلوق[3]. وقال الواسطي رحمه الله «ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة، إلا من جهة موافقة اللفظ وجلت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة».

فتوحيد الله في صفاته يقتضي المسلم أن ينزه ربه عن الزوجة والشريك

---

(١) مسلم ١/٥٥ بلفظ (من مات وهو يعلم أن لا إله إلاّ الله دخل الجنة) وبهذا اللفظ ذكره السيوطي في الجامع الصغير: ٢/١٧٩ وقال أخرجه أبو داود والحاكم عن معاذ ورمز له بالصحة.

(٢) انظر النهاية لابن الأثير جـ ٥ ص٤٣ ولسان العرب جـ ١٣ ص٥٤٨.

(٣) تفسير القرطبي: ١٦/٨.

والكفؤ والظهير والشفيع «بدون إذن الله» والولي من الذل ويقتضيه أن ينزه الله عن النوم والإعياء والتعب والموت والجهل والظلم والغفلة والنسيان والنعاس وغير ذلك من صفات النقص، وقد نزه الله سبحانه نفسه عن ذلك كله في أكثر من آية، وشنع على الذين أساؤوا إليه سبحانه من اليهود والنصارى والمشركين الذين نسبوا إليه صفات النقص والحدوث وشبهوه بخلقه في أكثر من آية، كما توعدهم بأشد العقوبات وأفظعها.

وتشبيه الله سبحانه بمخلوقاته يتنافى مع عقيدة التنزيه كما أن نفي الصفات وتعطيلها في حق الله سبحانه وتعالى أيضاً يتنافى مع التنزيه له سبحانه، وقد جمع هذا المضمون قوله تعالى **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** الشورى: ١١. فهو نفي للتشبيه واثبات لصفة الكمال ولقد قال نعيم بن جماد «من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر. ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه».

وقال اسحاق بن راهويه: «من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلقه فهو كافر بالله العظيم».

ومن هنا يتضح أنه ليس نفي التشبيه مستلزماً لنفي الصفات، وأن إثبات الصفات مع عدم التشبيه هو كمال التنزيه والتقديس لله سبحانه.

واعلم أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم علماً ومعرفة وحالاً تفاوتاً لا يحصيه إلا الله، فأكمل الناس توحيداً الأنبياء صلوات الله عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكمل توحيداً وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأكملهم توحيداً الخليلان: محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما ـ علماً ومعرفة وحالاً ودعوة للخلق وجهاداً. فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل ودعوا إليه وجاهدوا الأمم عليه، ولهذا أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقتدي بهم فيه كما قال سبحانه بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة

التوحيد وذكر الأنبياء من ذريته ثم قال **﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾** الأنعام: ٨٩، ٩٠. «فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ﷺ أن يقتدى بهم . ولقد علمنا رسول الله ﷺ عبارات نقولها في كل صباح تذكرنا بالتوحيد وحقيقته ومصادره حتى لا نخدشه في ذلك اليوم بما يناقضه، وهو «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»[1] فملة إبراهيم التوحيد ودين محمد ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً وكلمة الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله، وفطرة الإسلام هي ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلاً وانقياداً وإنابة. فهذا هو توحيد الخاصة الذي من رغب عنه فهو أسفه السفهاء، قال تعالى **﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾** البقرة: ١٣٠، ١٣١.

قوله (أسمى عقائد الإسلام) بل أجلها بل هو الدين أوله وآخره وباطنه وظاهره وذروة سنامه وقطب رحاه، وأمرنا تعالى أن نتأسى فيه بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته وهو إبراهيم كما قال تعالى **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾** الممتحنة: ٤.

وكمال هذا التوحيد ألا يبقى في القلب أدنى شيء لغير الله أصلاً، بل يبقى العبد موالياً لربه في كل شيء، يحب من أحب وما أحب، ويبغض من أبغض وما أبغض، ويوالي من يوالي ويعادي من يعادي ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، وبذلك نكون قد أوضحنا بجلاء كلام الإمام الشهيد

---

(١) مدارج السالكين جـ ٣ ص ٤٨٠ ـ ٤٨١.

البنا رحمه الله في قوله (معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام) أما قوله (وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يتعلق بذلك من المتشابه نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل).

فقوله (من المتشابه) أي أنها مما أشكلت على كثير من الناس إشكالاً ضل بسببه خلق لا يحصى كثرة، فصار قوم إلى التعطيل وقوم إلى التشبيه سبحانه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً، ولا يريد أنها من قبيل المتشابه الذي ليس فيه بيان عن الله ورسوله أو غير معروف في لسان العرب، إذ أن الأسماء والصفات ليست من قبيل المتشابه وذلك أن الله سبحانه وتعالى أوضح هذا غاية الايضاح ولم يترك فيه أي لبس ولا إشكال.

والشهيد البنا رحمه الله قد أطنب في باب الأسماء والصفات في رسالته المسماة بالعقائد حيث أورد فيها بعض آيات ذكرت صفات الله عز وجل مثل: الوجه والعين واليد والنفس والاستواء والفوقية وغيرها، وذكر أيضاً بعض أحاديث صحيحة ذكرت من صفات الله عز وجل: الصورة والقدم والفرح. . . ووضح فيها انقسام الناس في هذه المسألة إلى أربع فرق وهم: المشبهة والمجسمة والنفاة والمعطلة، ورد عليها بما هو مقنع ثم قال: هذان رأيان باطلان لاحظ لهما من النظر وبقي أمامنا رأيان هما محل أنظار العلماء في العقائد وهما رأي السلف ورأي الخلف، واستعرض رأي كل في باب الأسماء والصفات من حيث التفويض والتأويل وحاول أن يجمع بين الرأيين مع اعتذاره للخلف عن اجتهادهم في هذا الباب حيث ألجأتهم ضرورة التنزيه إلى ذلك حفظاً لعقائد العوام من شبهة التشبيه، وفي الأخير يقول: وهو خلاف لا يستحق ضجة ولا إعناتاً، ونحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع حسماً لمادة التأويل والتعطيل، فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان وأثلج صدره ببرد اليقين فلا تعدل به بديلاً، ونعتقد بجانب هذا أن تأويلات الخلف لا توجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق ولا تستدعي هذا النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم قديماً وحديثاً، وصدر الإسلام أوسع من هذا كله، وقد لجأ أشد

الناس تمسكاً برأي السلف رضوان الله عليهم إلى التأويل في عدة مواطن، وهو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ومن ذلك تأويله لحديث «الحجر الأسود يمين الله في أرضه»[1] وقوله ﷺ «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»[2] وقوله ﷺ «إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن»[3].

وقد رأيت للإمام النووي رضي الله عنه ما يفيد قرب مسافة الخلاف بين الرأيين مما لا يدع مجالاً للنزاع والجدال، ولا سيما وقد قيد الخلف أنفسهم في التأويل بجوازه عقلاً وشرعاً بحيث لا يصطدم بأصل من أصول الدين. «انظر رسالة العقائد للإمام الشهيد رحمه الله».

قلت: ولخطورة هذا الباب في المعتقد، إذ إنه أحد أنواع التوحيد الثلاثة التي لا يتم توحيد المسلم إلا بالتحقق بها على مراد الله ورسوله، فإن الواجب يقتضي منا أن نوضح ذلك بإيجاز كما أوضحه سلف الأمة وكما اعتقدوه وكما نقل الينا عنهم الثقات مع ربط ذلك بنصيحتهم لكل مؤمن أراد لنفسه النجاة.

وحاصل تحرير ذلك أن الله سبحانه بين أن الحق في آيات الصفات متركب من أمرين:

أحدهما: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة الحوادث في صفاتهم سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

والثاني: الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ، لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ الزمر:

---

(١) مجمع الزوائد: ٣/٢٤٢ وهو بلفظ (يمين الله يصافح بها خلقه) قال الهيثمي رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبد الله ابن المؤمل وثقه بن حبان وقال يخطيء وفيه كلام وبقية رجاله رجال الصحيح. وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن إسناده لم يثبت والمشهور إنما هو عن ابن عباس. الفتاوى: ٦/٣٩٧.

(٢) سنن ابن ماجه: ١/٧٢ بلفظ (ما من قلب إلا بين أصبع من أصابع الرحمن).

(٣) مجمع الزوائد: ١٠/٥٦ بلفظ (وأجد نفس ربكم من قبل اليمن) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير نسيب وهو ثقة.

١٤٨ . ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسـول الله ﷺ الذي قـال فيـه ﴿وما ينطق عن الهوى إن هـو إلا وحي يوحى﴾ النجم : ٣، ٤ . فمن نفى عن الله وصفاً أثبته لنفسه في كتابه العزيـز أو أثبته لـه رسولـه ﷺ زاعمـاً أن ذلك الـوصف مما يلزم مـا لا يليق بالله جـل وعلا فقـد جعل نفسه أعلم من الله ورسوله بما يليق بالله جل وعلا سبحانك هـذا بهتان عظيم.

ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق فهـو مشبه ملحـد ضال، ومن أثبت لله مـا أثبته لنفسـه أو أثبته لـه رسولـه ﷺ مع تنـزيهه جـل وعلا عن مشابهة الخلق فهو مؤمن جامع بين الإيمان بصفات الكمال والجـلال والتنزيـه عن مشابهة الخلق، سالم من ورطة التشبيـه والتعطيـل والآية التي أوضـح الله بهـا هذا هي قـوله تعـالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميـع البصير﴾ فنفى عن نفسـه جل وعـلا ممـاثلة الحـوادث بقـولـه ﴿ليس كمثله شيء﴾ وأثبت لنفسـه صفات الكمال والجلال بقوله ﴿وهو السميـع البصير﴾ فصـرح في هذه الآيـة الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال.

والظاهر أن السر في تعبيره بقوله ﴿وهو السميع البصيـر﴾ دون أن يقول مثلاً: وهو العلي العظيم أو نحو ذلك من الصفات الجامعة أن السمـع والبصر يتصف بهما جميع الحيوانات فبين أن الله متصف بهما ولكن وصفه بهما على أسـاس نفي المماثلة بين وصفـه وبين وصف خلقـه ولـذا جـاء بقـولـه ﴿وهـو السميع البصير﴾ بعد قوله ﴿ليس كمثله شيء﴾ ففي هذه الآية الكريمة إيضاح للحق في آيات الصفات لا لبس معه ولا شبهة البتة[1].

والـذي نحب أن يتفطن لـه المؤمن أن المعنى الذي يقصـد بـاللفظ في صفات الله تبارك وتعالى مختلف اختلافـاً كلياً عن المعنى الـذي يقصد بهـذا اللفظ عينـه في صفات المخلوقين فـأنت تقـول: الله عـالم والعلم صفـة لله،

---

(١) أضواء البيان جـ٣ ص٣٠٤.

وتقول فلان عالم والعلم صفة لفلان من الناس فهل ما يقصد بلفظة العلم في التركيبتين واحد. . حاشا أن يكون كذلك، وإنما علم الله تبارك وتعالى علم لا يتناهى كماله، ولا يعد علم المخلوقين شيئاً إلى جانبه، وكذلك الحياة وكذلك السمع وكذلك البصر وكذلك الكلام وكذلك القدرة والإرادة، فهذه كلها مدلولات الألفاظ فيها تختلف عن مدلولاتها في حق الخلق من حيث الكمال والكيفية اختلافاً كلياً لأنه تبارك وتعالى لا يشبه أحداً من خلقه، فتفطن لهذا المعنى فإنه دقيق.

واعلم أن جميع صفات الله عز وجل من باب واحد لأن الموصوف بها واحد ولا يجوز في حقه مشابهة الحوادث في شيء من صفاتهم، فمن أثبت مثلاً أنه سميع بصير وسمعه وبصره مخالف لأسماع الحوادث وأبصارهم لزمه مثل ذلك في جميع الصفات كالاستواء واليد ونحو ذلك من صفاته جل وعلا ولا يمكن الفرق بين ذلك بحال.

وكذلك الأمر في الذات والصفات فإن ذاته جل وعلا وصفاته من باب واحد، فبما أنه جل وعلا له ذات مخالفة لجميع ذوات الخلق فإن له صفات مخالفة لجميع صفات الخلق، والصفات التي وردت في الكتاب والسنة نوعان: صفات ذاتية، وصفات فعل، فأما الصفات الذاتية فهي التي لا تنفك عن الله سبحانه وتعالى كالنفس والعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والوجه والكلام والقدم والملك والعظمة والكبرياء والعلو والغنى والرحمة والحكمة وضابط هذا النوع من الصفات الملازمة لذات الله عز وجل أنها قائمة في الله سبحانه لا ينفك عنها، وأما صفات الفعل فهي ما يتعلق بمشيئة الله وقدرته كالاستواء والنزول والمجيء والعجب والضحك والرضى والحب والكره والسخط والفرح والغضب والمكر والكيد.

والواجب في هذه الصفات بنوعيها اثباتها لله عز وجل على حسب المعنى الذي يليق بكمال الله تعالى وهو المعنى الحقيقي لها الذي ليس فيه تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف وأن تقول مثل ما قال الإمام الشافعي

رحمه الله «آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ»[1].

وهذا المسلك الذي سلكناه وندعو إلى اعتقاده في باب الأسماء والصفات من الإيمان بها على ظاهرها من غير تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل ولا تكييف هو مذهب السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وتابعيهم.

يقول الشوكاني رحمه الله: إن مذهب السلف من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وتابعيهم هو إيراد أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها ولا تأويل متعسف لشيء منها ولا تشبيه ولا تعطيل يفضي إليه كثير من التأويل، وكانوا إذا سأل سائل عن شيء من الصفات تلوا عليه الدليل وأمسكوا عن القال والقيل، وقالوا قال الله هكذا، ولا ندري بما سوى ذلك، ولا نتكلف ولا نتكلم بما لم نعلمه ولا أذن لنا بمجاوزته، فإن أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه، ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول إليه إلا بالوقوع في بدعة من البدع التي هي غير ما هم عليه، وما حفظوه عن رسول الله ﷺ وحفظه التابعون عن الصحابة وحفظه من بعد التابعين من تبعهم بإحسان وكان في هذه القرون الفاضلة الكلمة في الصفات متحدة، والطريقة لهم جميعاً متفقة، وكان اشتغالهم بما أمر الله بالاشتغال به، وكلفهم بالقيام بفرائض من الإيمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج والجهاد وإنفاق الأموال في أنواع البر وطلب العلم النافع وإرشاد الناس إلى الخير على اختلاف أنواعه، والمحافظة على موجبات الفوز بالجنة والنجاة من النار والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد الظالم بحسب الاستطاعة وبما تبلغ إليه القدرة ولم يشتغلوا بغير ذلك مما لم يكلفهم الله بعلمه ولا يفيدهم بالوقوف على حقيقته فكان الدين إذ ذاك صافياً عن كدر البدع[2].

---

(١) الإيمان وأركانه وحقيقته ص١١ عن الأسئلة والأجوبة ص٥٠.

(٢) التحف في مذاهب السلف للشوكاني.

وهكذا نرى أن كلام الشهيد البنا رحمه الله وكلام الإمام الشوكاني ومن سبقهم من سلف الأمة يخرج من مشكاة واحدة في باب الأسماء والصفات، فعض عليه بالنواجذ فإن فيه النجاة والسلامة والله أعلم.

قوله (من غير تأويل): التأويل في اللغة مأخوذ من الأول وهو الرجوع إلى الأصل يقال: آل إليه أولاً ومآلاً. رجع، ويقال: أول الكلام تأويلاً وتأوله دبره وقدره وفسره، وعلى هذا فتأويل الكلام في الاصطلاح له معنيان:

(١) تأويل الكلام: بمعنى أوله إليه المتكلم أو ما يؤول إليه الكلام ويرجع، والكلام إنما يرجع ويعود إلى حقيقته التي هي عين المقصود وهو نوعان: إنشاء وإخبار ومن الإنشاء الأمر: فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن يعني قوله تعالى ﴿**فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً**﴾ النصر: ٢.

وتأويل الأخبار هو عين المخبر به إذا وقع كقوله تعالى ﴿**هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا**﴾ الأعراف: ٥٣. وهذا المعنى من التأويل بنوعيه في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا ينكر وقوعه أحد وهو لا يعنيه الشهيد البنا رحمه الله في هذا الأصل.

(٢) تأويل الكلام أي تفسيره وبيان معناه وهو ما يعنيه ابن جرير الطبري وكثير من المفسرين من السلف سواء وافق ظاهره أو خالف وهذا اصطلاح معروف يحمد حقه ويرد باطله[١].

وهذان المعنيان من التأويل بأنواعها ليس مقصوداً في كلام الشهيد البنا رحمه الله إلّا أن يكون في الثاني باطلاً فهو مردود غير مقبول.

---

(١) انظر شرح الطحاوية جـ ١ ص٢٤١ ـ ٢٤٢ تحقيق عميرة ومباحث في علوم القرآن ص٣٢٥.

أمـا التأويـل في عرف المتـأخرين من الفقهـاء والمتكلمين وهـو صـرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقتـرن به، فهـذا النوع من التـأويل هـو الذي يقصـده الشهيد رحمـه الله في باب الأسمـاء والصفـات وينصح بعدم الألتفات إليه لأنه النافذة التي أطل منها متـأولو الصفات ضـرورة حسب زعمهم من أجل التنزيه، فوقعوا في الخطأ من حيث ظنوا فيه الصـواب والسلامة في اجتنابه.

ولخطورة التأويل في باب الأسماء والصفات فإن المعتقد فيها كما ذكـره الشهيد البنا رحمه الله، الإيمـان بها على ظـاهرهـا «من غير تـأويل» وقـد قال سلف هذه الأمة «ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ولكن أصل معناه معلوم لنا» كما قال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن قولـه تعالى ﴿ثم استـوى على العرش﴾ كيف استـوى. . . فقـال الاستـواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

قـوله (ولا تعـطيل) التعـطيل كمـا في لسان العـرب: التفريـغ، وعـطل الدار: أخلاها وكل ما ترك ضياعاً معطل، ومنه بئر معطلة: لا يستقى منها ولا ينتفع بمائها[1]. والمراد به هنا نفي الصفـات الإلهية وإنكـار قيامهـا بذات الله سبحانه وتعالى كتعطيل اللهِ عز وجل عن كماله المقدس، وذلك بجحد أسمائه وصفاته وكتعـطيل معـاملة الله عز وجـل بترك عبـادته وكتعـطيل المصنـوع من صانعه كمن قال بقدم المخلوقات وجحد أن الله خلقها وصنعها[2].

ولما كان التعطيل بهذا المعنى نفي صفات الله عز وجل نفر الشهيد البنا رحمـه الله منه لأنـه يجانب التنـزيه لله سبحـانه ولأنـه من أمراض القلوب التي ابتلي بها كثير من الناس في القديم والحديث يقول الـطحاوي «ومن لم يتـوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيـه» يقول الشـارح: النفي والتشبيه مـرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعـان، مرض شبهـة ومرض شهـوة

---

(١) لسان العرب جـ ١١ ص٤٥٤.

(٢) انظر الإيمان حقيقته وأركانه ونواقضه ص١٦.

وكلاهما مذكور في القرآن قال تعالى ﴿**فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض**﴾ الأحزاب: ٣٢. فهذا مرض الشهوة، وقال تعالى ﴿**في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً**﴾ البقرة: ١٠ وقال تعالى ﴿**وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم**﴾ التوبة: ١٢٥ فهذا مرض الشبهة وهو أردأ من مرض الشهوة إذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته.

إذا علمت خطورة التأويل والتعطيل في باب العقيدة بل وفي جميع شرائع الإسلام فاعلم أنّ الأسلم والأوجب والأحكم ألا تسلك مسلك الخلف بالخوض في ذلك بما أسموه علم الكلام، والتزم بما سبق لك بيانه وتوضيحه، وقد نصح الشهيد البنا رحمه الله بذلك في قوله «ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه «والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا» ولأن الخلاف في هذا الباب لا يؤدي إلا إلى الشك والحيرة والقلق، وقد اعترف بذلك أساطين أهل الكلام والمبرزون فيه منهم: الإمام الغزالي رحمه الله عندما قال عنه ـ بعد أن استعرض مضامره بالعقيدة ـ: فقد يظن أن فائدته ـ يعني علم الكلام ـ كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وتثبيتها، فليس في الكلام وفاء بهذا الطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف، وقال: وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع لهذا ممن خبر الكلام.. ثم قال بعد حقيقة الخبر وبعد التغلغل منه إلى منتهى درجة الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود: « فوالله لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ولكن على الندور».

وقال الرازي: لقد تأملت طرق الكلام والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عَليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.. اقرأ في الإثبات ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب**﴾ واقرأ في النفي ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾ ثم قال: ومن جرب مثل

تجربتي عرف مثل معرفتي، وكذلك قال غيره ممن خاض في هذا المضمار مثل الشهرستاني وأبي المعالي الجويني والخوفجي والخسروشاهي وغيرهم[1].

ولذلك نجد كثيراً من السلف رضوان الله عليهم ذهب إلى تحريم الخوض في علم الكلام إذ إنه مصدر الخلاف الذي حذر منه الشهيد البنا رحمه الله، وممن ذكر التحريم الإمام الغزالي رحمه الله في إحيائه حيث قال: وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أئمة الحديث من السلف، وساق الألفاظ عن هؤلاء وقال: وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه قالوا: ما سكت عنه الصحابة ـ مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم ـ إلا لما يتولد منه من الشر وكذلك قال ﷺ «هلك المتنطعون» أي المتعمقون في البحث والاستقصاء، واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثني على أربابه.

إلا أن شارح الطحاوية يقول: والسلف لم يكرهوه لمجرد كونه اصطلاحاً حديثاً (جديداً) على معان صحيحة، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة، ولا كرهوا أيضاً الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، ومن ذلك مخالفتها للكتاب والسنة وما فيه من علوم صحيحة فقد وعروا الطريق إلى تحصيلها وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها، فهي لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا يسهل فيرتقى ولا سمين فيتقى .

وبذلك نكون إن شاء الله قد أوضحنا المقصود وأبنا عن المكتوب والله الهادي والموفق إلى سواء السبيل.

---

(١) انظر شرح الطحاوية جـ ١ ص٢٣٣ ـ ٢٣٥.



الأصل الحادي عشر
والثاني عشر

في البدعة:

تعريفها وأقسامها، وحكم كل

أ ـ وكل بدعة في دين الله لا أصل لها استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه ضلالة. تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها.

ب ـ والبدعة الإضافية والبدعة التركية والالتزام في العبادات المطلقة خلاف فقهي لكل فيه رأيه ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان.

بين يدي هذين الأصلين

١ ـ الأصل في ذم البدعة والمحدثات ورود أحاديث صحيحة عامة في ذلك نذكر منها:

أ ـ عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»متفق عليه وفي رواية مسلم «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[١].

ب ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة» رواه أحمد[٢].

جـ ـ عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا، فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة لولاة الأمر وإن كان عبداً حبشياً فإن من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة زاد النسائي وكل بدعة في النار رواه أهل السنن وصححه الترمذي[٣]. وقد وردت آثار

---

(١) جامع الأصول: ١/٢٨٩.

(٢) الفتح الرباني: ١/١٩٣ وقال الشارح ورواه البخاري والأربعة عن ابن مسعود.

(٣) جامع الأصول: ١/٢٧٩.

كثيرة عن السلف من التابعين ومن تبعهم في ذم البدعة والتشنيع على فاعلها ذكر كثيراً منها الشاطبي في كتابه الاعتصام فليرجع إليه»[1].

٢ ـ إن لفظ البدعة لها معنيان معنى لغوي ومعنى شرعي، والمعنى اللغوي أعم من المعنى الشرعي إذ إنه يعم كل جديد مستحدث حسناً كان أو قبيحاً كما سيأتي توضيحه فهذه الأحاديث والآثار الواردة في ذم البدعة أنها لا تنصب على المعنى اللغوي كما يدل عليه اللفظ إلا إذا كان سيئاً وهذا باتفاق أهل العلم ولذا يقول ابن العربي: وليس المحدث والبدعة مذموماً للفظ محدث وبدعة ولا لمعناها فقد قال تعالى **﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾** الأنبياء ٢. وقال عمر «نعمت البدعة هذه»[2] وإنما يذم من البدعة ما خالف السنة، ويذم من المحدثات ما دعا إلى ضلالة[3].

٣ ـ إن الابتداع له أسباب كثيرة وبواعث متعددة لا مجال لتحديدها ولا طاقة على حصرها لأنها تتجدد وتتغير وتظهر وتختفي ولا تكاد تتضح إلا بدقة التحري وإمعان البحث مع توفيق من الله تعالى، ومع ذلك فمن الممكن إرجاع هذه الأسباب والبواعث إلى سببين رئيسيين ضمنها الشهيد البنا رحمه الله في هذا الأصل وهما:

١ ـ اتباع الهوى ولذا سموا أهل الاهواء قال تعالى **﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾** آل عمران ٧.

٢ ـ القصور في العلم وعدم الرسوخ فيه قال تعالى **﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾** آل عمران ٧.

٤ ـ للبدعة تقسيمات متعددة باعتبارات متنوعة، فلها تقسيم من ناحية معناها اللغوي والشرعي على رأي من يقول بعمومها في كل حادث، وتقسيم على

---

(١) الاعتصام جـ ١ ص٦٨.
(٢) رواه البخاري: ٢١٨/٤ وانظر جامع الأصول ١٢٢/٦.
(٣) عارضة الأحوذي جـ ١ ص١٨٤.

رأي من يخصصها بما قصد به مضاهاة الشرع. وتقسيم من ناحية المرتبة، أو من ناحية الكيف ولذلك فالشهيد رحمه الله بعد أن ذكر تعريف البدعة الحقيقية المتفق عليها بين أهل العلم أنها بدعة في الأصل الحادي عشر أتبعها بأصل آخر وهو الثاني عشر قسم فيه البدعة التي ثار فيها الخلاف بين أهل العلم كما سيأتي بيانه.

التوضيح والبيان

(كل) من ألفاظ العموم تستغرق في مدلولها جميع الأفراد لأنها أضيفت إلى نكرة وهي لفظ (بدعة).

(بدعة) والبدعة في اللغة كما في لسان العرب (من بدع الشيء يبدعه بدعاً وابتدعه أنشأه وبدعه والبديع والبدع الشيء الذي يكون أولاً وفي التنزيل **﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾** الأحقاف: ٩ أي ما كنت من أول من أرسل وقد أرسل من قبلي كثيرون[١].

وفي الصحاح: البدعة: الحدث في الدين بعد الإكمال، واستبدعه عده بديعاً وبدعه نسبة إلى البدعة»[٢].

وأصل بدع أيضاً الاختراع على غير مثال سابق ومنه قوله تعالى **﴿بديع السموات والأرض﴾** أي مخترعها من غير مثال سابق متقدم[٣].

إذن فالبدعة لغة: تطلق على كل جديد مستحدث ليس له سابق سواء كان محموداً أو مذموماً. أما في الشرع فقد اختلفت عبارات العلماء في تعريفها فمنهم الموسع ومنهم المضيق ومنهم من عرفها بتعريف أقرب ما

---

(١) لسان العرب لابن منظور جـ ٨ ص٦.
(٢) الصحاح للجوهري جـ ٣ ص١١٨٤.
(٣) الاعتصام جـ ١ ص٣٦.

يكون إلى معناها اللغوي منه إلى معناها الشرعي، إلا أن تلك التعاريف على رغم اختلاف ألفاظها تلتقي جميعاً على معنى أساسي مجمع عليه وهو: المخالفة لشرع الله عز وجل بقصد التدين، وتختلف في بعض المعاني الفرعية التي هي مناط الاجتهاد ولذا فالشهيد البنا رحمه الله ضمن هذا المقصود في الأصلين الذين نحن بصدد توضيحهما، واعتبر الأصل الأول تعريفاً للبدعة المتفق على إطلاق هذا الاسم عليها والتي هي ضلالة وفي النار بقوله (وكل بدعة في دين الله لا أصل لها استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه ضلالة).

وهذا التعريف للبدعة لم يكن الشهيد البنا رحمه الله أول من وضعه وإنما تضمنته كثير من تعاريف أهل العلم من رجال الحديث والفقه.

قال الربيع: قال الشافعي رحمه الله تعالى: المحدثات ضربان أحدهما ما أحدث يخالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً أو أثراً فهذه البدعة الضلالة، والثاني ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لأحد، من هذا فهي محدثة غير مذمومة.

ويقول البدعة بدعتان، بدعة محمودة وبدعة مذمومة فما وافق السنة فهو محمود وما خالف السنة فهو مذموم.

ويقول ابن حزم رحمه الله: البدعة في الدين لكل ما لم يأت في القرآن ولا عن رسول الله ﷺ، إلا أن منها ما يؤجر عليه صاحبه ويعذر بما قصد إليه من الخير ومنها ما يؤجر عليه صاحبه ويكون حسناً وهو ما كان أصله الإباحة كما روي عن عمر «نعمت البدعة هذه»[1] وهو ما كان فعل خير جاء النص بعموم استحبابه وإن لم يقرر عمله في النص، ومنها ما يكون مذموماً ولا يعذر صاحبه وهو ما قامت الحجة على فساده فتمادى القائل به.

ويقول ابن العربي: المحدث قسمان محدث ليس له أصل إلا الشهوة والعمل بمقتضى الإرادة فهذا باطل قطعاً، ومحدث يحمل النظير إلى النظير

---

(١) جامع الأصول: ١٢٢/٦.

فهذه سنة الخلفاء والأئمة الفضلاء، وإنما يذم من البدعة ما خالف السنة ومن المحدثات ما دعا إلى ضلالة [1].

ويقول الشيخ عبد الحق الدهلوي في شرح المشكاة (اعلم أن كل ما ظهر بعد رسول الله ﷺ بدعة، وكل ما وافق أصول سنته وقواعدها أو قيس عليها فهو بدعة حسنة وكل ما خالفها فهو بدعة سيئة وضلالة).

وسبقه إلى هذا الاتجاه الشيخ العز بن عبد السلام والنووي وأبو شامة رحمهم الله فأنت ترى أن هذه التعاريف جميعاً تقرر حقيقة متفقاً عليها في تعريف البدعة وهي ما لا أصل لها والمخالفة لشرع الله بقصد التدين، إلا أن بعضها تضمنت معاني أخرى هي موضع الخلاف بين أهل العلم وبعضها غالباً ما تنطبق على المعنى اللغوي للبدعة، وتصطدم ظاهراً مع عموم الأحاديث الواردة في بيان البدعة والمحدث ولذا فقد نفى ابن رجب رحمه الله أن يطلق على البدعة الشرعية ما كان له أصل من الشرع يدل عليه وإن كان قد يطلق عليه بدعة لغة وأجمع تعريف مخرج من هذا الخلاف ويمكن أن تجتمع عليه كل التعاريف هو ما نأخذه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو: «العمل الذي وجد المقتضى له في عهد النبي ﷺ مع انتفاء المانع منه ﷺ لفعله في عهده، ثم هو لم يعمل في عهده ﷺ وإنما عمل بعده»[2].

فالعمل الذي وجد المقتضى لفعله بعد وفاة النبي ﷺ ولم يرد فيه دليل خاص وإنما دخل تحت عموم ما تقتضيه الأدلة الشرعية العامة لا يدخل في حد البدعة الشرعية الممنوعة، وإنما يدخل في حد المصالح المرسلة[3] وذلك مثل جمع القرآن الكريم فإن خوف الضياع له المقتضى لجمعه لم يوجد في عهده ﷺ وإنما وجد بعد وفاته وذلك عندما استحر القتل بالقراء في حرب اليمامة.

---

(١) عارضة الأحوذي جـ ١٠ ص١٤٧.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٧٩.

(٣) المصالح المرسلة: هي التي لم يرد فيها دليل خاص وإنما دخلت في الأدلة العامة.

فهذا المقتضى إنما وجد بعد وفاته فقام الصحابة بجمع القرآن لهذا المقتضى وجمع القرآن لم يرد به دليل خاص فإنه قد دخل تحت عموم الأدلة الشرعية الواردة في حفظ القرآن وتبليغه، ومثل ذلك تدوين السنة وتدوين العلوم التي تخدمهما حفظاً وفهماً مثل علوم الفقه والأصول ونحوها.

وخرج بقوله (مع انتفاء المانع منه ﷺ لفعله) العمل الذي وجد المقتضى لفعله في عهده ﷺ إلا أنه اقترن بهذا المقتضى للفعل مانع منه ﷺ لهذا الفعل في عهده ثم بعد وفاته انتفى ذلك المانع مع بقاء هذا المقتضى قائماً فإنه لا يدخل أيضاً في حد البدعة الشرعية الممنوعة وذلك مثل صلاة التراويح مع إمام واحد فمقتضى العمل موجود في عهد الرسول ﷺ وهو قوله «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» إلا أن هذا المقتضى اقترن به مانع منه ﷺ وهو أنه لما قام بهم الثلاث الليالي ثم ترك ذلك فإنه قال: «خشيت أن تفرض عليكم» فكان الترك لها لاقتران المقتضى لهذا المانع، فلما توفي ﷺ زال هذا المانع وهو خشيته الفرضية بانقطاع الوحي مع بقاء المقتضى للعمل قائماً فعادت شرعية الاجماع على قارىء واحد بزوال المانع وبقاء المقتضى.

وأما ما كان المقتضى لفعله موجوداً في عهده ﷺ - وكان مصلحة - وهو مع هذا لم يشرعه فوضعه تغيير لدين الله تعالى (بدعة)، وإنما أدخله فيه من نسب إلى تغيير الدين من الملوك والعلماء والعباد أو من زل منهم باجتهاد كما روي عن النبي ﷺ وغير واحد من الصحابة «إن أخوف ما أخاف عليكم زلة عالم أو جدال منافق بالقرآن وأئمة مضلون» ومن أمثلة ذلك الآذان في العيدين فإن هذا لما أحدثه بعض الأمراء أنكره المسلمون عليه لأنه بدعة لوجود المقتضى وانتفاء المانع وعدم وقوعه منه ﷺ[1].

وهذا التعريف يستطيع الناظر فيه من أهل العلم أن يطبقه ويحقق مناطه

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٨٠.

في كل ما يحدث، كما أنه لا يصطدم مع الأحاديث الواردة في هذا الصدد فكل ما خرج عن هذا الحد فإنه لا يشمله عمومها في المنع وكل ما دخل تحت هذا الحد فإنه لا يخرج عن عمومها في المنع.

إذا علمت ذلك فاعلم أن بدعة الضلالة واجب على كل مسلم (محاربتها والقضاء عليها) وذلك لما جاء من الأحاديث والآثار في ذمها والتحذير من الوقوع فيها مما سبق ذكره.

ولما علم أيضاً من تكرير الرسول ﷺ الأمر بالتمسك بالسنة والتحذير من البدعة في كثير من خطبه والتي منها ما رواه بعض أهل السنن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في الحديث المار ذكره والذي أخرجه مسلم وابن ماجه[1]. ولما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إنما هما اثنتان الكلام والهدى، فأحسن الكلام كلام الله وأحسن الهدي هدي محمد، ألا وإياكم ومحدثات الأمور... فإن شر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة[2].

وقد جاءت نصوص تبين وزر المبتدع ومضاعفة إثمه من ذلك قوله ﷺ «من سن سنة خير فاتبع عليها فله أجره ومثل أجور من اتبعه غير منقوص من أجورهم شيئاً، ومن سن سنة شر فاتبع عليها كان عليه وزره ومثل أوزار من اتبعه غير منقوص من أوزارهم شيئاً»[3] وعن ابي هريرة رضي الله عنه: من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً[4].

---

(١) مسلم جـ ٦ ص١٥٣ وابن ماجه جـ ١ ص١٧.
(٢) البخاري جـ ١١ ص٢٩٨ موقوفاً على ابن مسعود وابن ماجه جـ ١ ص١٨ مرفوعاً واللفظ له.
(٣) الترمذي جـ ٤ ص١٤٩ وقال حسن صحيح.
(٤) المصدر السابق: ٤/١٤٩ وقال حسن صحيح.

ولما يترتب أيضاً على ظهور البدعة من مضار ومفاسد تستهدف العقيدة والشريعة وتصيب الفرد والجماعة فيحصل بسببها زيغ في العقيدة وزيادة في الشريعة أو نقص يحصل بسببها عنت ومشقة، كما أنها تحدث اضطراباً عند الفرد وتوجد فرقة في الجماعة وبذلك يحصل انحراف عن الصراط المستقيم، ووقوع في الضلال المبين ودخول في نار الجحيم نسأل الله السلامة من ذلك.

والطريق السليم لمحاربة البدع والقضاء عليها هي ما ارتبطت وسيلة الإنكار والمحاربة فيها بالحكمة والبصيرة والجدال الحسن وبالأسلوب الذي لم يؤد إلى ما هو أعظم وأفدح من البدعة التي اقتضى الأمر محاربتها، ولقد نبه الشهيد البنا رحمه الله على ذلك بقوله (بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها) والوسيلة المفضلة هي التي يتحقق بها الوصول إلى الغاية بأقل التكاليف وأدنى التضحيات ولا يكون لها من المضاعفات ما يكون أعظم وأخطر من تلك الغاية، والوسائل ليست ثابتة ولا معينة ولكنها تتغير حسب نوع المنكر وخطره وحسب زمانه ومكانه، والبيئة التي ينشأ فيها والناس الذين يزاولونه، والذي يلزم في استخدام الوسيلة من أجل القضاء على المنكرات ومنها البدع أن تتضمن ما أرشد إليه القرآن الكريم وهو الحكمة والبصيرة والقدوة في طريقة التنفيذ وأسلوبه هو رسول الله ﷺ وبالنظر في سيرة رسول الله ﷺ نجد أن إنكاره ﷺ يختلف في مكة عنه في المدينة، وفي المدينة يختلف عنه في مكة بعد الفتح، بل كان عليه الصلاة والسلام يراعي الزمان والمكان والأشخاص في أسلوب التطبيق حتى لا يؤدي لما هو شر وأعظم مثل تركه للكعبة وهي على بناء الجاهلية، وتركه لكسر الأصنام في مكة قبل إقامته بالمدينة وفتح مكة.

وبذلك يتضح لنا أن الشهيد البنا رحمه الله لم يقل هذا القول اعتباطاً ولكنه استمده من إرشاد القرآن وعمل الرسول ﷺ ومما كان عليه سلف هذه الأمة ومما يروى أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان ينهى أصحابه أن ينكروا على التتار شربهم للخمر لأنهم كانوا إذا شربوا ناموا وإذا ناموا استراح

المسلمون من شرهم المستطير، والذي من أقبحه هتك الأعراض وقتل النفس وأخذ الأموال[1].

(والبدعة من حيث هي: لا تكون إلا حراماً ومعصية لأن كل ما ورد في ذم البدع يقتضي التأثيم والتهديد والوعيد وهي خاصية الحرام، ومع ذلك فإنها متفاوتة الرتبة في معنى الحرمة كغيرها من سائر المعاصي، فالبدعة من حيث الحكم تنقسم إلى صغيرة وكبيرة، وليست الكبيرة على درجة واحدة في الحرمة كما لا يخفى على من عرف وجوه التفاوت في الكبائر من المعاصي.

والبدعة الصغيرة: هي البدعة الجزئية الواقعة في الفروع الجزئية بشرط أن تكون مبنية على شبهة تخيل أنها شرع ودين، مثالها أن ينذر أن يصوم قائماً أو ضاحياً لا يستظل.

ويشترط لبقاء البدعة صغيرة أن لا يحدث من فاعلها:

١ ـ المداومة عليها وإلا تحولت إلى كبيرة.

٢ ـ أن لا يدعو إليها لأن بالدعاء إليها يكثر فاعلها فيتحول بكثرة العاملين لها إلى كبيرة (من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عملها. .). الحديث.

٣ ـ أن لا تفعل في المواضع التي هي مجتمعات الناس أو المواضع التي تقام فيها السنن وتظهر فيها أعلام الشريعة لأن ذلك يكون بمثابة الدعاء إليها.

٤ ـ أن لا يستحقرها فإن ذلك استهانة بها والاستهانة بالذنب أعظم من الذنب.

أما الكبيرة: فهي البدعة الكلية السارية فيما لا ينحصر من فروع الشريعة وهي التي يتحقق دخولها تحت الوعيد الوارد في الكتاب والسنة فهو

---

(١) اعلام الموقعين: ٧/٣.

مخصوص بقسم الكبائر لا عام فيه وفي غيره، وما عدا ذلك من قبيل اللمم المرجو فيه العفو ومن أمثلة البدع في الكبائر بدعة التحسين والتقبيح العقليين وباقي الفرق الثلاث والسبعين، وبدعة إنكار الأخبار النبوية مطلقاً اكتفاء بالقرآن. . الخ[1]).

ذلك تقسيمها من حيث الحكم أما تقسيمها باعتبار النوع فإنها تنقسم إلى أنواع كثيرة ذكر منها الشهيد البنا رحمه الله في الأصل الثاني عشر ثلاثة أنواع حيث قال:

(والبدعة الإضافية والبدعة التركية، والالتزام بالعبادة المطلقة خلاف فقهي لكل فيه رأيه، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان).

قلت: هذا التقسيم الذي ذكره الشهيد البنا رحمه الله ليس للبدعة الحقيقية التي لم يدل عليها دليل شرعي لا من كتاب ولا من سنة ولا إجماع ولا استدلال معتبر من أهل العلم لا في الجملة ولا في التفصيل، فإن هذه البدعة شيء واحد وهي التي عنى بها ما سبق في الأصل الحادي عشر ونص على وجوب محاربتها والقضاء عليها ولأنها المقصودة بلفظ الحديث (وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)[1] وهي المجمع عليها.

وإنما قصد بهذا التقسيم ما كان مثار اختلاف بين أهل العلم بسبب الشبهة القائمة في أمر الاستدلال من حيث إلحاق الكيفية والأحوال والتفاصيل التي لا دليل عليها بالأصل الذي قام عليه الدليل، ولقد ذكر الشهيد البنا رحمه الله ثلاثة أنواع من البدع يقتضي المقام بيانها وتوضيحها.

الأولى: (البدعة الإضافية): وهي ما شرعت بأصلها دون وصفها وذلك كما يقول الشاطبي «أن لها شائبتين إحداهما لها من الأدلة متعلق فلا تكون من تلك الجهة بدعة، والأخرى ليس لها متعلق إلا مثل ما للبدعة الحقيقية. فلما كان العمل الذي له شائبتان لم يتخلص لأحد الطرفين

---

(١) انظر الاعتصام للشاطبي جـ ١ والابداع في مضار الابتداع ص١٤٧ ـ ١٤٩.

وضع له هذه التسمية وهي البدعة الإضافية أي أنها بالنسبة إلى إحدى الجهتين سنة لأنها مستندة إلى دليل وبالنسبة إلى الجهة الأخرى بدعة لأنها مستندة إلى شبهة لا إلى دليل، أو غير مستندة إلى شيء، والفرق بينهما من جهة المعنى أن الدليل عليها جهة الأصل قائم، ومن جهة الكيفيات أو الأحوال أو التفاصيل لم يقم عليها مع أنها محتاجة إليه، لأن الغالب وقوعها في التعبديات لا في العاديات المحضة[1].

وهذا النوع من البدع هو مثار الخلاف بين العلماء وله أمثلة كثيرة منها ما كان:

١- باعتبار الوقت والكيفية كصلاة الرغائب وصلاة ليلة النصف من شعبان، وذلك أن أصل الصلاة مشروعة لحديث رواه الطبراني في الأوسط[2] (الصلاة خيرُ موضوع) لكن إذا نظرت إلى ماعرض لها من التزام بالوقت المخصص والكيفية المخصصة نجدها بدعة فهي مشروعة باعتبار ذاتها مبتدعة باعتبار ما عرض لها.

٢- وباعتبار إخراجه عن وصفه الشرعي مثل التلحين في الأذان وهو التطريب أي التغني به، فالأذان مشروع وباعتبار ما عرض له من إخراج كلماته عن أوضاعها العربية وكيفياتها الشرعية محافظة على توقيع الالحان بدعة قبيحة.

٣ ـ وباعتبار وصفه في غير موضعه مثل رفع الصوت بالذكر والقرآن أمام الجنازة فالذكر باعتبار ذاته مشروع وكذا القرآن باعتبار ذاته مشروع، وباعتبار ما عرض له من رفع الصوت غير مشروع وكذا وضعه في غير الموضع غير مشروع فهو مبتدع من جهة موضعه ومن جهة كيفيته.

---

(١) الاعتصام جـ ١ ص٢٨٦.

(٢) مجمع الزوائد: ١/٢٤٩ وفيه عبد المنعم بن بشير وهو ضعيف تتمته (من استطاع أن يستكثر فليستكثر). إلا أن الشيخ ناصر الألباني حسّنه كما في صحيح الجامع الصغير ٣/٢٦٥ رقم ٣٧٦٤.

وبهذا تعلم أن من ينكر البدعة المذكورة إنما ينكرها بالاعتبار الثاني فالاعتراض عليه منشأه عدم الدراية بحقيقة البدعة الإضافية فينبه الناس إليها برفق ولين ولا يكون مثار فتنة[1].

الثانية: (**البدعة التركية**) وهي ترك الفعل الحلال بالشرع - من غير اعتبار شرعي - تديناً لما فيه من المعارضة للشارع في شرعية التحليل وذلك مثل: ترك كثير من العُبَّاد والمتصوفة تناول الطيبات تنسكاً وتعبداً لله لتعذيب النفس وحرمانها تشبهاً بعباد اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم وفي مثل هؤلاء أنزل الله عز وجل ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾ المائدة: ٨٧. فقد نهى عن تحريم الحلال وبين أن ذلك اعتداء والله لا يحب المعتدين. ولمثل هؤلاء قال النبي عليه الصلاة والسلام لمن أراد أن يفعل ذلك بقوله «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا لكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم. . . وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» متفق عليه من حديث أنس[2]، فإذا كان من منع نفسه من تناول ما أحل الله من غير عذر شرعي فهو خارج عن سنة النبي ﷺ والعامل بغير السنة تديناً هو المبتدع بعينه.

الثالثة: (**بدعة الالتزام في العبادات المطلقة**) وهي تحديد ما أطلقه الشارع من الأقوال والأفعال بزمان أو مكان أو عدد لم يكن الشارع حدده بذلك وذلك مثل الذكر والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ وغيرها فإن الشارع الحكيم شرعها ورغب في الإكثار منها مطلقاً من غير تحديد إلا بما قيده بخلف الصلوات أو حددها بزمن معين أو مكان محدود مما هو منصوص عليه، وفكرة التقيد والالتزام بالمقيد في هذا الباب دارت حوله معارك فقهية كما دارت حول الأنواع الأخرى التي سبق

---

(١) انظر الإبداع في مضار الابتداع ص٥٨ - ٦٠.

(٢) البخاري: ١/٧ مسلم: ١٠٢/٢ رقم ٥.

بيانها ولما كانت هذه الأمور في نظر الشهيد البنا رحمه الله وغيره من كثير من أهل العلم وهو الأقرب إلى الصواب إن شاء الله ـ إنها ليست من البدع الأصولية التي شملها الوعيد في الحديث «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» وإنما هي من باب الفروع التي للاجتهاد فيها مجال باعتبار الشائبة الموجودة فيها من حيث وجود الدليل في الأصل وعدم وضوحه أو انعدامه فيما ذكر من الأنواع ولذلك وصفها الشهيد البنا رحمه الله بقوله «خلاف فقهي لكل فيه رأيه ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان» فمتى ظهر الحق وقام الدليل فلا يجوز مخالفته والخروج عنه مجاراة للهوى وإشباعاً للرغبة وإقراراً للبدعة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الأصل الثالث عشر

في ميزان محبة الصالحين وحدود الولاية وحكم إثبات الكرامة لهم

(ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله تعالى عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً في حياتهم أو بعد مماتهم فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم).

بين يدي الأصل

١ ـ هذا الأصل يـدخله علماء العقـائد في قسم النبـوات ومما لا شـك فيه أن علاقته بهذا القسم وثيقة وأساسية ذلـك أن الصلاح والـولاية مستمـدة من اتباع الرسل والاستقامة على ما جـاؤوا به من عنـد الله عز وجـل، كما أن الكرامات هي فرع عن المعجزات وامتداد لها بسبب استقامة الأولياء على منهج الأنبياء والتزامهم بالإيمان والتقوى.

٢ ـ إن معتقد أهل السنة والجماعة في الصالحين والأولياء من وجوب المحبـة وإعطاء الولاء قائم على أساس ما أكرمهم الله عـز وجل بـه من الاستقامـة والتوفيق في الطاعـة والـزيـادة في العلم والعمـل والهـدايـة للخلق على الحق. وليس على اعتبـار أنهم عنصر خـاص متميز أو جمـاعـة خـاصـة استحقت هذا الوصف دون غيرها أو بيت معين بسبب صلته الرحمية بنبي من الأنبياء مستمدين هـذا المعتقد من قـوله تعـالى: ﴿**ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ يـونس: ٦٢ ـ ٦٣ وقـوله تعـالى ﴿**يا أيهـا الناس إنـا خلقناكم من ذكـر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعـارفوا إن أكـرمكم عند الله أتقـاكم**﴾. فهذا هـو الميزان الذي لا يخطيء في تحديد الأولياء وإثبات كراماتهم واعتبارها.

٣ ـ إن مكانة أولياء الله عز وجل وعباده الصالحين لا يقتضي اعتقاد عصمتهم ولا يجـوز أن يصـل إلى ذلـك، لأن ذلـك من خصــائص الأنبيـاء عليهم الصلاة والسلام كما أنه قائم على انتفاء اعتقاد النفع والضر منهم بل على أنهم لا يملكـون من ذلك شيئاً وهو من خصـائص الربـوبية والألـوهية لا

سواها، وإذا كان نبي الله يقول وكما أمره ربه ﴿**قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله**﴾ يونس: ٤٩ فكيف بغيره.

٤ ـ هذا الأصل من أصول العقائد التي كثر الأخذ فيها والعطاء وخاصة في باب الكرامات وكان الناس فيها بين مفرط ومفرِّط، ولم يعتدل فيه إلا أهل السنة والجماعة لالتزامهم فيه بما جاء في الكتاب والسنة وعدم اعتماد العقل ونظرياته فيه إلا بما وافق هذين المصدرين. فالناس المفرطون هم الذين أنكروا الكرامات للأولياء بدعوى التباسها بالمعجزات كأمثال المعتزلة وغيرهم من الفلاسفة. وهي دعوى باطلة كما سنبينه في التوضيح والبيان. والناس المفرطون هم الذين توسعوا في باب الكرامات حتى أدخلوا ما يقوم به الدجاجلة والمشعوذون من أولياء الشيطان ممن لم يستقيموا على إيمان وأخلاق أولياء الرحمن في باب الكرامات بدعوى أن ما يصدر من هؤلاء هو في الأصل كرامة للأولياء الذي انتسب إليه ذلك الدجال أو المشعوذ وليست هي كرامة له وهذه دعوى باطلة وإنما هي من باب الاستدراج أو السحر والكهانة والاستخدام بالشياطين وحاشا ولي الله أن يرضى بانتساب هؤلاء إليه وهو ممن يبغضهم في الله، وحاشا الله عز وجل أن يكرم الولي بكرامة عن طريق من أبغضهم فيه، وحتى لا يلتبس الأمر على أحد في هذا الباب وضع الشهيد هذا الأصل مستنداً إلى نصوص الكتاب والسنة للخروج من هذين المأزقين.

التوضيح والبيان

(ومحبة الصالحين) جمع صالح وهو كل من صلحت سريرته وعلانيته قاله الطبري[1] وقال النيسابوري: هو الذي صلح في اعتقاده وفي عمله، وهذه مرتبة لا ينبغي أن تنحط عنها مرتبة المؤمن[2].

---

(١) التفسير مجلد ٤ جـ ٥ ص١٠٢.

(٢) تفسير غرائب القرآن مجلد ٤ جـ ٥ ص٩٤ هامش تفسير الطبري.

والصلاح ضد الفساد وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال وقوبل في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة قال تعالى **﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾** التوبة: ١٠٢ وقال تعالى **﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾** الأعراف: وقال **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾**. محمد: ٢.

وإصلاح الله تعالى للإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح قال تعالى **﴿وأصلح بالهم﴾** محمد: ٢ وقال **﴿يصلح لكم أعمالكم﴾** الأحزاب: ٧١ وقال حاكياً **﴿وأصلح لي في ذريتي﴾** الأحقاف: ١٥ وقال **﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾** يونس: ٨١ قاله الراغب الأصفهاني(١).

تلك أبرز معاني الصلاح لغة وأوضحها دلالة كما جاءت في القرآن الكريم، ولما كان الصلاح خلقاً عظيماً وصفة نبيلة ودرجة رفيعة بها يتمايز عباد الله تعالى فيما بينهم فقد وصف الله عز وجل بها أنبياءه ومدحهم بها من ذلك قوله تعالى **﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين﴾** الأنبياء: ٨٥، ٨٦. وقال تعالى عن نبيه يحيى ﷺ **﴿ونبياً من الصالحين﴾** آل عمران ٣٩ بل لقد كان الأنبياء والمرسلون وهم أفضل عباد الله الصالحين أكثر تطلعاً لهذه الصفة وأشد إلحاحاً في طلبهم ذلك من ربهم من ذلك قول يوسف عليه السلام **﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾** يوسف: ١٠١.

وقول إبراهيم عليه السلام **﴿رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين﴾** الشعراء: ٨٣ وقول سليمان عليه السلام **﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾** النمل ١٩ وقد بين الله عز وجل في كتابه أنه يتولى أمر الصالحين وشؤونهم فقال **﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾** الأعراف: ١٩٦. كما أن الله سبحانه بين في كتابه أيضاً أنه اختصهم بوده

---

(١) معجم مفردات القرآن ص٢٩٢.

بقوله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ مريم ٩٦.

وهم موعودون بالحياة الطيبة والجزاء الأحسن قال تعالى ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ النحل ٩٧ ولقد بين الرسول ﷺ حكاية عن الله في الحديث القدسي هذا الأجر الأحسن بقوله «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» أخرجه البخاري(١).

والصالحون هم دائماً أولياء الرسل ومناصروهم وقد ذكر الله ذلك في حق نبينا محمد ﷺ بقوله ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين﴾ التحريم: ٤. ولذلك كانوا هم الأحق بميراث الأرض وعمارتها وإقامة الخلافة فيها بوعد الله في قوله ﴿إن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ الأنبياء ١٠٥.

كما أنهم ممن أنعم الله عليهم بقوله ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ النساء: ٦٩.

وقد دلت نصوص القرآن أن الصلاح درجة من درجات المؤمنين جعلها الله عز وجل ميدان تنافس بين عباده يمكن الوصول إليها بالأعمال الصالحة وبالتحقق بطاعة الله عز وجل وطاعة رسوله من هذه النصوص قوله تعالى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾ العنكبوت ٩ وقوله تعالى: ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ النساء: ٦٩.

وأفضل الصالحين الأنبياء ثم الصديقون ثم الشهداء ثم صالح المؤمنين على ترتيبهم في الآية الكريمة، وحد الصالح من المؤمنين كما ذكره النووي

---

(١) البخاري: ٤/١٤٣.

رحمه الله نقلاً عن الزجاج رحمه الله: هو المقيم بما يلزم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد[1].

ولما كان الصالحون في هذا المقام وبهذه المكانة وعلى هذه الحال من الالتزام استحق المتصفون بصفة الصلاح من عباد الله المؤمنين ما ذكره الشهيد بقوله (المحبة والاحترام والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى).

وكيف لا يستحقون ذلك وقد عرفت مما سبق عظم هذا المقام وتلك المنزلة وقد أكد على ذلك أمر المؤمنين بالسلام عليهم في كل يوم أكثر من مرة في أفضل عبادة وأشرفها وهي الصلاة بقوله «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» وهذا لا يكون إلا لمن وجبت محبتهم وحرم كرههم وبغضهم.

ومما لا شك فيه أن محبة الصالحين من دلائل الإيمان وثماره ومن السبل الموصلة إلى ما وصلوا إليه من تكريم روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم فقال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحب[2].

والثناء على الصالحين وذكرهم بطيب أعمالهم مما يزيد في الإيمان ويدفع إلى الاقتداء بهم في الأعمال الصالحة كما قال ذلك كثير من أهل العلم ودل عليه الواقع وحال من يصنع ذلك ويفعله، يقول صاحب تحفة الزمن: واعلم أن من وقف على تواريخ العلماء والمجتهدين وسير الفقهاء الورعين وعباد الله الصالحين إذا كان من الصادقين تاقت نفسه إلى الاقتداء بهم والتشمير بمثل أفعالهم فعسى أن يمن الله عليه بالتوفيق بوصله بهم، وقال الإمام أبو القاسم الجنيد: الحكايات جند من جنود الله يقوي بها القلوب قيل له هل لذلك من شاهد، قال نعم قوله تعالى: ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك**﴾هود: ١٢٠ وعن سفيان الثوري قال:

---

(١) بستان العارفين ص١٦٧.

(٢) صحيح البخاري جـ١ ص٤٦١ ـ ٤٦٢ ومسلم ٢٦٤٠ نقلاً عن رياض الصالحين.

جلست يوماً أحدث في حلقة بها سعيد بن السائب الطائفي فجعل يبكي حتى رحمته ثم قلت ما يبكيك، فقال: يا سفيان سمعت بذكر أهل الخير وذكر أفعالهم فوجدت نفسي منهم بمعزل فانتبهت.

ولكن حديث «المرء مع من أحب» باب عظيم في الرجاء ولهذا جاء فيه - أي في سياق الحديث - فما فرحوا - يعني الصحابة - بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث وبمطالعة كتب سيرهم يحصل معنى من مجالستهم وقد ورد فيهم «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم[1].

ومع أن المحبة والاحترام والثناء على الصالحين وذكرهم بأطيب أعمالهم يحصل به ما ذكرنا فإن صنع ذلك أيضاً (قربة إلى الله تبارك وتعالى) يثيب الله عليه عباده المؤمنين لعموم الأدلة الواردة في محبة المؤمنين والتحابب في الله، ذكر جملة منها الإمام النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين تحت عنوان (باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم فليرجع إليه)[2].

ولإجماع أهل السنة والجماعة على ذلك يقول الطحاوي «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين من أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير سبيل المؤمنين».

وقال الشارح: قال تعالى **﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾** النساء: ١١٥

فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن خصوصاً الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم ويهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم

---

(١) تحفة الزمن للسيد حسين بن عبد الرحمن الأهدل مخطوط.

(٢) راجع رياض الصالحين ص١٩٣.

ودرايتهم، إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم فإنهم خلفاء الرسول من أمته والمحيون لما مات من سنته، إلى أن قال: فلهم الفضل علينا والمنة والسبق وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا وإيضاح ما كان منه يخفى علينا فرضي الله عنهم وأرضاهم **﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾** الحشر.

ولما كان الصلاح سمة من سمات أولياء الله عز وجل بين الشهيد رحمه الله في هذا الأصل حقيقة هؤلاء الأولياء بقوله «والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى **﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**».

قلت: هذا هو التعريف الجامع المانع لأولياء الله عز وجل وليس بعده تعريف أحق بالأخذ منه وأوجب لأنه من عند حكيم عليم، إلا أنه لما كان أمر الولاية من القضايا العقائدية التي خاض فيها من خاض رغم وضوح ما جاء فيها من بيان، من أجل صرف حقيقتها عن ما هي عليه وإثناء وجهتها عن الصراط السَّوي كان لا بد من الوقوف عندها لاعطاء المزيد من البيان والتوضيح حتى لا يكون لمغرض مجال، ولا لضال مدخل ولا لمدع شبهة مركب، ولا يغرب عن بال القاريء أن سلف هذه الأمة عرفوا خطورة هذا الأمر والخوض فيه لأنهم اصطلوا بنار دعاة الضلال فيه فألفوا الكتب المطولة التي تبين حقيقة أولياء الرحمن من أولياء الشيطان ففندوا المزاعم وأبطلوا الأضاليل وأظهروا الحق الصراح، وأوقفوا الناس فيه على الحقيقة فجزاهم الله عن الإسلام خيراً، وألخص هذا التوضيح ووجه الحق الذي قالوه بما يصل به المسلم إلى اليقين مدللاً، وأدله على المراجع إن أراد المزيد وهذا أوان الشروع.

تعريف الولي لغة وعند جمهور علماء المسلمين:

يقول إبراهيم بن إبراهيم هلال: شاعت هذه الكلمة (كلمة الولي) في اللغة أول ما شاعت بمعناها العام، ثم جاء القرآن الكريم فاستعملها بذلك

المعنى العام أي الجامع بين ناحيتي الخير والشر أو كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في جانب أولياء الرحمن وجانب أولياء الشيطان. وشاعت أيضاً تلك الكلمة في حديث رسول الله ﷺ في جانب أولياء الله في الأغلب والأعم كما في الحديث الذي معنا ـ يعني حديث الولي ـ وفهمها الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم ومن سار على سنتهم واستعملوها في جانب الخير على أنها الوصف الذي يجب أن يكون الإنسان عليه في الحدود التي حددها له القرآن الكريم في جانب أولياء الله[1].

«والولاية» ضد العداوة وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد، قاله ابن تيمية والشوكاني وغيرهما[2].

وهذا المعنى الذي يدور بين الحب والقرب وكذا النصرة هو الذي يدل عليه القرآن الكريم ويريده من كلمة (ولي) ومشتقاتها في كل موضع أتي بها فيه سواء في جانب أولياء الله أو في جانب أولياء أعداء الله.

وقد أحصى الهلال تلك المواضع في القرآن فبلغت تسعين موضعاً، أربعة وخمسون منها في جانب أولياء الله وستة وثلاثون في جانب أولياء الشيطان وأعداء الله.

والمراد بولي الله المواظب على طاعته المخلص في عبادته قاله ابن حجر[3] وهذا التفسير للولي هو المناسب لمعنى الولي المضاف إلى الرب سبحانه والمذكور في قوله سبحانه **﴿ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾** يونس ٦٢ ـ ٦٤.

فأولياء الله حقاً هم المتحققون بصفات الولاية المحددة في هذه الآية الكريمة **﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾** وبحديث الولي الصحيح الذي رواه

---

(١) ولاية الله والطريق إليها ص٦١.

(٢) انظر فتاوى ابن تيمية جـ ١١ ص١٦٠ وولاية الله والطريق إليها ص٢٢٣.

(٣) فتح الباري جـ٣ ص٢٩٣.

البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يقول الله: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ـ أو فقد آذنته بالحرب ـ وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنّه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه»[1] يقول شيخ الإسلام ابن تيمية وهذا أصح حديث روي عن الأولياء[2] وأفضل الأولياء هم الأنبياء وأفضل الأنبياء هم المرسلون منهم وأفضل المرسلين أولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، وأفضل أولو العزم نبينا محمد ﷺ وهو الذي أنزل الله سبحانه عليه **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾** آل عمران: ٣١.

وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون والمتقون فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولاية الله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى كان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى وكذلك يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق، قال الله تعالى **﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾** التوبة: ١٢٤، ١٢٥.

وأولياء الله ـ كما يقول ابن تيمية ـ على طبقتين سابقون مقربون، وأصحاب يمين مقتصدون، ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز في أول سورة الواقعة وآخرها وفي سورة الإنسان والمطففين وفي سورة فاطر في قوله تعالى **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه،**

---

(١) صحيح البخاري: ١٣١/٨.

(٢) فتاوى ابن تيمية جـ ١١ ص١٥٠.

ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير، جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ آية ٣٢ ـ ٣٥.

واعلم أن أولياء الله غير الأنبياء ليسوا بمعصومين بل يجوز عليهم ما يجوز على سائر عباد الله المؤمنين لكنهم قد صاروا في مرتبة رفيعة ومنزلة علية، فقل أن يقع منهم ما يخالف الصواب وينافي الحق فإذا وقع ذلك فلا يخرجهم عن كونهم أولياء الله كما يجوز أن يخطىء المجتهد وهو مأجور على خطئه، وقد تجاوز الله سبحانه لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان كما قال سبحانه **﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾** البقرة: ٢٨٦ وفي الحديث «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»[٢].

ولم يقل أحد من أهل السنة والجماعة بعصمة الأولياء كما يقال في الأنبياء وجوباً وإنما يجوز أن يكون الولي محفوظاً حتى لا يصر على الذنوب وإن حصلت هفوات في أوقات وآفات أو زلات فلا يمنع ذلك في وصفهم قاله القشيري[٥].

واعلم أن من أعظم ما يتبين به من هو من أولياء الله سبحانه أن يكون مستقيماً مجاب الدعوة راضياً عن الله عز وجل في كل حال، قائماً بفرائض الله سبحانه تاركاً لمناهيه زاهداً فيما يتكالب عليه الناس من طلب العلو في الدنيا والحرص على رياستها، لا يكون لنفسه شغل بملاذ الدنيا ولا بالتكاثر منها، ولا يتحصل أسباب الغنى وكثرة اكتساب الأموال والعروض، إذا وصل

---

(٢) فتاوى ابن تيمية جـ ١١ ص٢٠١.
(٣) الرسالة القشيرية ص١٦٠.
(٥) ابن ماجه: ١/٦٥٩ بلفظ (إن الله وضع عن أمتي. . . .) عن ابن عباس وقال في الزوائد: إسناده صحيح إن سلم من الإنقطاع وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: ٣/١٧٩ رقم: ٣٥٠٩.

إليه القليل صبر وإن وصل إليه الكثير شكر يستوي عنده المدح والذم والفقر والغنى، والظهور والخمول غير معجب بمامن الله به عليه من خصال الولاية، إذا زاده الله رفعة زاد في نفسه تواضعاً وخشوعاً، حسن الأخلاق كريم الصحبة عظيم الجاه كثير الاحتمال.

وبالجملة فمعظم اشتغاله بما رغب الله فيه وندب عباده إليه، فمن كملت له هذه الخصال واتصف بهذه الصفات واتسم بهذه السمات فهو ولي الله الأكبر الذي ينبغي لكل مؤمن أن يقر له بذلك.

ومن كان فيه بعض هذه الخصال واشتمل على شطر من هذه الصفات فله من الولاية بقدر ما رزقه الله سبحانه منها ووهب له من محاسنها[1].

فالولاية لم تكن خاصة بصنف من الناس أو جماعة من البشر ولا بأهل بيت خاص كما قد يتوهم البعض ويزعمه آخرون، وإنما ينالها كل مؤمن بمقدار ما حقق من أعمال الإيمان وأخلاق التقوى من الذكور والإناث لقوله تعالى ﴿**إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ يونس: ٦٢، ٦٣ والمتقون هم الذين تحققوا بمضمون قوله تعالى ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾ البقرة: ١٧٢. والمؤمنون هم الذين وصفهم الله في أول سورة المؤمنون: ﴿قد أفلح المؤمنون...﴾ ومن مظاهر الولاية ودلائلها الكرامة وخرق العادات التي يجريها الله عز وجل على من يشاء من عباده الأولياء وأحبابه الأصفياء وهي ثابتة لهم وواجب الإيمان بها في حقهم كما اعتقد ذلك أهل السنة والجماعة ولم يخالف في ذلك إلا بعض أهل البدع من أهل الاعتزال، ولذلك أتبع الشهيد البنا قضية الولاية واثباتها

---

(١) انظر قطر الولي للشوكاني: ٢٤٠ ـ ٢٤١.

بشرطها القرآني بالكرامة وشرطها الشرعي فقال: (والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية).

اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات كرامات الأولياء وأنها واقعة موجودة مستمرة في الأعصار ويدل عليه دليل العقل وصريح النقل.

أما دليل العقل: فإنه أمر يمكن حدوثه ولا يؤدي وقوعه إلى رفع أصل من أصول الدين فيجب وصف الله تعالى بالقدرة عليه وما كان مقدوراً كان جائز الوقوع.

وأما المنقول: فآيات في القرآن العزيز وأحاديث مستفيضة. أما الآيات فقوله تعالى في قصة مريم **﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾** مريم: ٢٥.

قال أبو المعالي إمام الحرمين رحمه الله تعالى: ولم تكن مريم نبية بإجماع العلماء، وكذا قاله غيره، بل كانت ولية صديقة كما أخبرنا الله تعالى عنها. وقوله تعالى **﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله﴾** آل عمران: ٣٧.

ومن ذلك قصة صاحب سليمان عليه السلام حيث قال **﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾** النمل: ٤٠. قال العلماء ولم يكن القائل نبياً، ومن ذلك ما استدل به إمام الحرمين وغيره من قصة أم موسى وكذلك ما استدل به الأستاذ أبو القاسم القشيري من قصة ذي القرنين، وكذلك قصة أهل الكهف وما اشتملت عليه من خوارق العادات وقد حكاها القرآن الكريم، قال إمام الحرمين وغيره لم يكونوا أنبياء بالإجماع.

أما الأحاديث فكثيرة، منها حديث أنس أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ خرجا من عند النبي في ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباحين يضيئان بين أيديهما فلما افترقا صار مع كل واحد منهما حتى أتى أهله» أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة[1] وفي علامات النبوة . والرجلان هما:

---

(١) صحيح البخاري: ١/١٢٥.

عباد بن بشر وأسيد بن حضير. ومنها حديث أصحاب الغار الثلاثة الـذين أووا إلى الغار فأطبقت الصخرة عليهم بابه فدعا كل واحـد منهم بدعـوة فانفـرجت عنهم الصخـرة، وهو مخـرج في صحيحي البخاري ومسلم(١) ومنهـا حـديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة جـريج أنـه قال للصبي الـرضيع من أبـوك. قال: فلان الراعي وهو مخرج في الصحيح(٢)، ومنها حديث أبي هـريرة قـال قال النبي ﷺ: لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر»(٣) ومنها الحديث المشهور في صحيـح البخاري(٤) وغيـره في قصة خبيب الأنصـاري رضي الله عنه صـاحب رسـول الله ﷺ وقـول بنت الحـارث فيه: والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يومـاً يأكـل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحـديد وما بمكة من عنب وكانت تقول إنه لـرزق الله رزقه خبيبـاً. والأحـاديث والآثـار وأقـوال السلف والخلف في هـذا الباب أكثر من أن تحصر فيكتفى بما أشرنا إليه(٥).

والكـرامة: جمـاعها الأمـر الخارق للعـادة يجريهـا الله على يد ولي من أوليائه معـونة على أمـر ديني أو دنيوي ولم يفـرق علماء السلف بين الكـرامة والمعجـزة من حيث المعنى إذ أن كلا منهمـا خـارق للعـادة والمتـأخـرون من العلماء خصصوا المعجزات بالأنبياء والكرامات بالأولياء(٦) قال النـووي رحمه الله:

وأما الفرق بين المعجزة والكرامة فلا يفترقان إلا في جواز العقل بـوقوع المعجزة على حسب دعوى النبوة ووقوع الكرامة دون ادعاء النبوة(٧).

---

(١) صحيح البخاري: ٤/٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٢) صحيح مسلم: ٤/١٩٧٦ رقم ٧
(٣) صحيح البخاري: ٥/١٥.
(٤) صحيح البخاري: ٥/١٣٣.
(٥) انظر بستان العارفين للإمام النووي: ص١٤٦ ـ ١٥١.
(٦) انظر الطحاوية: جـ ٢ ص٣٠٤.
(٧) بستان العارفين: ص١٥٢.

وذكر غيره أن المعجزة تتضمن معنى التحدي، والكرامة لا تتضمن ذلك.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وخيار أولياء الله كراماتهم للحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين كما كانت معجزات نبيهم محمد ﷺ كذلك، وبهذا قال النووي رحمه الله.

وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع الرسول ﷺ فهي في الحقيقة تدخل في معجزات رسول الله ﷺ، وضرب أمثلة كثيرة من معجزات رسول الله ﷺ وكرامات الصحابة والتابعين لهم بإحسان بما فيه كفاية[1].

ويقول القشيري رحمه الله تعالى: هذه الكرامات لاحقة بمعجزات نبينا محمد ﷺ لأن كل من ليس بصادق في الإسلام تمتنع عليه الكرامات، وكل نبي ظهرت له كرامة على واحد من أمته فهي معدودة من جملة معجزاته إذ لو لم يكن ذلك الرسول لم تظهر على من تابعه الكرامة[2] يعني لا تظهر عليه بهذا العنوان أما الخارق بعنوان آخر فقد يقع.

واعلم أن كرامات الأولياء هي البشرى التي عجلها الله لهم في الدنيا فإن البشرى كل أمر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم ومن جملة ذلك الكرامات.

ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة بخلاف ما يجري على يديه من الخوارق لهدي الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة قاله ابن تيمية[3].

---

(١) انظر الفتاوى جـ ١١ ص٢٨٢ ـ ٢٨٤.
(٢) الرسالة القشيرية: ص١٥٩.
(٣) الفتاوى جـ ١١ ص٢٨٣.

واعلم أن الخارق للعادة على ثلاثة أنواع:

الأول: محمود في الدين: وهو ما تحصل به فائدة مطلوبة في الدين فيكون ذلك من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً إما وجوباً أو استحباباً.

والثاني: ما يحصل به أمر مباح فهو من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً.

والثالث: مذموم وهو الذي يحصل على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه وهو الذي يكون سبباً للعذاب والبغض كالذي أوتي الآيات فانسلخ منها ـ بلعام بن باعورا ـ لاجتهاد أو تقليد أو نقص عقل أو علم أو غلبة حال أو عجز أو ضرورة[1].

وهذا الأخير هو الذي يجريه الله على أيدي أولياء الشيطان من أعداء الرحمن.

أما الأول فهو الذي يجريه الله على أيدي خيار أوليائه والثاني على من يشاء من عباده المؤمنين، وبهذا التفصيل يظهر الفارق بين الخارق من كرامات أولياء الرحمن والخارق من استدراج أولياء الشيطان أعداء الرحمن، وهي فوارق متعددة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: إن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى والأحوال الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله وقد قال تعالى **﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** الأعراف: ٣٢ فالقول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش قد حرمها الله تعالى ورسوله فلا تكون سبباً لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها، فإذا كانت الكرامة لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن بل تحصل بما يحبه الشيطان وبالأمور التي فيها شرك كالاستغاثة بالمخلوقات أو كانت بما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية[2].

---

(١) انظر شرح الطحاوية: جـ٢ ص٣٠٥.

(٢) الفتاوى: جـ١١ ص٣٠٥.

والحاصل كما يقول الشوكاني: إن من كان من المعدودين من الأولياء إن كان من المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره مقيماً لما أوجب الله عليه تاركاً لما نهاه الله عنه مستكثراً من طاعاته فهو من أولياء الله سبحانه، وما ظهر عليه من الكرامات التي لم تخالف الشرع فهي موهبة من الله عز وجل لا يحل لمسلم أن ينكرها - ومن كان بعكس هذه الصفات فليس من أولياء الله سبحانه، وليست ولايته رحمانية بل شيطانية وكراماته من تلبيس الشيطان عليه وعلى الناس وليس هذا بغريب ولا مستكثر فكثير من الناس من يكون مخدوماً بخادم من الجن أو بأكثر فيخدمونه في تحصيل ما يشتهيه وربما كان محرماً من المحرمات وقد قدمنا المعيار الذي لا يزيغ والميزان الذي لا يجور وهو ميزان الكتاب والسنة فمن كان متبعاً لهما معتمداً عليهما فكراماته وجميع أحواله رحمانية ومن لم يتمسك بها ويقف عند حدودها فأحواله شيطانية مهما كان نوعه أو تناهت صفته والله المتولي للسرائر[1].

فإذا تحقق لنا معرفة الأولياء وتأكد لنا ثبوت الكرامات لهم على شرائطها الشرعية فلنعلم أن اعتقاد ذلك يجب أن يكون مقروناً (مع اعتقاد أنهم رضوان الله تعالى عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً في حياتهم أو بعد مماتهم فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم) لأن ذلك من خصائص الربوبية ولا يوصف بها إلا من اتصف بصفات الألوهية وكان له الأمر كله والملك جميعه وهو الله الخالق وحده لا سواه قال تعالى ﴿**أأله مع الله**﴾ وقال ﴿**ألا له الخلق والأمر**﴾ وقال ﴿**لله ملك السموات والأرض**﴾ ونحوها من الآيات الدالة على أن الله وحده المنفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير ولا شيء لغيره في شيء ما بوجه من الوجوه فالكل تحت ملكه وقهره تصرفاً وملكاً وإحياء وإماتة وخلقاً، وتمدح الرب تبارك وتعالى بانفراده بملكه في آيات من كتابه من ذلك قوله تعالى ﴿**هل من خالق غير الله**﴾ وقوله ﴿**والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا**

(١) قطر الولي ص ٢٥٦.

لكم ويوم القيامة يكفرون بشركك ولا ينبئك مثل خبير﴾ والآيات في ذلك كثير.

وإذا كان الأولياء لا يملكون شيئاً في حياتهم من النفع أو دفع الضر فإن ذلك يكون آكد في حقهم بعد مماتهم، لأنهم يعجزون أن يحركوا أنفسهم وأن يعيدوا إلى أجسامهم أرواحهم فكيف يقدرون التصرف في غير ذلك وقد بين الله في أكثر من آية وفي الحديث «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... الحديث» ولا يقال أن تصرفاً يقع من الولي في الحياة أو الممات وأن ذلك معتبراً لهم من الكرامات فإن هذه مغالطة واضحة في باب الاعتقاد وهي خطيرة على قائلها في نفس الوقت وقد تؤدي به إلى الهلاك، وذلك لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم به أولياءه لا قصد لهم فيه ولا تحدي ولا قدرة ولا علم كما عرفنا ذلك من كثير من كرامات الأولياء الصادقين كما في قصة مريم بنت عمران وأسيد بن حضير وأبي مسلم الخولاني وغيرهم رضوان الله عليهم.

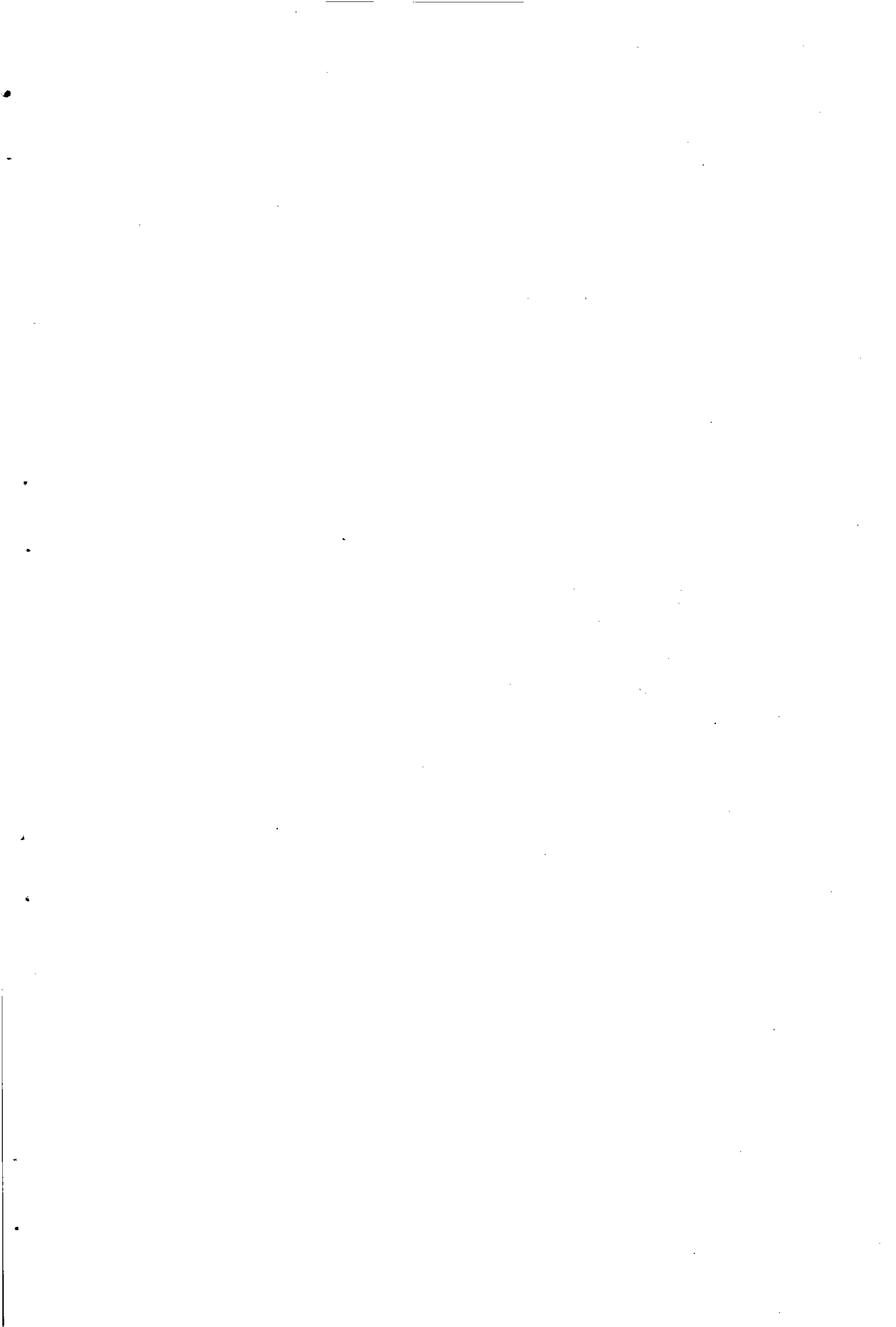
فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيراً فقد وقع في وادي جهل خطير فهو على شفا حفرة من السعير وليس ذلك من باب الكرامات فحاشا لله أن يكون أولياء الله بهذه المكانة فهذا ظن أهل الأوثان كذا أخبر الرحمن **﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾** **﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾** **﴿أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون﴾** فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره على وجه الإمداد منه إشراك مع الله، إذ لا قادر على الدفع غيره ولا خير إلا خيره وقد قال سبحانه خاصاً نفسه بذلك **﴿وأن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وأن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾** وفي نفس الوقت قال سبحانه لمن يعتقد ذلك في غيره محاجاً له **﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمته هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾** وقال **﴿ما يفتح الله**

للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾ بل إن الله عز وجل نهى نبيه عن إيقاع مثل ذلك وهدده تهديداً عظيماً وهو عام للأمة جميعاً من ذلك قوله تعالى ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين﴾ ومن نظائرها قوله: ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾.

الأصل الرابع عشر

شرعية زيارة القبور
وبدعة ما أحدثه الناس فيها

«وزيارة القبور أياً كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بالمقبورين وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعدوالنذر لهم وتشييد القبور وسترها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة».



بين يدي هذا الأصل

١ ـ أجمع المسلمون المعتد بإجماعهم على مشروعية زيارة القبور للرجال واختلفوا في حكمها من حيث الوجوب والاستحباب والإباحة، سواء كانت قبور صالحين، أو طالحين وأقارب أو أباعد بهدف الاعتبار والاتعاظ وتذكر الدار الآخرة وللدعاء للمقبورين والترحم عليهم والاستغفار لهم إن كانوا من أهل الإيمان، وقد حكى الإجماع على ذلك الإمام النووي رحمه الله وغيره كما سيأتي بيانه.

٢ ـ وأجمع علماء المسلمين المعتد بإجماعهم أيضاً أن المشروع: الدعاء للميت والاستغفار له لا الطلب منه والاستعانة به لقوله ﷺ «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... الحديث» ولقوله تعالى ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾.

٣ ـ واتفق المسلمون أيضاً أن ما أحدثه الناس في القبور وزيارتها مما لم يكن مأثوراً عن رسول الله ﷺ ولا عن الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام من البدع التي تجب محاربتها.

٤ ـ إن مما أحدثه الناس في زيارة القبور أو في القبور نفسها أو في المقبورين ذاتهم على حالات ثلاث منه ما هو شرك مخرج من الملة ومنه ما دون ذلك ومنه ما هو حرام تنتظمها كلمة الشهيد البنا رحمه الله بقوله (كبائر) وهذا تفصيل ذلك وبيانه.

التوضيح والبيان

(وزيارة القبور) في المنجد: زاره زيارة ومزاراً وزوراً وزواراً وزوارة أتاه بقصد الالتقاء به فهو زائر جمعه زائرون وزور وزوار[1].

والمراد هنا الفعل الذي هو الإتيان بقصد.

(والقبور) جمع قبر وهو مدفن الإنسان كما في لسان العرب[2] والمراد به هنا من فيها وإنما عبر عن المحل وأراد الحال، وهذا أسلوب مألوف عند العرب إذ إن مدافن الموتى لا تزار قصداً وإنما الذي يزار بقصد هو من دفن فيها أياً كان ولذا قال الشهيد (أياً كانت) أي من ألفاظ العموم وهي تتناول بعمومها القريب والبعيد والصغير والكبير والصالح وغيره، والمسلم والكافر.

والدليل على شرعية الزيارة ظاهر النص في قوله ﷺ (نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها) رواه مسلم عن بريدة[3] فاللفظ بظاهره يدل على العموم بل وعمل الرسول ﷺ يؤيد ذلك حيث ثبت عنه ﷺ أنه زار أمه، وبين ﷺ أن الله أذن له بزيارتها ولم يأذن له بالاستغفار لها[4].

والزيارة للقبور بهذا العموم (مشروعة) للأدلة التي ذكرناها بل وسنة للرجل بالإجماع ومختلف في شرعيتها للنساء ذكره النووي رحمه الله[5] وقد ذكرت النصوص علة مشروعيتها وخاصة بعد أن كانت محرمة في أول الأمر وذكرت بمجموعها: أنها للأحياء الزائرين للاعتبار، وللأموات المزورين للدعاء لهم، ففي صحيح مسلم «فزوروا القبور فإنها تذكر الموت»[6] وفي

---

(١) المنجد ص٣١٠ مادة زار.
(٢) لسان العرب جـ ٥ ص٦٨ مادة قبر.
(٣) صحيح مسلم جـ٢ ص٦٧٢ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
(٤) المصدر السابق ص٦٧١.
(٥) شرح صحيح مسلم جـ ٤ ص٣١٥ بهامش القسطلاني.
(٦) صحيح مسلم جـ٢ ص٦٧١.

جامع الترمذي من حديث بريدة «فإنها تذكـر الآخرة»[١] وفي روايـة ابن ماجـه من حديث ابن مسعود «وتزهد في الدنيا»[٢] وفي روايـة الحاكم «وتـرق القلب وتدمع العين فلا تقولوا هجراً».

وأما فائدتها للأموات بـالدعـاء لهم فقد دلت على ذلـك النصوص التي تبين كيفية الزيارة المأثورة والتي أشار إليها الشهيد رحمـه الله بقولـه (بالكيفيـة المأثورة) هذه الكيفية وضحتها السنن بتعليمه ﷺ لأصحابه كيفية زيارة القبـور وماذا يقولون إذا زاروها، والحـالة التي ينبغي أن يكـونوا عليهـا، أخرج مسلم في صحيحـه من حديث بـريدة رضي الله عنـه قال كـان رسول الله يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكـان قائلهم يقـول «السلام على أهـل الديـار» وفي رواية زهيـر «السلام عليكم أهـل الـديـار من المؤمنين والمسلمين وإنـا إن شـاء الله للاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية»[٣].

وفي زيارته ﷺ المتكررة لبقيع الغرقد مزيد من التعليم والتوجيه للزيـارة المـأثورة من ذلـك ما تـذكره عـائشة أم المؤمنين رضي الله عنهـا أنه ﷺ جـاء البقيع فقام فأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات ثم انحرف وفي رواية أخرى «أنـه كان يخـرج من آخر الليـل إلى البقيـع فيقـول: السـلام عليكم دار قـوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»[٤].

تلك هي الـزيارة المشـروعة وطـريقتها المـأثورة دعـاء للأمـوات وعبـرة للأحياء وأما ما أحدثه العامة من خلاف هذا كدعاء الأمـوات والاستصراخ بهم والاستغاثة بهم وسؤال الله بحقهم وطلب الحـاجات إليـه تعالى بهم فهـذا من البدع والجهالات.

---

(١) سنن الترمذي: ٤/ ٢٧٤ بأعلى عارضة الأحوذي.

(٢) سنن ابن ماجه: ١/ ٥٠١ رقم ١٥٧١.

(٣) صحيح مسلم جـ٢ ص٦٧١ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٤) المصدر السابق ص٦٦٨.

ولما قرر الشهيد في هذا الأصل شرعية الزيارة للقبور والطريقة المأثورة في ذلك وضح ما يجب أن يوضح في هذا الباب مما يحدث ويقع من البعض من البدع والمنكرات حين القيام بالزيارة للموتى في قبورهم معقباً على ذلك بالحكم اللائق بهذه البدع فقال (ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا) والاستعانة بالدون هي: طلب العون ولا خلاف أنه يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه من أمور الدنيا وما ينتفع به من أمور الآخرة كأن يستعين به على أن يحمل معه متاعه أو يعلف دابته أو يبلغ رسالته أو ما شابه ذلك مما هو في مقدور المخلوق.

أما ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل فلا يستعان فيه إلا به عز وجل وهو من خصائصه سبحانه **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** الفاتحة: والموتى المقبورون قد فقدوا قدرتهم على أن يقدموا شيئاً من أمور الدنيا للأحياء أو أن يدلوهم على شيء ينفعهم في الآخرة بمجرد انقطاعهم عن هذه الحياة لحديث (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... الحديث[1]. فكيف يقدرون أن يقدموا شيئاً بعد موتهم وخاصة بما اختص الله به نفسه في كلا الحياتين الدنيا والآخرة، وعجزهم في ذلك أولوي من حيث إن الأحياء لا يقدرون على أن يفعلوا شيئاً في ذلك فكيف بالأموات.

(أياً كانوا) أنبياء مرسلون، أو صديقون مقربون، أو شهداء صادقون، أو عباد لله صالحون، أو أولياء مخلصون أو من سائر عباد الله المؤمنين لأن هؤلاء جميعاً مخلوقون لا يقدمون لأنفسهم نفعاً ولا يقدرون على الدفع عنها ضراً إلا بمشيئة الله وإرادته فلذلك الاستعانة بهم فيما لا يملكون ولا يقدرون عليه نوع من الخبل والجنون، والعاقل الراشد هو من استجاب لقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الترمذي وغيره «وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء

---

(١) صحيح مسلم جـ ٢ ص ٦٧١ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

قد كتبه الله تعالى لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لا يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1].

واعلم أن من استعان بغير الله عز وجل أياً كان وترك الاستعانة بالله وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً كما في الحديث[2].

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: (لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه) ومن كلام بعض السلف: «يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك».

ومن الاستعانة بالنون، الاستغاثة بالغين فهي: طلب الغوث وهو إزالة الشدة وهو طلب النصر، ولا خلاف أيضاً أنه يستغاث بالمخلوق فيما يقدر على الغوث فيه من الأمور في هذه الحياة كما هو الحال في الاستعانة ولا يحتاج مثل هذا إلى دليل هو في غاية الوضوح وما أظنه يوجد فيه خلاف قاله الشوكاني.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: **﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾** القصص ١٥ وقوله تعالى **﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾** الأنفال ٧٢ وقوله تعالى **﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾** المائدة ٢.

وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يستغاث فيه إلا به كغفران الذنوب والهداية وإنزال المطر والرزق ونحو ذلك كما قال تعالى **﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾** آل عمران: ١٣٥ وقال **﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾** القصص: ٥٦ وقوله تعالى **﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض﴾** فاطر: ٣. وعلى هذا المعنى يحمل ما أخرجه الطبراني في معجمه الكبير أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال أبو بكر رضي الله عنه قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال ﷺ «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث

---

(١) حديث الأربعين للإمام النووي.

(٢) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ص١٦٨.

بالله»[1] فمراده ﷺ أنه لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله.

وقد ذكر أهل العلم أنه يجب على كل مكلف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله سبحانه وأن كل غوث من عنده، وإذا حصل شيء من ذلك على يد غيره فالحقيقة له سبحانه ولغيره مجاز[2].

ولما كانت الاستغاثة متضمنة الدعاء في حالة الكرب والدعاء أعم من ذلك حيث إنه يكون لحالة الكرب وغيره، فقد اقتصر الشهيد رحمه الله في هذا الأصل على ذكر العام وهو الدعاء لتدخل الاستغاثة في حكمه ضمناً فقال (ونداؤهم) يعني المقبورين أي دعاؤهم طلباً منهم أن يعطوا ما لا يقدرون على عطائه.

والدعاء نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة وكلا النوعين مذكور في القرآن الكريم فدعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي أو ما يكشف ضراً عنه ولهذا أنكر الله على من يدعو أحداً من دونه ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً فقال جل ذكره **﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾** الأنعام ٤٠ ـ ٤١.

بل حذر نبيه ونهاه أن يقع منه ذلك وتوعده بقوله **﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين﴾** يونس ١٠٦.

وأما دعاء العبادة: فهو ما يوقعه الداعي رغبة في المدعو مقروناً بالخضوع والتذلل والحقيقة أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة قاله شيخ الإسلام ابن تيمية.

فمن دعاء المسألة المتضمن لدعاء العبادة قوله تعالى **﴿ أدعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**

---

(١) وهو في مسند أحمد: ٥/١٦٩.

(٢) رسالة الدر المنضود للشوكاني ص٣.

وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ الأعراف ٥٥ ـ ٥٧ وقوله تعالى **﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾** الأنعام: ٤٠ ـ ٤١ وأمثال هذا في القرآن كثير. وأما دعاء العبادة المتضمن لدعاء المسألة فمنه قوله تعالى **﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً﴾** مريم ٤٨ ـ ٤٩.

فصار الدعاء من أنواع العبادة وقد أمر الله به في مواضع من كتابه كقوله **﴿ أدعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾** الأعراف ٥٥.

وأخبر أنه عبادة في قوله **﴿ أدعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾**.

وأخرج أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ رسول الله ﷺ الآية المذكورة وأخرجه أيضاً النسائي وابن ماجه والحاكم وأحمد وابن أبي شيبة باللفظ المذكور.

فالمناداة للأموات ودعاؤهم أياً كانوا وبأي نوع من أنواع الدعاء من أقبح المنكرات وأعظمها، وإخلاص التوحيد لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله لله والنداء والاستعانة والرجاء واستجلاب الخير واستدفاع الشر له ومنه لا لغيره ولا من غيره قال تعالى **﴿فلا تدعوا مع الله أحداً﴾** الجن: ١٨ وقال تعالى **﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾**الرعد ١٥.

ومما يمنع ويحذر في زيارة القبور (طلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد) أي سواء كان الطالب عند القبر أو بعيداً عنه في أي مكان كان فالعبرة بالألفاظ ومعتقداتها لا بالأمكنة والأزمان.

ويمنع هذا الصنيع لأنه من خصائص من يقدر ويملك وله التصرف المطلق وبيده كل شيء وهو الله الإله المعبود، أما المقبور فإنه لا يملك شيئاً ولا يقدر أن يعطي شيئاً فضلاً عن أن يقضي حاجة الطالبين قال تعالى **﴿والذين تدعون من دونه لا يملكون من قطمير﴾** وقال في حق الذين يتخذونهم وسائط ذاماً لهم **﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾** فالله وحده هو الذي ترفع إليه الحوائج ويطلب منه وحده قضاؤها وهو يعطي من يشاء ويمنع عن من يشاء له الأمر من قبل ومن بعد وهو على كل شيء قدير.

(و) مما يحرم فعله ويستنكر صنيعه لزائري القبور بل وغيرهم (النذر لهم) أي للمقبورين، وأصل النذر في اللغة الوعد بخير أو شر، وهو في اصطلاح أهل العلم إيجاب ما ليس بواجب لحدوث أمر أو بدونه تبرراً، وهو لا يصح إلا مما ابتغي به وجه الله فلا بد أن يكون قربة لقوله ﷺ «لا نذر إلا فيما ابتغي به وجه الله» وأجازه بعض العلماء في المباح، ولا نذر في معصية الله لقوله ﷺ «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» أخرجه البخاري[1] ومسلم[2].

ومن النذر في المعصية ما ذكره الشهيد البنا رحمه الله من النذر للمقبورين أياً كانوا لكون ذلك ليس من النذر في الطاعة ولا من النذر الذي ابتغي به وجه الله بل فيه مضاهاة لأهل الجاهلية ويتسبب عنه اعتقاد باطل في صاحب القبر كما يتفق كثيراً.

وقد أخرج أبو داود[3] بإسناد صالح عن سعيد بن المسيب «أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحب القسمة فقال: إن عدت تسألني القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة فقال له عمر إن الكعبة غنية عن

---

(١) صحيح البخاري جـ ١١ ص٥٨١ من فتح الباري.
(٢) صحيح مسلم جـ ٣ ص١٢٦٣، واللفظ للبخاري.
(٣) سنن أبي داود جـ ٢ ص٢٠٤

مالك، كفر عن يمينك ولا تنذر في معصية الرب ولا في قطيعة رحم ولا فيما تملك».

قال صديق حسن: وإذا كان هذا في الكعبة فغيرها من المشاهد والقبور أولى[1] والنذر للقبور أجمع العلماء على تحريمه وبطلانه ولا وفاء به حكاه غير واحد وذلك لوجوه منها:

١ ـ أنه نذر لمخلوق والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق.
٢ ـ أن المنذر له ميت والميت لا يملك.
٣ ـ أنه إن ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله واعتقد ذلك كفر[2].

فإذا علمت مما تقرر وسبق ذكره أن الاستعانة بالمقبورين ونداءهم وطلب قضاء الحاجات منهم والنذر لهم مما يتنافى مع الزيارة الشرعية المأثورة وأنها من البدع المنكرة والقبائح المستهجنة المتنافية مع عقيدة التوحيد والتنزيه لله عز وجل فاعلم أيضاً أن من هذا القبيل كل مظهر يعطي المقابر شيئاً من الإجلال والتعظيم ويكون سبباً لفتنة العوام والجهال في هذا الباب وهو يخالف ما كان عليه حال القبور في عهد الرسول ﷺ والصحابة والقرون المفضلة من ذلك ما ذكره الشهيد البنا في هذا الأصل بقوله (وتشييد القبور) أي بناؤها واحكام رفعها بالشيد وهو الرفع، ويطلق على الشيد بالكسر كل ما طلي به الحائط من جص أو بلاط قاله ابن منظور[3].

والبناء على القبور وردت آثار صحيحة في النهي عنه واعتباره مظهراً من مظاهر الجاهلية وسبباً من أسباب انحراف أهل الكتاب من اليهود والنصارى من ذلك ما جاء في الصحيحين: «أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال أولئك إذا

---

(١) الروضة الندية جـ ٢ ص١٧٦.
(٢) انظر فتح المجيد ص١٢٩ والدر ص٤٠ والإبداع في مضار الإبتداع ص١٨٩.
(٣) لسان العرب لابن منظور جـ ٣ ص٢٤٤.

مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله»[١] ولهما عنها قالت: «لما نزل برسول الله ﷺ مرض الموت طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها فقال: ـ وهو كذلك ـ لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً»[٢].

وفي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت يقول: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنما أنهاكم عن ذلك»[٣].

ولقد لعن رسول الله ﷺ من يفعل ذلك في الحديث الذي أخرجه أحمد وأهل السنن عن حسان بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم أنه قال «لعن رسول الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»[٤].

بل ولقد أمر رسول الله ﷺ بتسوية القبور المرتفعة والمبني عليها فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ «أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً إلا سويته» قال الشوكاني: وفي هذا أعظم دلالة على تسوية كل قبر مشرف بحيث يرتفع زيادة على القدر المشروع واجبة متحتمة، فمن إشراف القبور أن يرفع سمكها أو يجعل عليها القباب أو المساجد فإن ذلك من المنهي عنه فلا شك ولا شبهة ولهذا النبي ﷺ بعث لهدمها أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ثم إن أمير المؤمنين بعث لهدمها الهياج الأسدي في أيام خلافته»[٥].

---

(١) صحيح البخاري: ١/١١٨ مسلم: ١/٣٧٥.
(٢) صحيح البخاري: ١/١١٨ مسلم: ١/ ٣٧٧.
(٣) صحيح مسلم: ١/٣٧٨.
(٤) الفتح الرباني: ٨/١٦٠ وجامع الأصول: ١١/١٥٠.
(٥) انظر رسالة شرح الصدور في تحريم رفع القبور.

بل وقد جاء نص صريح على تحريم البناء والتجصيص للقبر وهو ما أخرجه أحمد ومسلم وغيرهما من حديث جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يبنى عليه وأن يوطأ وفي رواية «وأن يكتب عليه»[1].

إذا تقرر لك هذا علمت أن رفع القبور والبناء عليها ووضع القباب والمساجد والمشاهد قد لعن رسول الله ﷺ فاعله تارة وقال: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وتارة نهى عن ذلك، وتارة بعث من يهدمه وتارة جعله من فعل اليهود والنصارى، وتارة قال لا يتخذ قبري وثناً[2]، وتارة قال: لا تتخذوا قبري عيداً ـ أي موسماً يتجمعون فيه كما صار يفعله كثير من الناس.

فإن هذا كله يؤكد خطورة هذا الصنيع وضرره على العقيدة، وإساءته على مقام العبودية ولذا نجد أن عامة العلماء المعتمدين صرحوا بتحريم البناء على القبور وأفتى الكثير منهم بوجوب هدمها،يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أما بناء المساجد على القبور فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه متابعة للأحاديث الصحيحة وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه قال: ولا ريب في القطع بتحريمه ثم ذكر الأحاديث في ذلك، إلى أن قال: وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم يتعين إزالتها بهدم أو بغيره هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين[3].

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله: اعلم انه قد اتفق الناس سابقهم ولاحقهم وأولهم وآخرهم من لدن الصحابة رضي الله عنهم إلى هذا الوقت أن رفع القبور والبناء عليها بدعة من البدع التي ثبت النهي عنها فاشتد وعيد رسول الله ﷺ لفاعلها ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين أجمعين لكنه وقع للإمام يحيى بن حمزة مقالة تدل على أنه لا بأس بالقباب والمساجد على

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص٣٢٩ ـ ٣٣٠.
(٢) مسند أحمد: ٢/٢٤٦.
(٣) سنن أبي داود: ٢/١٩٢ صحيح مسلم: ٢/٦٣.

قبور الفضلاء ولم يقل بذلك غيره ولا روي عن أحد سواه، إلى أن قال: فإذا عرفت هذا تقرر لك أن هذا خلاف واقع بين الإمام يحيى وبين سائر العلماء من الصحابة والتابعين ومن المتقدمين من أهل البيت والمتأخرين ومن أهل المذاهب الأربعة وغيرها ومن جميع المجتهدين أولهم وآخرهم[1].

ومما يلحق بتشييد القبور بناء وطلاء في الحرمة والابتداع ما يفعله البعض من ستر القبور وتغطيتها بأنواع الثياب الفاخرة وخاصة قبور الأولياء وعباد الله الصالحين ولذلك فقد نص الشهيد البنا رحمه الله على هذا النوع من الابتداع بقوله (وسترها وإضاءتها) والإضاءة تشمل ما يوضع على القبور من الشمع أو السرج بقصد الإعلام بها وللإفراط في تعظيمها وهذا لا شك فيه مظهر من مظاهر الفتنة التي حذر منها الرسول ﷺ وشدد في النكير على فاعلها وتوعد الفاعل لذلك بالطرد من رحمة الله عز وجل فيما رواه أهل السنن عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إيقاد المصابيح في هذه المشاهد مطلقاً لا يجوز بلا خلاف أعلمه للنهي الوارد ولا يجوز الوفاء بما ينذر لها من دهن وغيره بل موجبه موجب نذر المعصية[3].

قلت: وفي ذلك من إضاعة الأموال من غير فائدة وهو مما نهى عنه ﷺ وقد عد ابن حجر الهيثمي في زواجره هذا الضيع من الكبائر وذكر أنه من فعل المجوس[4] وأقول إنه يجوز لأي إنسان أن يأخذه وينتفع به وأن يتصدق به إن لم يكن له به حاجة لأنه مال ضائع غير محترم.

إذا تقرر ذلك فاعلم أن التمسح بالقبور بقصد التبرك والحصول على

---

(١) شرح الصدور في تحريم رفع القبور.

(٢) الفتح الرباني: ٨/١٦٠ وجامع الأصول: ١١/١٥٠.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ص٣٣٢.

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر ص١٦٥.

الشفاء ودفع البلاء والضرر ـ أيضاً ـ مما يستقبح ويستنكر في هذا الباب وهو من البدع التي وقع فيها كثير من الناس حين إرادة الزيارة للأولياء ولذلك فقد تعرض الشهيد البنا رحمه الله لها بالنص في قوله (والتمسح بها) لأن في ذلك مضاهاة لأهل الجاهلية فيما كانوا يصنعونه بأصنامهم وأوثانهم ولأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه بأنبيائهم والصالحين منهم وقد فتن الشيطان من بعدهم بسبب ذلك إلى أن وقعوا في الشرك وعبادتها من دون الله عز وجل، ومما يقع فيه بعض زوار القبور في هذه العصور الحلف بأولئك الأولياء الذين ضمتهم تلك القبور لذلك نبه الشهيد البنا رحمه الله على هذه البدعة بقوله (والحلف بغير الله) مطلقاً سواء كان بالأنبياء أو الأولياء أو غيرهم من سائر المخلوقات منهي عنه غير منعقد ولا تجب به كفارة يمين باتفاق لعموم النصوص الواردة في النهي عن ذلك منها ما رواه مسلم وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال إن النبي ﷺ سمع عمر وهو يحلف بأبيه فقال: «ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت» وفي لفظ «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله»[1] ومنها ما أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه الحاكم وصححه عن النبي ﷺ (من حلف بغير الله فقد كفر) وفي لفظ (فقد أشرك) وفي لفظ الترمذي والحاكم (فقد كفر وأشرك)[2] قال العلماء يكون من الكفر الذي هو دون الكفر كما هو من الشرك الأصغر وقد فسره بعض المحدثين على معنى التغليظ والتهديد وعلى كل حال فإن النهي عن الحلف بغير الله عز وجل وكما تدل عليه مجموع النصوص الواردة في هذا الباب يختلف في حكمه باختلاف المحلوف به ومعتقد الحالف وهو على ثلاثة أنواع:

١ ـ فإن كان الحلف بالصيغة والمعتقد الذي كان عليه أهل الجاهلية وبه يحلفون وهو تعظيم المحلوف واعتقاد الضرر منه فهو شرك وهو المعني بقوله ﷺ (من حلف بغير الله فقد كفر وأشرك).

٢ ـ وإن كان لا يقصد به التعظيم ولا يعتقد في المحلوف به الضرر ووقع

(١) صحيح مسلم: ٣/١٢٦٧ رقم ٣.
(٢) انظر جامع الأصول: جـ ١١/٦٥١.

الحلف قصداً فإنه يكون والحالة هذه «معصية» فعلى موقعه أن يستغفر الله ويتوب لقوله ﷺ «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»[1] ولأن فيه مضاهاة لأهل الجاهلية وهو منهي عنه.

٣ ـ وأما إذا كان الحلف بعبارات تجري على اللسان وعلى غير اعتقاد أو تعظيم أو قصد فإنه والحالة هذه مكروه ينبغي تركه وعدم إيقاعه لحديث «لا وأبيه إن صدق»[2].

وبالجملة فإن إيقاع الحلف بغير اسم الله وصفاته لا يجب البر به ولا يلزم بسببه كفارة يمين عند جمهور العلماء ولا ينبغي أن يوقعه المسلم البتة والله أعلم.

ويختم الشهيد البنا رحمه الله هذا الأصل بقوله (وما يلحق بذلك) يعني مما لم يذكره من هذه المبتدعات وهي كثيرة منها الذبح على القبور وعندها وخاصة إذا كانت من القبور المتخذة عيداً لحديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال «نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانه فسأل النبي ﷺ فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد قالوا: لا قال: فهل فيها عيد من أعيادهم قالوا: لا فقال رسول الله ﷺ: أوف بنذرك فإنه لا وفاء في معصية الله ولا بما لا يملك ابن آدم» رواه أبو داود[3] وإسناده على شرطهما يعني البخاري ومسلم.

ومنها الذبح لها تقرباً إليها راجيا ما يضمر حصوله له منها ومما لا شك فيه أن النحر نوع من أنواع العبادة التي تعبد الله العباد بها كالهدايا والفدايا والضحايا المتقرب بها إليه لقوله تعالى ﴿**فصل لربك وانحر**﴾ الكوثر: ٢ وقوله تعالى ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾ الأنعام: ١٦٢.

وجلب الذبيحة إلى القبر ونحرها عنده لم يكن له غرض بذلك إلا

---

(١) انظر جامع الأصول: جـ ٦٥٤/١١.
(٢) انظر جامع الأصول: جـ ٦٥٢/١١.
(٣) سنن أبو داود: ٢١٣/٢.

تعظيمه وكرامته واستجلاب الخير منه وهذا صرف للعبادة وجعلها لغير الله عز وجل: بل ولقد بين الرسول ﷺ أنه من العقر في الجاهلية وقد نهى رسول الله ﷺ عليه وسلم عن فعله بقوله (لا عقرٍ في الإسلام) قال عبد الرزاق كانوا يعقرون عند القبر يعني بقرة أو شياها. رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أنس بن مالك[1]، وقال أحمد في رواية المردزي قال النبي ﷺ (لا عقر في الإسلام) كانوا إذا مات لهم الميت نحروا جزوراً على قبره فنهى النبي ﷺ عن ذلك[2].

ومنها شد الرحال إليها لحديث (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد)[3] والصلاة عليها وإليها وعندها للنهي الوارد في ذلك إلى غير ذلك وهي كما يقول رحمه الله عن كل ما ذكره وما لم يذكره مما ذكرناه في حكمها (من المبتدعات كبائر تجب محاربتها) لأنها منكرات والمنكر واجب على كل مسلم إزالته في حدود استطاعته وقدرته للحديث الصحيح (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)، ولعموم الآيات الآمرة بذلك ومنها (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون).

وطريقة الإنكار والحرب وأسلوبه ينبغي أن يقترن بالحكمة والبصيرة بحيث لا يؤدى الإنكار إلى ما هو أعظم منه وكما سبق أن ذكر الشهيد هذا المبدأ في الأصل وهو الأمر الذي تدل عليه نصوص القرآن ويدل عليه عمل الرسول ﷺ وحكمته والمنهج الذي سار عليه الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان.

ومع ذلك فلا يجوز لمسلم فضلاً عن عالم يرى الناس يفعلون ذلك مع

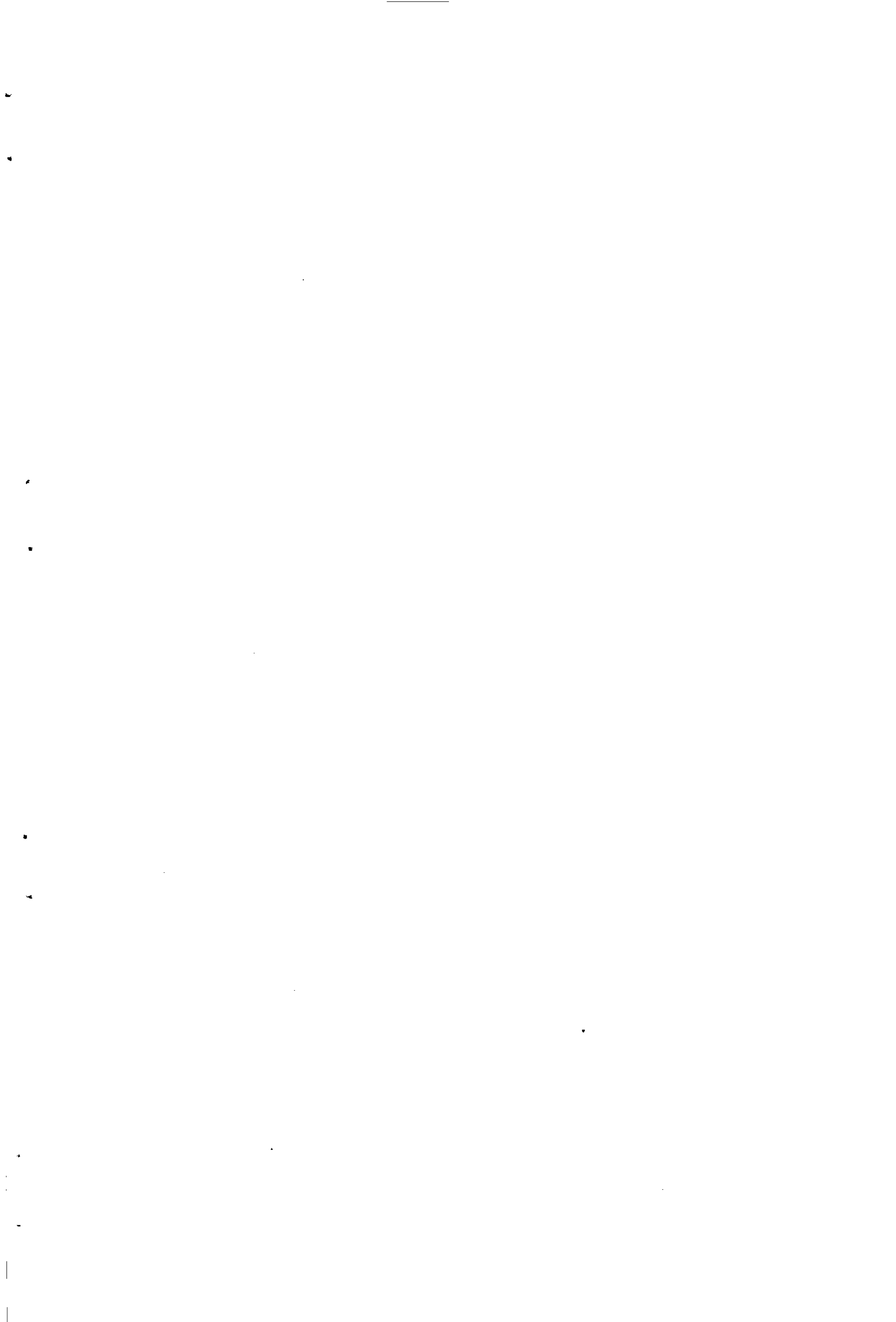
---

(١) سنن أبو داود: ١٩٣/٢.
(٢) انظر رسالة شرح الصدور للشوكاني واقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص٣٨١.
(٣) صحيح البخاري: ٧٦/٢ صحيح مسلم: ٩٧٦/٢.

علمه بأن هذه الأنواع من المبتدعات المنكرة أن (يتأول) للعامة وهم يوقعونها بل الواجب البيان أولاً ثم التغيير ثانياً إن استطاع ذلك (سداً للذريعة) حتى لا يقع الناس في الابتداع والمنكرات بسبب السكوت وتبرير ما يفعلون وتأويل ظواهرها على خلاف حقيقة ما يصنعون فيقعون في المنكر وهم لا يشعرون فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ونرجو بهذا البيان أن نكون قد أوضحنا الحق كما قصده الشهيد وترجمناه على نحو ما أراد وهو الحق إن شاء الله تعالى، والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الأصل/الخامس عشر/



بين يدي هذا الأصل

١/قال أهل العلم أن الدعاء من أخص خصائص العبودية لله عز وجل التي يجب على المسلم أن يخلص فيه لله عز وجل ولا يشرك معه فيه أحداً لقوله تعالى ﴿**فادعوا الله مخلصين له الدين**﴾ غافر/١٤. وقوله تعالى ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه**﴾ الأعراف/١٨٠.

٢/ وأجمع العلماء أن دعاء غير الله عز وجل بطلب ما اختص الله عز وجل به نفسه مما ليس في مقدور المخلوق لا يجوز صدوره من مسلم يحترم عقيدته ويقدس ربه وينزهه[١].

(أما الدعاء المقرون بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه فهو خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة) وهذا توضيح ذلك وبيانه.

التوضيح والبيان

(الدعاء) واحد الأدعية، وأصله دعاوٌ لأنه من دعوت إلا أن الواو إذا جاءت بعد الألف همزت[٢]. والدعاء: الطلب ودعوته إذا سألته واستغثته ﴿**قالوا ادع لنا ربك**﴾[٣] البقرة ٦٨.

---

(١) انظر التوسل والوسيلة.

(٢) الصحاح للجوهري جـ٢ ص٣٣٧.

(٣) البقرة ٦٨.

﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين، بل إياه تدعون﴾ [١] منبهاً إنكم إذا أصابتكم شدة لم تفزعوا إلا إليه[٢].

والدعاء بهذا المعنى: التوجه به إلى الله عز وجل مباشرة من غير واسطة يعتبر من أعظم العبادات وأفضلها قربة إلى الله عز وجل وقد أمر الله عز وجل به عباده بقوله: **﴿أدعوني استجب لكم﴾** غافر:٦٠ وتوعد المستكبرين عن هذه العبادة بقوله: **﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾** غافر ٦٠. وقد بين لعباده أنه أقرب إليهم يسمع نداءهم له عن قرب ويجيب دعاءهم له بقوله **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾**[٣].

وقربه سبحانه من عباده مبين بقوله **﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾** ق ١٦. ولذلك وجب أن يكون دعاؤه سبحانه وتعالى مخلصاً فيه لقوله تعالى **﴿مخلصين له الدين﴾** غافر: ١٤.

والدعاء الخالص لله رب العالمين تواردت الآثار بالترغيب فيه والحث عليه من ذلك قوله ﷺ من حديث أبي هريرة (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء) أخرجه الترمذي[٤] وابن ماجه وصححه ابن حبان والحاكم.

وعنه أيضاً (من لم يسأل الله يغضب عليه) أخرجه أحمد[٥] والبخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن ماجه والبزار والحاكم.

بل اعتبرته النصوص مخ العبادة كما في الحديث الذي رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً (الدعاء مخ العبادة)[٦] بل هو العبادة لحديث النعمان بن

---

(١) الأنعام ٤١ ـ ٤٢.
(٢) الراغب الأصفهاني في معجم القرآن ص٦٧١.
(٣) البقرة ١٨٦.
(٤) جامع الأصول: ٥١١/٩.
(٥) الفتح الرباني: ٢٦٧/١٤ بلفظ (من لم يدع).
(٦) انظر فتح الباري جـ ١ ص٩٤ وجامع الأصول: ٥١١/٩.

بشير رضي الله عنهما. قال: قال رسول الله ﷺ (الدعاء هو العبادة) وقرأ **﴿وقال: ربكم أدعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾** غافر: ٦٠[1].

ولابن أبي حاتم أن أعرابياً قال يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾** البقرة ١٨٦[2].

إذا علمت ذلك فاعلم أن المسلمين قد أجمعوا على عدم جواز دعاء من سواه سبحانه وتعالى دعاء عبادة أو مسألة لأن الله عز وجل أنكر على من يدعو أحداً من دونه ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً **﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم﴾** المائدة ٧٦. بل نهى نبيه عن ذلك وتوعده بقوله **﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾** يونس ١٠٦.

أما الدعاء إذا قرن بالتوسل الذي يعني التقرب والتوصل إلى الله برغبة بواسطة فهو على حالات اتفق المسلمون على جواز بعضها لثبوت أدلتها في الكتاب والسنة وصراحة مدلولها وهي في ثلاث حالات:

أحدها: التوسل بأسمائه تعالى الحسنى وصفاته العلى لقوله تعالى **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾** الأعراف: ١٨٠ ولما ورد من دعائه ﷺ بأسمائه تعالى وصفاته في الكثير من أدعيته المشهورة.

ثانيها: التوسل بعمل صالح قام به الداعي لثبوت ذلك في صحيح البخاري ومسلم في قصة أصحاب الغار الثلاثة الشهيرة[3].

وثالثها: التوسل بدعاء رجل صالح وقد دل على ذلك أحاديث صحيحة وعمله

---

(١) جامع الأصول: ٥١١/٩.

(٢) انظر مختصر ابن كثير: ١٦٣/١.

(٣) صحيح البخاري: ٣٠/٨ صحيح مسلم: ٢٠٩٩/٤ رقم ١٠٠.

الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في توسله بالعباس عم رسول الله ﷺ[1].

وهذه الحالات لم يختلف في مشروعيتها وجوازها أحد من علماء المسلمين وإنما اختلفوا فيما عداها وهو المذكور في قول الشهيد الإمام البنا رحمه الله (التوسل إلى الله بأحد من خلقه) في مطلب يطلبه العبد من ربه والخلاف الدائر بين أهل العلم في هذا النوع من الدعاء محصور في ثلاثة آراء:

أحدها: المنع مطلقاً أخذاً بعموم الأدلة التي تدعو المسلم إلى الاتصال بربه مباشرة ومن غير اتخاذ وسائط من المخلوقين مهما كانت مكانتها وقدرها ودرجتها وممن كره ذلك الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى.

الثاني: جواز التوسل في الدعاء بذات محمد ﷺ لا سواه أخذاً بحديث الضرير وقصروه على نص الحديث وجعلوه خاصاً برسول الله ﷺ وبهذا قال الإمام أحمد وابن العربي من المالكية رحمهما الله تعالى.

الثالث: جوازه مطلقاً بذات النبي ﷺ وكل ولي صالح من المؤمنين من الأحياء والأموات وبه قال كثير من المتأخرين ومنهم الإمام الشوكاني رحمه الله وفي هذا الأخير اشتد الخلاف كثيراً.

ومع شدة الخلاف فإنه لا يخرج عن كونه (خلاف فرعي في كيفية الدعاء) ووجه ذلك أن مسائل الفروع من المسائل الاجتهادية التي تخضع لمفهوم وإدراك أهل العلم من المجتهدين البالغين هذه الدرجة ومسائل الفروع المصيب له أجران والمخطىء له أجر ومعذور في خطأه ما دام يقصد الحق وينشده والخلاف في المسائل الفرعية لا يتوقف على الخطأ فيها تفسيق ولا تكفير ولا إشراك وهذه المسألة من هذا القبيل ولذلك قال الشهيد رحمه الله (وليس من مسائل العقيدة) وذلك أن مسائل العقيدة مسائل أصولية لا يجوز الخلاف فيها بل التوقف فيها عندما حددته النصوص الصحيحة

(١) صحيح البخاري: ٢/ ٣٤.

الصريحة ولا يجوز للعقول أن تخوض فيها لأنها لا تدرك حقائقها إلا فيما تولت النصوص بيانها. وأيضاً التوسل ليس من هذا الباب من وجوه:

الأول: إن الطلب من الدعاء متوجه مباشرة إلى الله عز وجل وليس إلى المتوسل به ولذلك فالدعاء حقيقة هو لله عز وجل وليس للمخلوق.

ثانياً: إن المتوسل لا يعتقد أن المتوسل به ممن يملك نفعاً أو ضراً أو ممن يعطي ويمنع فإن اعتقد ذلك فقد أشرك بالاتفاق وإنما يعتقد أن للمتوسل به جاهاً ومقاماً عند الله عز وجل بسبب عمله الصالح ولذلك يرجو استجابة دعائه عند الله عز وجل فهو في الحقيقة متوسل بعمله الصالح أو دعائه المستجاب.

ثالثاً: إن نصوصاً وردت يظهر منها مشروعية مثل هذا الفرع من الدعاء وإن كان الخلاف دائراً بين أهل العلم حول صحتها والمراد من معاني الصحيح منها.

ولهذه الوجوه والملابسات اعتبرت هذه المسألة من مسائل الفروع لا من مسائل الأصول والعقائد.

والذي يترجح من هذه المسألة أن القائلين بالمنع أقوى حجة وأقوى مستنداً والالتزام به التزام بما اتفق عليه. والأحوط للمسلم تجنب المختلف فيه ما لم تكن ثم ضرورة قدر المستطاع ولا ضرورة هنا بل إنه الأسلم للدين والأحوط من الوقوع فيما يخالف الشرع من حيث لا يشعر المسلم وهو الأنسب لسد الذرائع من الوقوع فيما هو أعظم ومتفق على تحريمه وهو الاستغاثة وما شابهها من أنواع الأدعية غير المشروعة.

هذا خلاصة قول أهل العلم في هذا الباب ومن أراد مزيداً من الإيضاح وعرضاً أكثر للدلالة فعليه الرجوع إلى كتاب التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية، وشرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي وفتح الباري للحافظ ابن حجر ج ١ ص ٢٩٥، وكتاب الدرر المضيئة للإمام الشوكاني وكتاب التوسل للشيخ ناصر الألباني.



الأصل السادس عشر/

الأعراف والعادات معتبرة
ما لم تغير الشرع

(والعرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصودة والوقوف عندها. كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء).



التوضيح والبيان

(العرف) هو ما تعارف الناس وساروا عليه في أمور حياتهم ومعاملاتهم من قول أو فعل أو ترك.

ويسمى العادة على رأى كثير من الفقهاء ولذا يقولون: هما اسمان لما ألفه الناس واعتادوه وساروا عليه في حياتهم. وهو أقسام:

الأول: ينقسم من حيث التسمية: عرف قولي وعرف عملي:

فالعرف القولي: مثل تعارف الناس على إطلاق كلمة الولد على الذكر دون الأنثى مع أنها في اللغة تطلق على الاثنين ومنه قوله تعالى ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ النساء ١١.

العرف العملي: مثل تعارف الناس على البيع بالتعاطي دون استعمال الصيغة اللفظية في البيع.

ثانياً: وينقسم من جهة عمومه وخصوصه إلى عام وخاص.

فالعرف العام: ما يتعارفه الناس في جميع البلاد في وقت من الأوقات كتعارفهم على دخول الحمامات من غير تعيين مدة المكث فيها وتعيين مقدار الماء المستهلك.

والعرف الخاص: هو ما يتعارفه أهل بعض البلاد كتعارف بعض أهل اليمن على تعجيل قسم من المهر وتأجيل الباقي إلى أقرب الأجلين الموت، أو الطلاق.

وما يتعارفه أهل طائفة دون غيرها من الطوائف كتعارف التجار على

إثبات ديونهم على من يتعامل معهم في دفاترهم الخاصة من غير إشهاد.

الثالث: وينقسم العرف من حيث صحته وفساده إلى قسمين: صحيح وفاسد.

فالصحيح: ما تعارفه الناس وهو لا يخالف نصاً من نصوص الشريعة ولا قاعدة من قواعدها وإن لم يرد به نص خاص. وهذا القسم لا خلاف بين أهل العلم في اعتباره والاعتداد به وملاحظته في الاستنباط وعند التطبيق والقضاء.

والفاسد: ما تعارفه الناس ولكنه يخالف أحكام الشريعة وقواعدها الثابتة وهو ما عناه الشهيد البنا رحمه الله تعالى في هذا الأصل بقوله (والعرف الخاطىء لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصودة والوقوف عندها). كتعارف كثير من الناس على فعل بعض المنكرات مثل التعامل بالربا وشرب الخمر والسحت والقتل والزنا وغير ذلك. بعد تسميتها بغير اسمها أو بفعل غير فعلها مؤد إلى حقيقة فعل المحرم مقصوده.

ويدل على هذا حديث ابن ماجه مرفوعاً (لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها)[١] وحديث ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً (يأتي على الناس زمان تستحل فيه خمسة أشياء يستحلون الخمر باسم يسمونها إياه، والسحت بالهدية، والقتل بالرهبة، والزنا بالنكاح والربا بالبيع)[٢] وهذا حق فإن استحلال الربا باسم البيع ظاهر كالحيل الربوية التي صورتها صورة البيع وحقيقتها حقيقة الربا (كبيع العينية) ومعلوم أن الربا إنما حرم لحقيقته ومفسدته لا لصورته واسمه فهب أن المرابي لم يسمه ربا وسماه بيعاً فذلك لا يخرج حقيقته وماهيته عن نفسها. وكذلك لتسميتهم الربا

(١) سنن ابن ماجه: ٢/١١٢٣ رقم ٣٣٨٤.
(٢) هذا الحديث ذكره ابن القيم في أعلام الموقعين: ٣/١٥١ عن شيخه ولم أجده في كتب السنن ولا المعاجم فليعلم.

بالفائدة مهما قلت فإنها ربا. وأما استحلال الخمر باسم آخر فكما استحل من استحل السكر من غير عصير العنب وقال: لا أسميه خمراً وإنما هو نبيذٌ أو (بيرة) أو شراب روحي أو ما شابه ذلك وكما يستحلها طائفة من المجان إذا مزجت ويقولون: خرجت عن اسم الخمر كما يخرج الماء بمخالطة غيره له عن اسم الماء المطلق وكما يستحلها من يستحلها إذا اتخذت عقيداً لا خمراً ومعلوم أن التحريم تابع للحقيقة والمفسدة لا للاسم والصورة فإن إيقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة لا تزول بتبديل الأسماء والصور عن ذلك وما يحصل هذا إلا من سوء الفهم وعدم الفقه عن الله ورسوله.

وأما استحلال السحت باسم الهدية. فهو أظهر من أن يذكر كرشوة الحاكم والوالي وغيرهما. فإن الراشي ملعون هو والرائش والمرتشي لما في ذلك من المفسدة.

وأما استحلال القتل باسم الإرهاب الذي يسميه ولاة الجبرية سياسة الرهبة. وناموساً وحرمة للملك فهو أظهر من أن يذكر. وأما استحلال الزنا باسم النكاح فهو الزنا بالمرأة التي لا غرض له أن يقيم منها ولا أن تكون زوجته وإنما غرضه أن يقضي منها وطره أو يأخذ جعلاً على الفساد بها ويتوصل إلى ذلك باسم النكاح أو إظهار صورته وهذا هو التحليل والتيس المستعار.

وكذلك كل من استحل محرماً بتغيير اسمه وصورته كمن يستحل الحشيش باسم لقمة الراحة ويستحل المعازف كالطنبور والعود واليَرْبُط ـ وهو العود أيضاً ـ باسم يسميها به وكما يسمى بعضهم المغني بالحادي والمطرب والقوال والفنان الخ فالعبرة بحقائق الأشياء ومعاني الألفاظ وما تنطوي عليه لا سوى ذلك يقول ابن القيم الجوزية: لو أوجب تبديل الأسماء والصور تبديل الأحكام والحقائق لفسدت الديانات وبدلت الشرائع واضمحل الإسلام[1]

ثم يقول الشهيد رحمه الله (كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء).

---

(١) انظر اعلام الموقعين جـ ٣ ص١٥٠/١٥٢.

يقول سعيد حوى (أقول وقد أخذ الخداع اللفظي في عصرنا هذا مداه حتى أثر على كثير من مواقف المسلمين).

ومن جملة ذلك خداع الشعارات التي تحدثنا عنها في كتاب (من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك) فبحجة أن في الإسلام مساواة أراد قوم أن يساووا بين الكافر والمسلم، والله عز وجل يقول ﴿**أفنجعل المسلمين كالمجرمين**﴾ القلم: ٣٥.

وبحجة أن في الإسلام إخاءً أرادوا أن يجعلوا الكافرين إخوة للمؤمنين والله عز وجل يقول ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ الحجرات ١٠.

وبحجة أن الإسلام منصف الفقير أرادوا أن يجعلوا الإسلام هو الماركسية التي تنفي وجود الله أصلاً.

ولقد رتب الكثيرون من الخداع اللفظي ليحرفوا المسلمين ولذلك حذرنا الأستاذ البنا رحمه الله من ذلك[١].

والخلاصة:

إن هذه الألفاظ والمعاني والشعارات إن كانت مصادمة للحقائق الشرعية وجب تركها وعدم متابعتها وإن كانت تحمل حقاً وباطلاً استعيض عنها بغيرها من الأسماء أو الألفاظ الشرعية الواضحة الدلالة والمفهوم مثل القومية فهي تحمل معاني باطلة كثيرة وهي يقصدها الداعون إليها والناطقون بها فيجب هجر هذا اللفظ وعدم الدعوة إليه.

والأصل الجامع في مثل هذه المسائل أن على المسلم أن يستعمل الألفاظ الشرعية وأن يترك غيرها ما وسعه ذلك وإذا استعمل لفظاً مشتبهاً فعليه أن يحدد المراد منه حتى لا يحصل التباس ولا إبهام عند السامعين[٢].

---

(١) في آفاق التعاليم ص١٠٢.

(٢) عبد الله البنا/ شرح الأصول العشرين ص٥٦.

الأصل السابع عشر/٥

العقيدة وعمل القلب

(وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كل مطلوب شرعاً. وإن اختلفت مرتبتا الطلب).



بين يدي هذا الأصل:

١/العقيدة في الإسلام هي الأساس الأول الذي تبنى عليه جميع الأقوال والأفعال بل وكينونة هذا الإنسان ويعرف من خلالها صحة العمل وقبوله واستحقاق الجزاء عليه كما دلت على ذلك النصوص الشرعية كما سيأتي ذكرها في محله.

٢/القلب: هو منبع العقيدة ومقرها وفيه تستقر وفيه تنمو وتترعرع بما يتعهدها الإنسان فيه من وسائل النمو والزيادة والتقوية التي أشار إليها القرآن في أكثر من موضع وبينتها السنة في أكثر من مكان.

٣/هناك عملان معتبران في الشرع يلزم المسلم بأن يحققهما واقعاً في حياته معاً وأحدهما مرتبط بالآخر يتوقف على كل قبول عمل الآخر عليه عند الله وحسن الجزاء عليه سيما وللشرع بيان وتفصيل لكلا العملين ما فيه قيام للحجة وإزالة لكل شبهة: هما: عملَ القلب، وعمل الجارحة.

وقد ألف علماء الإسلام لكل عمل كتباً توضح غايته وكيف يؤدى وتبين وجه الربط بين العملين وضرورة التحقق بذلك، وهي كتب الفقه وكتب الزهد فعلى المسلم أن يسعى جاداً على تحصيل الكمال في كلا العملين مستعيناً بهذه الكتب في هذا الباب.

٤/مما لا شك فيه أن الأصل أفضل من الفرع. ومحل الخطاب والتلقي أفضل من جهة التنفيذ والأداء ولذلك كان عمل القلب أفضل من عمل الجارحة لأن عمل القلب كالشجرة وعمل الجارحة هو الثمرة والنفع التام لا يحصل إلا بحصول الأمرين. وقد دل على هذه الأفضلية كثير من النصوص سيأتي

ذكر بعضها. ومن أجل ترسيخ هذه المعاني في هذا الباب وضبط مسار الفهم فيها وضع الشهيد البنا رحمه الله هذا الأصل.

التوضيح والبيان

(العقيدة) جمعها عقائد وهي ما عقد عليه القلب والضمير ويطلق على ما ادين به الإنسان واعتقده. هذا لغة.

أما اصطلاحاً: فهي التصديق بالشيء والجزم به دون شك أو ريبة فهي بمعنى الإيمان يقال: اعتقد بكذا أي آمن به، وعرَّفها الشهيد البنا رحمه الله في رسالة العقائد بقوله (هي الأمور التي يجب أن يصدق بها قلبك. وتطمئن إليها نفسك وتكون يقيناً عندك لا يمازجه ريب ولا يخالطه شك). ثم يقول (والناس في قوة العقيدة وضعفها أقسام كبيرة بحسب وضوح الأدلة وتمكنها من نفوس كل قسْم فمنهم من تلقاها تلقيناً واعتقدها عادة وهذا لا يؤمن عليه أن يتشكك إذا عرضت له الشبهات.

ومنهم من نظر وفكر فازداد إيمانه وقوي يقينه ومنهم من أدام النظر وعمل الفكر واستعان بطاعة الله تعالى بامتثال أمره وإحسان عبادته فأشرقت مصابيح الهداية في قلبه فرأى بنور بصيرته ما أكمل إيمانه وأتم يقينه وثبت فؤاده **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾** محمد ١٧.

والعقيدة الإسلامية تنقسم إلى أربعة أقسام رئيسية في كل قسم منها فروع عدة هي: الإلهيات /النبوات/ والروحانيات/ والسمعيات.

قلت هي مجموعة أصولها في أواخر سورة البقرة في قوله تعالى **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾** الآية ٢٨٥.

وفي حديث جبريل في تعليم الدين متفق على صحته[1].

---

(١) صحيح البخاري: ١٩/١ صحيح مسلم: ٣٧/١.

ولما كان الإيمان يمثل العقيدة والأصول التي تقوم عليها شرائع الإسلام وعنها تنبثق وتتفرع. والعمل يمثل الشريعة والفروع التي تعتبر امتداداً للعقيدة ذكر الشهيد البنا رحمه الله هذا المعنى في هذا الأصل قوله (والعقيدة أساس العمل) أي صحة وقبولاً ومجازاة.

فالعمل الصادر من غير عقيدة غير صحيح وغير مقبول عند الله عز وجل ولا يستحق صاحبه عليه جزاء.

ومما أجمع عليه أهل العلم المعتد بهم أن لا يطالب الكافر بفرائض الإسلام إلا بعد أن يقر بالشهادتين ويعتقد حقيقتهما.

ومستند إجماعهم عمل الرسول ﷺ إذ أنه لا يلزم أحداً بتعاليم الإسلام إلا بعد أن يدعوه إلى الإقرار بالشهادتين والايمان بهما بل كان ﷺ يأمر من يرسلهم دعاة ومعلمين أو مجاهدين بأن يفعلوا ذلك فمعاذ رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن داعياً ومعلماً قال له (أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن أقروا بذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة.. الحديث[1] وكذلك أمر علياً وخالداً وغيرهما أن لا يغيروا على قوم حتى يدعوهم إلى الإسلام[2] وفي مقدمة الإسلام الإقرار بالشهادتين وهي أصل العقيدة.

ومما يدل على ما قلنا آيات كثيرة تدل على بطلان أعمال الكافرين والمنافقين وعدم قبولها واستحقاقهم للجزاء عليها من ذلك قوله في بطلان أعمالهم وإحباطها قوله تعالى **﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾** المائدة: ٥ وقوله تعالى **﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾** الأنعام: ٨٨.

وقوله تعالى **﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم أولئك الذين**

---

(١) صحيح البخاري: ٢/١٣٠ صحيح مسلم: ١/٥٠ ـ ٥١.
(٢) جامع الأصول: ٢/٥٨٩.

حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ آل عمران: ٢١، ٢٢، ٢٣.

وفي عدم القبول قوله تعالى **﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾** المائدة ٢٧ وقال في عدم قبول أعمال المنافقين **﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾** التوبة: ٥٣.

وفي عدم الجزاء على الأعمال قوله تعالى **﴿فقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾** الفرقان: ٢٣.

وقوله تعالى **﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون على شيء مما كسبوا وذلك هو الضلال البعيد﴾** إبراهيم: ١٨.

وقوله تعالى **﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾** النور: ٣٩.

والمنافقون أيضاً لما كانوا في حقيقة الأمر ليسوا بمؤمنين فقد بين الله عز وجل حبوط أعمالهم في أكثر من آية من ذلك قوله تعالى **﴿ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾** المائدة: ٥٣.

وقوله تعالى: **﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً أشحةً عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا﴾** الأحزاب: ١٨، ١٩.

والعقيدة والعمل كلاهما مرتبط بالآخر ارتباط الشرع بالأصل والثمرة - بالشجرة ومن أجل هذا الارتباط الوثيق يأتي العمل مقترناً بالإيمان في أكثر من

آية ﴿وبشر الذين آمنوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ البقرة: ٢٥.

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ النحل: ٩٧.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ مريم: ٩٦.

إذا علمت ذلك فاعلم أن العقيدة (الإيمان) منشؤها القلب ولا بد فيها من شيئين كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته ويقال لهذا قول القلب قال الجنيد بن محمد، التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب فلا بد فيه من قول القلب وعمله ثم قول البدن وعمله. (وعمل القلب أهم من عمل الجارحة) كما يقول الشهيد البنا رحمه الله وذلك أن القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وأراد هوى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهي القلب) متفق عليه[1].

وقال أبو هريرة: القلب الملك والأعضاء جنوده. فإذا طاب الملك طاب جنوده، وإذا اخبث الملك خبث جنوده. قال شيخ الإسلام ابن تيمية قول أبو هريرة تقريب وقول النبي ﷺ أحسن بياناً فإن الملك وإن كان صالحاً فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس فيكون فيهم صلاح مع فساده أو فساد مع صلاحه بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي ﷺ (إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله) فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق كما قال أئمة أهل الحديث (قول وعمل) قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر،

(١) صحيح البخاري: ٦٩/٣ صحيح مسلم: ١٢١٩/٣.

والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد ولهذا قال من قال من الصحابة في حق المصلي العابث (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه)[1] فلا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما قال الله تعالى ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله**﴾ فوصف الذين آمنوا أنهم أشد حباً لله من المشركين لأندادهم. وأهمية عمل القلب المطلوب على عمل الجارحة يظهر في أمور كثيرة منها:

١ ـ أن القلب أصل والجوارح فرع كما يدل على ذلك الحديث المار ذكره والأصل أهم من الفرع بل وأشرف، قال تعالى ﴿**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم**﴾ الحج: ٣٧.

٢ ـ أن الله سبحانه وتعالى بين أنه لا ينفع عنده إلا القلب السليم وما ذاك إلا لأهمية عمله قال تعالى ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾ الشعراء: ٨٨، ٨٩. ولقد كان النبي ﷺ يقول (اللهم إني أسألك قلباً سليماً)[2] وفي الحديث الشريف (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه)[3] أخرجه أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً. والمراد باستقامة إيمانه استقامة أعمال جوارحه فإن أعمال جوارحه لا تستقيم إلا باستقامة القلب ومعنى استقامة القلب أن يكون ممتلئاً من محبة الله ومحبة طاعته وكراهية معصيته.

٣ ـ لأن الله عز وجل في كثير من آياته ما ذكر العمل الصالح إلا وقدم ذكر الإيمان والتحقق به عليه قال تعالى ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ البقرة: ٢٧٧ وقال ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ البقرة: ٦ وكرر هذا في أكثر من موضع وهذا يدل على أهمية عمل القلب.

---

(١) الجامع الصغير: عن أبي هريرة ورمز له بالضعف: ١٣٠٠ وقال الشيخ الألباني نقلاً عن المناوي انه قول سعيد بن المسيب وهو ضعيف وروي مرفوعاً وهو موضوع .سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني رقم (١١٠).

(٢) جامع الترمذي: ٢٩٣/١٢ بأعلا عارضة الأحوذي.

(٣) مسند أحمد: ١٩٨/٣.

٤ ـ أهميـة نوعيـة عمل كـل من القلب والجارحـة وذلك إن من أعمـال القلب المطلوبة: الإيمان والإخلاص، والتـوكل، والإحسـان، والشكر، والنـدم على المعصية.

ومن أعمال الجوارح المطلوبة: الصلاة والزكاة والصوم والحـج والذكـر والتلاوة وبالنظر في كلا العملين تجد أن عمل الجوارح مرتبط قبـوله أو صحتـه أو الجزاء عليه بتوافر عمـل القلب فيها، ومـا ذاك إلا لأهمية عمـل القلب عن عمل الجوارح، وكذلك قل في عمل كل في الممنوع من حيث الخطورة.

فمن عمـل القلب الممنوع الكفـر، النفاق، الـرياء والحسـد والعجب، الكبر، الغرور.

ومن عمل الجوارح الممنوعة القتل، والزنا وأكل الربا وإيذاء المسلمين واستعمال اللسان في غيبة أو نميمة إلى غير ذلك من المحرمات وممـا لا شك فيه أن أعمال القلب هنا أخطر من عمل الجوارح.

إذا علمت أهميـة عمل القلب وفضله وخـطـورتـه على عمـل الجارحـة فـاعلم أن الواجب مـع ذلك (تحصيـل الكمـال في كـل مـطلوب شـرعـاً وإن اختلفت مرتبتا الطلب) وذلك أن الإيمان لا يكمل إلا بذلك لتلازمهما ولتوقف كمال أحدهما على الآخر لأن الإيمان اعتقاد بـالقلب، ونطق بـاللسان وعمـل بالجوارح فلا يكمل إيمان المؤمن إلا بكمال كل هذه الثلاثة.

والإيمان ليس معنى ثابتاً لا يقبل زيادة أو نقصاناً بل هو كما يقول أهـل السنة يزيد وينقص: يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ومن الطاعات ما يتعلق بعمل الجوارح فبالتحقق بها يرقى القلب بأعماله إلى الكمال بزيادته ونمائه.

والقول بزيادة الإيمان ونقصانه قال به سلف الأمة وخيارهـا وقد دل على ذلك الكتاب والسنة. أورد البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان كثيراً منهـا فليرجع إليه، وقد روى أبو القاسم الألكائي بسنده الصحيـح عن البخاري أنـه قال: لقيت أكثر من ألف رجـل من العلماء في الأمصـار فما رأيت أحـداً منهم يختلف في أن الأيمان قول وعمل ويزيد وينقص.

وبناء على هذا الأصل فقد اقتضى طلب الاستكمال لكل من العملين عمل القلب وعمل الجارحة بمختلف الطاعات وفي مقدمتها الفرائض والسنن وهذا عين ما فهمه سلف هذه الأمة لاستكمال إيمانها.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان فإن أعش فسأكتبها لكم حتى تعملوا بها وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص).

وروى أحمد بن حنبل بسنده عن أبي ذر قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأصحابه: هلموا تزودوا إيماناً فيذكرون الله عز وجل وبمثل هذا روي عن معاذ وعبد الله بن رواحة[١].

وقال أبو عبيد في الغريب في حديث علي إن الإيمان يبدو لمظة في القلب كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة[٢].

وقال مالك بن دينار: الإيمان يبدو في القلب ضعيفاً حينئذ كالبقلة فإن صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة وأمات عنه الدغل وما يضعفه وما يوهنه أوشك أن ينمو ويزداد ويصير له أصل وفروع وثمر وخلل ما لا يتناهى حتى يصير مثل الجبال.

وإن صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءته عنز فنتفتها أو صبي فذهب بها أو كثر عليه الدغل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها كذلك الإيمان ومما يدل على طلب التكميل لكلا العملين، عمل القلب وعمل الجارحة قول الرسول ﷺ (من أحب في الله وأبغض في الله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان) أخرجه أبو داود من حديث أبي امامة والترمذي من حديث معاذ وزاد أحمد (ونصح لله) وفي رواية أخرى (ويعمل لسانه في ذكر الله)[٣].

---

(١) انظر حياة الصحابة: ٣/١٤.

(٢) انظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية جـ ٧ ص٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٣) انظر فتح الباري جـ ١ ص٢٥ سنن أبي داود: ٢/٥٢٣ الترمذي: ٩/٣٢٢.

وأخرج البزار بسنده عن أنس مرفوعاً (ثلاث من كنّ فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان خلق يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن معصية الله، وحلم يرده جهل الجاهل)[1].

بل إن القرآن الكريم في أكثر من آية يبين أن تحصيل الكمال في عمل القلب وعمل الجوارح معاً هو المطلوب وبهما تتحقق النجاة والسعادة. من ذلك قوله تعالى **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾** البقرة: ١٧٧.

وقال تعالى: **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾** فصلت: ٣٠.

وقال تعالى **﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾** سورة العصر.

وقد كتب علماء الإسلام قديماً وحديثاً كتباً منها المطول والمختصر لتعليم المسلم كيفية تحقيق هذا التكميل لكلا العملين ومن أشهر هذه الكتب مدارج السالكين لابن القيم الجوزية وكتاب الإحياء للإمام الغزالي ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة وغيرها من الكتب النافعة فليرجع إليها.

(١) ذكره في الجامع الصغير ورمز له بالضعف.



الأصل الثامن عشر

قيمة العقل وأثره وحدود عمله

(الإسلام يحرر العقل، ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح والنافع من كل شيء، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها).

بين يدي هذا الأصل والذي يليه

١ ـ من خصائص الإسلام الأولى أنه دين يقوم على العقل ويحترم منطقه ويبني الإيمان على التفكير الصائب والنظر العميق والعلم القائم على الدليل والبرهان واعتبر أحد وسائل الوصول إليه العقل السليم.

ومما يؤكد هذه الحقيقة تشريف الله عز وجل للعقل بالخطاب وجعله مناط التكليف، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في اثنين وأربعين آية جاء ذكر العقل فيها بصيغ متعددة[١].

٢ ـ العقل أثمن ما وهبه الله لعباده، وهو لا يولد تماماً ناضجاً، وإنما يتم وينضج بالوسائل التي تعالج بها معادن الرجال والنساء، فإذا لم تتوفر تلك الوسائل كان التخلف والقصور، واختفى دور أولي الألباب الذين يقدرون على الإفادة، وقد تكرر ذكرهم في القرآن خمس عشرة مرة، وأولو الألباب هم أصحاب العقول[٢].

٣ ـ لقد عني الإسلام بتربية العقل وإنضاجه عناية تامة بمختلف الوسائل والأساليب بحيث يبدأ بتحديد مجال النظر العقلي فيصون طاقته أن تتبدد وراء الغيبيات التي لا سبيل للعقل البشري أن يحكم فيها.

ثم بعد ذلك يأخذ في تدريب الطاقة العقلية على طريقة الاستدلال المثمر والتعرف على الحقيقة فيتخذ لذلك وسيلتين:

---

(١) انظر المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم.
(٢) الغزالي دستور الوحدة الثقافية.

الأولى: هي وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي ويصل إليها بطائفة من التوجيهات والتدريبات.

والثانية: هي تدبر نواميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط لتطبع العقل بطابع من الدقة والتنظيم، ولتوضيح هذه الأمور يرجع إلى كتاب منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب فقد أجاد وأفاد[1].

٤ ـ إن دعوة الإسلام إلى إعمال العقل بتوجيهه الدائم إلى التدبر والتفكر في كل جوانب الحياة والكون للتعرف على الحقائق بشمول وعمق هو منهج العلم الذي يرفع من شأن البحث العلمي الذي يوصل إلى معرفة الحق، ويؤدي إلى الإذعان له، كما يقوم عليه العلم الصحيح من الحجة القوية والبرهان المقنع وليس يقبل في هذا المنهاج الاعتماد على الظن والتخمين طريقاً موصلاً إلى المعرفة وإدراك الحقائق ولقد دعا القرآن الكريم الضالين المكذبين من المشركين وأهل الكتاب إلى أن يأتوا ببرهان على ما يزعمون إن كانوا صادقين ﴿**أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾ النمل: ٦٤ :[2].

في هذا الأصل ضبط لمسار فهمين متغايرين حول العقل وتوجيه لهما للوجه الصحيح.

أحدهما: القاضي بتجميد العقل وتعطيل طاقته وأسره بأنواع من الشعوذة والخرافات والطلاسم وتحجيره بالتقليد الأعمى والتبعية المطلقة للقديم المألوف كما هو حال القائلين ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾.

والثاني: القاضي بإطلاق العقل في خيالاته وشطحاته في كل شيء وبدون حدود وفي غير مجالاته وميادين عمله واعتبار العقل هو كل شيء

---

(١) التربية الإسلامية موضوع تربية العقل ص١١٩.

(٢)) عمر عوده لمحات من الثقافة الإسلامية ص٢٢٠.

فضلَّ وأضلَّ كالماديين والفلاسفة ونحوهم، فبين أنه حر طليق في مجاله وميدان عمله وفي غير ذلك مضبوط بمنهج دقيق لا يزول عنه ولا يحول فيتواءم مع الفطرة وينسجم مع نواميس الكون ولا يصطدم بقوانينه ونظامه، وهذا بيان ذلك وتوضيحه.

التوضيح والبيان

(الاسلام) الدين المعتبر عند الله عز وجل الذي لا يقبل سواه، الكامل المرتضى لعباده موصوف بكونه (يحرر العقل) مصدر عقل وهو: القوة الواعية في الإنسان أو المدركة على وجه العموم.

وهو من أعظم النعم التي أنعم الله عز وجل بها على الإنسان وامتن بها عليه وبين أن قليلاً من يشكرها: ﴿**قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون**﴾ الملك ٢٢ والفؤاد يستخدم في القرآن بمعنى العقل.

ووظيفة العقل الممنوحة له من الله عز وجل هي التأمل والنظر والتفكر ولذلك فإن الإسلام يحث على النظر في الكون فإذا تعطلت هذه القوى يظل العقل معطلاً عن أهم وظائفه مسلوباً من خصائصه وتبعاً لذلك يتوقف نشاط الحياة مما يتسبب عنه الجمود والموت والفناء[١].

والآيات التي تنتهي بكلمة يعقلون، ويعملون، ويتفكرون، ويتدبرون، كثيرة جداً ومثلها الآيات التي تحض على النظر والتأمل والتدبر، والتفكر.

فالإسلام يجعل من التفكير والتأمل الطريقة المثلى لمعرفة الله وخشيته والاستمساك بشرعه والوقوف عند حدوده وليس من المعقول أن يتم هذا كله إلا في ظل حرية واعية للعقل في تفكيره وفي التعبير عن هذا التفكير، وقد

---

(١) انظر العقائد الإسلامية لسيد سابق ص١٩.

تضمنت هذه المعاني آية واحدة هي قوله تعالى **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾** آل عمران ١٩٠ ـ ١٩١.

وفي الحديث: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها[1]. وهكذا جاء الإسلام ليطلق العقل من أساره ويضع عنه الأغلال التي عطلته زمناً طويلاً **﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾** يونس ١٠١.

﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾ الأعراف: ١٨. هذه الأغلال التي تمثلت في سلطان الخرافة والأوهام فبددها بما ربط به العقل من حقائق هذا الوجود وبتعريفه بالإله الحق المعبود وأعلن له في وضوح مشرق أن سنن الله في الكون لا تتبدل وأن الغيب لا يعلمه إلا الله وأن الخير كل الخير في احترام السنن ورعاية قانون الأسباب والمسببات لا في السحر والكهانة والعرافة والتنجيم والتعلق بالمخلوقات.

وتمثلت في الجمود والتقليد فكسر ذلك بحثه على النظر والتأمل والتفكر في أكثر من آية وحديث، بل لقد نعى على الذين لا يتفكرون ولا يتدبرون بقوله **﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾** يوسف: ١٠٥ وندد بالمقلدين الذين لا يفكرون إلا بعقول غيرهم ويجمدون على القديم المألوف ولو كان الجديد أهدى وأجدى لهم بقوله **﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾**.

وتمثلت في ضلال الغواية والجهالة ففتح أمام العقل آفاقاً من العلم والعرفان فشمل مجالات عدة تقصر على الدلالة عليها كلمة المسلم بمفهومها الغربي الحديث بما تشمله من علم الدين والدنيا بل (رفع قد العلم والعلماء)

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن حبان في صحيحه وابن مردويه عن عائشة مرفوعاً، فتح القدير للشوكاني: ١/٤١٢.

وغاير بينهم وبين الجهالة والجاهلين **﴿قل هل يستوي الذين يعملون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾** الزمر: ٩. **﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾** فاطر ١٩، ٢٠. ورفعهم على من سواهم **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾** المجادلة: ١١. وبين أن الإيمان الحق لا يكون إلا مع العلم **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** فاطر: ٢٨. ومع ذلك كله فقد أبان الإسلام حدود مدارك العقل وميدان تفكيره وأنه هذا الكون الفسيح بجميع ما فيه **﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾**[1] ولم يحظر عليه إلا التفكير في ذات الله لأن ذات الله فوق الإدراك وفي الحديث (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره) رواه أبو نعيم في الحلية مرفوعاً بسند ضعيف ومعناه صحيح.

والقرآن الكريم مليء بمئات الآيات الداعية إلى النظر في مجالات الكون الفسيحة وآفاقه الرحبة التي لا تحد بحد ولا تقف عند نهاية **﴿كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾** البقرة: ٢١٩ - ٢٢٠.

وهو مع ذلك كله مهما بلغ من العلم لن يصل علمه إلا إلى القليل من مخلوقات الله في الكون **﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾** الإسراء: ٨٥. وهو إذا أعطى العقل حريته من العمل والتفكير فإنه يدعو إلى الأخذ بنتائج ذلك العمل والتفكير ما دامت نتائج صائبة وسليمة وهذا ما فهمه المسلمون وعملوا به على مدار الزمان وكان من نتائج ذلك تلك الحضارة العالية وتلك العلوم والتجارب في كل ميدان من ميادين الحياة التي كانت أساساً في إقامة النهضة الأوروبية الحديثة.

ولقد تميز الإسلام بكونه (يرحب بالصالح والنافع من كل شيء) فهو لا يمنع من الأخذ بما ينفع الناس من الاختراعات الحديثة، والصناعات المختلفة

(١) انظر كتاب العلم من إحياء علوم الدين للغزالي وكذلك مقدمة المجموع للنووي.

وعلوم الطب والفيزياء والكيمياء بل جعلها من فروض الكفاية . لحاجة المسلمين إليها ولأنها من أسباب القوة والإعداد وهي فرض على المسلمين قال تعالى ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ ولقد علمنا كيف استفاد الرسول ﷺ من أسرى المشركين في بدر في تعليم أولاد المسلمين كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه وكذلك إرساله عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة إلى جرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والصنبور[١].

وهذا النافع الصالح من العلوم وسائر الصناعات يأخذها المسلم وإن صدرت من غيره لأنه أحق من غيره بالانتفاع بالصالح من الأقوال والأفعال ولذا يقول الشهيد البنا رحمه الله: والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها وهو مقتبس من حديث ضعيف الإسناد نصه «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها» وقال علي رضي الله عنه: العلم ضالة المؤمن فخذوها ولو من أيدي المشركين[٢].

يقول يوسف القرضاوي .وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على نتائج العلوم المادية المحضة التي لا تصطبغ بعقائد أصحابها ولا بأفكارهم لأنها قوانين كونية عامة يدين بها المؤمن والكافر ويخضع لسنتها البر والفاجر، ومن هنا لم يجد المسلمون حرجاً في اقتباس العلوم الكونية من الطب والكيمياء، والفلك والبصريات والرياضيات وغيرها من أمم الحضارات القديمة مثل اليونان والفرس والروم.

وهذا بخلاف الدراسات الأخرى التي تتصل بالدين والقيم والمفاهيم وتؤثر في وجهة نظر دارسيها في الله والطبيعة والإنسان والتاريخ والمجتمع.

ومَن هنا أنكر النبي ﷺ على عمر حين رآه يقرأ شيئاً من صحائف أهل الكتاب من اليهود، .لأن الله قد أغنى بالقرآن المحفوظ عن كتب أصابها

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص١٤٣.

(٢) جامع بيان العلم ١/١٢٢.

التحريف والتبديل واختلطت بها كلمات الله بأوهام البشر وأهواء الخلق فأفقدت بعضها الثقة .

والدين لا يجوز أن يؤخذ إلا من مصدر إلهي معصوم ثابت النسبة إلى الله .

أما علوم الحياة وفنونها وما يهتدي إليه الناس بعقولهم وتجاربهم فهو ملك عامة البشر تؤخذ من أي وعاء خرج وتلتمسه من الشرق والغرب وتقتبسه من المسلم والمشرك، كما رأيناه ﷺ يستفيد من أسرى المشركين في محو الأمية ويأخذ بفكرة الخندق حول المدينة وهي من أساليب الفرس ويستخدم المنجنيق في حصار الطائف ويخطب على المنبر وهو صنعه نجار رومي، ونرى خلفاءه الراشدين يسنون للأمة أموراً لم يكن للعرب بها عهد إنما اقتبسوها من غيرهم من الأمم إذا رأوا فيها صلاحاً ونفعاً،نحن نرى عمر يستجيب لمقترحات بعض أصحابه فيأخذ بفكرة التاريخ وفكرة تدوين الدواوين .

بل ذهب بعض الباحثين إلى أن التدوين قد بدأ منذ عهد النبي ﷺ أخذاً بما ذكرناه من قبل من الأمر بالإحصاء الكتابي للمسلمين بعد الهجرة[1] وبهذا نرجو أن يكون قد وضح مضمون ما أراده الشهيد البنا رحمه الله والله الموفق .

---

(١) الرسول والعلم ٥٢ ـ ٥٣ .

الأصل التاسع عشر

«الشرع مقدم على العقل مطلقاً كما أنه لا يصطدم معه في الحقائق العلمية أبداً (وقد يتناول كل من النظر الشرعي، والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر ولكنهما لا يختلفان في القطعي، فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة، بقاعدة شرعية ثابتة. ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار)».

التوضيح والبيان

(النـظر): نظر نـظراً في الأمر، أي تـدبره وفكـر فيه ليقدره ويقيسه ومنه النـظرية تجمـع على نظريـات، وهي القضية التي تحتـاج إلى برهـان لإثبـات صحتها[1].

والنظر بهذا المعنى: إما أن يكون نـظراً شرعيـاً، أو نظراً عقليـاً وعاديـاً «فالنظر الشرعي» ما كان ميدان بحثه النصوص الشرعية التفصيليـة ـ والقياس ـ لاستخراج الأحكام حلاً وحرمة لقضايا الإنسان ومسائل الكون والحياة.

والحكم منه القطعي ومنه الظني.

فالقطعي ما كان سنده متواتراً برواية جمع عن جمـع يؤمن تواطؤهم على الكذب، والمتن دالاً على المعنى نصاً لا يحتمـل غيره بـوجه من الـوجوه مثـل قـوله تعـالى ﴿قل هـو الله أحد﴾ يعتبـر حكماً قـطعياً لأنـه قرآن وهـو متواتـر، والمعنى لا يحتمـل إلا وجهاً واحـداً وهـو وحـدانية الله تعـالى، وفي السنـة الشرعية أحكام تواترت معنوياً وإن لم تتواتر لفظيـاً لها صفـة القطع إذا كـانت نصاً لا يتطرق إليه الاحتمال مثل أحاديث رفع اليدين في الدعاء[2]، وحـديث «نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداهـا كما سمعهـا فرب مبلغ أوعى من سامع»[3].. وأحاديث المسح على الخفين[4] ونحو ذلك.

والـظني ما فقـد صفة من صفـات الحكم القطعي مثـل أن يكون النص

---

(١) المنجد مادة نظر.

(٢) انظر فتح الباري: ٧/١٤٢.

(٣) انظر فتح المبين شرح حديث الأربعين: ٣٦ ـ ٣٧.

(٤) انظر نيل الأوطار للشوكاني: ١/٢٢٢.

متواتراً ولكنه يحمل عدة وجوه مثل قوله تعالى ﴿فامسحوا برؤوسكم﴾ فهو من قبيل الدلالة الظنية وإن كان قطعي الثبوت لاحتمال أن يكون المسح للرأس كله أو لبعضه، أو مقدار ثلاث شعرات كما هو معروف من اختلاف العلماء رضوان الله عليهم في مدلوله.

أو يكون من أحاديث الآحاد، وأحاديث الآحاد في جملتها ظنية الثبوت حتى يعززها التواتر المعنوي ويكون مدلول نصها وجهاً واحداً لا سواه.

«أما النظر العقلي» فميدان بحثه الكون وما خلق الله من شيء بوسيلة الاستقراء القائم على التجربة والمشاهدة (العادة) أو الاستنتاج القائم على التأمل والتفكر والتدبر للتوصل إلى معرفة القوانين والسنن الكونية واستخراج الحقائق العلمية إيجاباً وسلباً والحكم عليها. وحكمه منه القطعي ومنه الظني:

فالقطعي: ما يؤمر فيه أمران: إقامة دليل واسع على صحته، ثم إقامته دليل آخر على استحالة غيره.

أما الظني: فهو الرأي المرجح والقائل به في تفسير ظاهرة طبيعية أو تحليل قضية اجتماعية أو نحو ذلك.

ويتضح مما ذكرنا أن هناك دائرتين هي ميدان النظرين الشرعي والعقلي والعقل، والنص الشرعي، قد يعملان فيهما معاً «وقد يتناول كل منهما ما لا يدخل في دائرة الآخر» كما يقول الشهيد البنا رحمه الله مع بقاء العلاقة بينهما وهي سلطان الشرع على العقل وذلك «أن العقل هو الذي يدرك الأحكام العادية وبه يكلف في الأحكام الشرعية وله أحكامه الخالصة المحضة التي هي محل رضى من الشرع وعليه أن يسلم للشرع أحكامه فيكون دوره فيها دور الفاهم ودور المستنبط على ضوئها، والنص الشرعي يفهم على ضوء الحكم العادي وعلى ضوء الحكم العقلي المحض[1].

ويقول الدكتور عبد الكريم عثمان «قد يتساءل البعض عن العلاقة بين

---

(١) انظر جولات في الفقهين الكبير والأكبر: ٣٧.

العقل والوحي وقد رفع البعض من شأن العقل حتى أنكروا عليه أن يصل إلى شيء من الحق وكلا الرأيين لا يتفقان مع وجهة نظر الإسلام.

فمن الخطأ الكبير أن تجعل العقل البشري نداً للوحي لأنه جهاز من أجهزة الكائن الإنساني يتلقى به الوحي وهو مدرك ما يدركه ويسلم ما فوق إدراكه وبسبب ذلك كما يقول سيد قطب «إنه والكينونة الإنسانية بجملتها غير كلي ولا مطلق، ومحدود بحدود الزمان والمكان: بينما البعض يتناول حقائق مطلقة في بعض الأحيان كحقيقة الألوهية وكيفية تعلق الإرادة الإلهية بخلق الحوادث وليس على العقل السليم إلا التسليم بهذه الكليات المطلقة التي لا سبيل إلى إدراكها».

فالوحي أوسع وأشمل وهو الأصل في المعرفة والعقل يعود إليه وهو الميزان الذي يحتكم إليه العقل وخاصة فيما يتعلق بجوهريات الحياة والوجود.

ثم يقول الشهيد البنا رحمه الله «ولكنهما» أي النظر الشرعي والنظر العقلي حين يعمل كل منهما في دائرة غير دائرة الآخر «لن يختلفا في القطعي» مثل كون آدم عليه السلام خلق من طين، وأن هناك شياطين، وجن ناطقة عاقلة، ونحو ذلك.

وبناء على هذه القاعدة «فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة توصل إليها بالنظر العقلي السليم بوسائله المشروعة «بقاعدة شرعية ثابتة» دل عليها النص المتواتر لفظاً ومعنى لاستحالة التناقض بين النص الشرعي القطعي الثبوت والدلالة وبين الحكم العقلي الخالص أو الحقيقة العلمية.

وإذا بدا شيء من ذلك للنظر السطحي فلا بد أن يكون هناك تزوير فيما نسب للدين أو نسب للعلم المتوصل إليه بالنظر العقلي السليم.

إن الدين الحق والعلم الحق يتفقان ولا يختلفان، إن الخلاف قد يقع بين ظني شرعي وظني علمي، أو بتعبير آخر بين نظرية شرعية ونظرية علمية وفي هذا يقول الشهيد البنا رحمه الله «ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي فإن كانا ظنين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع - بل أوجب - حتى يثبت العقلي أو

ينهار» وذلك مثل كروية الأرض فنصوص القرآن تشير إلى هذا المعنى وتحتمله فيؤخذ بهذا الثابت وهو كروية الأرض، من ذلك قوله تعالى ﴿**يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل**﴾ الزمر: ٥ قال النسفي (والتكوير: اللف واللي يقال كار العمامة على رأسه كورها) وفي ذلك إشارة إلى كروية الأرض إذ التكوير لا يكون إلا للشيء الدائري ومن ذلك قوله تعالى ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ النازعات: ٣. والدحو في اللغة العربية من معاينة التكوير ولذلك سمى العرب بيضة النعامة في الرمل الأدحية والأدحوة[1].

ولا يمكن أن يختلف المعنى القطعي في القرآن أو في السنة مع ما يثبت بالدليل القاطع والبرهان الساطع واليقين الثابت، فإن لم يكن هناك ثبوت بهذه الدرجة من اليقين فنحن نفسر آيات القرآن المحتملة لأكثر من معنى حسب ما تقتضيه اللغة العربية مستنيرين بأسباب النزول.

ومع ذلك فإنه كما يقول سيد قطب رحمه الله ليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقاً من النظرية حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق ـ قلت ـ وكذلك السنة لأنها وحي «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى».

فالنظريات العلمية قابلة دائماً للانقلاب رأساً على عقب كلما اهتدى العلماء إلى فرض جديد وامتحنوه فوجدوه أقرب إلى تفسير الظواهر الكونية من الفرض القديم الذي قامت عليه النظريات الأولى، والنص القرآني صادق بذاته قلت وكذلك النص النبوي الصحيح سواء اهتدى العلم إلى الحقيقة التي يقررها أو لم يهتد.

وفرق ما بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية. . فالحقيقة العلمية قابلة للتجربة وثابتة في جميع الأحوال.

أم النظرية فهي قائمة على فرض تفسير ظاهرة كونية أو عدة ظواهر وهي

---

(١) انظر النهاية: ٢/١٠٦.

قابلة للتغيير والتبديل والانقلاب. . ومن ثم لا يحمل القـرآن عليها ولا تحمل هي على القرآن فلها طريق غير طريق القرآن ومجال غير مجال القرآن.

وتلمس موافقات من النظريات (العلمية) للنصوص القـرآنية هـو هزيمـة لجديـة الإيمان بهذا القرآن واليقين بصحة ما فيه وأنه من لدن حكيم خبير.

هزيمة ناشئة من الفتنة بالعلم وإعطائه أكثر من مجاله الطبيعي الـذي لا يصـدق ولا يوثق بـه إلا في دائرتـه، فلينتبه إلى دبيب الهـزيمـة في نفسـه من يحسب أنه بتطبيق القرآن على (العلم) يخدم القـرآن ويخدم العقيـدة، ويثبت الإيمان.

إن الإيمـان الذي ينتـظر كلمة العلم البشـري المتقلبة ليثبت فهـو إيمان يحتاج إلى إعادة النظر فيه.

إن القرآن هو الأصـل والنظريـات العلمية تـوافقه أو تخـالفه سـواء، أما الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن، وقد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكامل حريته ويصل إلى النتائج التي يصل إليها بتجـاربه، واهتم بتربية هذا العقل على الصحة والاستقامة والسلامـة وتحريـره من الوهم والخرافة، كما عمل على إقامة نـظام للحياة، يكفـل لهذا العقـل أن يستقيم، وأن يتحرر وأن يعيش في سلام ونشـاط، ثم تركـه بعد ذلـك يعمل في دائـرته الخاصة ويصل إلى الحقائق العلمية إلا نادراً.

ومـا أثبته القـرآن أثبته العلم التجـريبي من هذه الحقـائق مثل أن المـاء أصل الحياة، والعنصـر المشترك في جميـع الأحياء، ومثـل أن جميع الأحيـاء أزواج حتى النبـات الذي يلقـح من نفسه فهـو يحتـوي على خـلايـا التـذكيـر والتأنيث[1].

وبهذه المناسبـة نقول، أن القـرآن الكريم كتـاب هدايـة وتعليم وسلوك وليس هو كتاب فيزياء أو هندسة أو نبات فهذه العلوم يتعلمها البشر بالملاحظة

---

(١) في ظلال القرآن.

والتجربة ولا حجر على العقول في تعلمها، ولكن القرآن الكريم قد يتطرق إلى بعض مسائل الكون ليلفت النظر إلى قدرة الله عز وجل وبديع صنعه، فيذكر في أثناء ذلك بعض الحقائق الكونية فما يذكره في هذا السبيل هو الحق وما خالفه فهو باطل ما دام النص صريحاً في دلالته على معناه» وقد وضح الشهيد حسن البنا رحمه الله هذا المعنى في رسالته «مقدمات في تفسير القرآن الكريم» مع ضرب الأمثلة نثبت ما قاله هنا للفائدة فيقول: من المقرر - أن القرآن الكريم قد تعرض لكثير من مظاهر هذا الوجود الكونية فتناول خلق الإنسان وتكوين الأرض والسماء وجريان الشمس والقمر وتسخير الكواكب والنجوم والأفلاك، وتراكم السحاب ونزول المطر، وظاهرة الرعد والبرق ونمو النبات وتنوع أصنافه، وعجائب البحار وأعلام الطريق، والجبال الرواسي على هذه الأرض وأطوار الأجنة في بطون أمهاتها، إلى غير ذلك مما يتناوله علماء الكون بالتمحيص والبيان وما هو موضوع بحوثهم ومحل عنايتهم وتجاربهم وكثيراً ما تختم هذه الآيات بالحث على العقل والتفكر والنظر والتدبر إشارة إلى أن القرآن الكريم لم يقصد بهذا التعرض تقرير أصول هذه العلوم أو تناول فروعها ولكنه إنما قصد إلى الهداية وتوجيه الأنظار والنفوس إلى ما تدل عليه من عظمة الخالق وفائدة المخلوق.

ولكن الذي لا يمكن أن يكون محل نزاع هو: أن القرآن حين أشار إلى هذه النواميس الكونية والمظاهر الوجودية المادية كان من دقة التعبير وصدق التصوير بحيث لا يمكن أن يصطدم بما يكشف العقل الإنساني عنه في أطواره المختلفة من حقائق هذه العلوم ومقرراتها وخصوصاً إذا لاحظنا أن هذه المقررات العلمية تنقسم إلى قسمين قسم تظاهرت عليه الأدلة وتوافرت الحجج حتى كاد يلحق بالبديهات، وقسم لا يزال في طور البحث العلمي وكل الذي بين يدي العلماء الكونيين منه فروض تؤيدها بعض القرائن التي لم ترق إلى مرتبة الأدلة القاطعة أو الحجج المقنعة. فما كان من القسم الأول فلا شك أن ما أشار إليه القرآن الكريم منه يوافق كل الموافقة ويطابق كل المطابقة ما عرفه العلماء الكونيون، حتى أنه من الحق أن يقال أن ذلك من

إعجاز هذا الكتاب، الذي جاء به أمي لم يتعلم في مدرسة ولم يلتحق بجامعة من الجامعات، ومن أمثلة ذلك إشارته إلى أطوار الجنين، وتلقيح الرياح، وتكون السحاب وصلته بالرياح... الخ وما كان من القسم الثاني فمن التخمين وظلم الحقيقة أن يوازن بينه وبين ما جاء في القرآن الكريم فلننظر حتى يطمئن الكوني إلى ما بين يديه ويؤمن العقل الإنساني بما وصل إليه ثم ننظر على ضوء هذا الإيمان إلى النص القرآني ولن نجدهما إلا متعاونين على تثبيت «دعائم الحقيقة» **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾** فصلت: ٥٣.

ومن هذا القبيل ما يتصل بنشأة الإنسان وحقيقة الحياة وبدء التكوين وصلة الأرض بالسماء... الخ على أنه من عجيب أمر هذا القرآن حتى في مثل هذه المواطن يسوق التعبير سوقاً عجيباً معجزاً في مرونة عبارة ودقة حتى أنه ليساير بحق تطور العقل الإنساني في كل زمان ومكان وتأمل تصويره لنهاية العالم المادي ووصفه للقيامة وآثارها فيه ترى أنه أتى في ذلك بالعجب العجاب.

وهذا المزلق: ترى أن كثيراً من الكاتبين في هذه المعاني والناظرين إليها ينظرون ويكتبون وقد آمنوا إيماناً لا شك فيه بصحة هذه الفروض العلمية واعتبروها حقائق بديهية مقررة لا نقض فيها ولا إبرام وهم مع هذه الأخطاء لا يكلفون أنفسهم دقة النظر في نصوص القرآن ولطف التركيب في عباراته وسر الوضع في ألفاظه فيتورطون في الحيرة أحياناً وفي التكذيب أحياناً أخرى فما دام دارون عندهم قد قرر أن الإنسان لا بد أن يكون مشتقاً من حيوان آخر فليس للقرآن أن يقول أنه من طين أو صلصال كالفخار حتى لا تصطدم بالكشوف العلمية وفاتهم أنهم لم يحيطوا بما قال دارون ولم يطالعوا ما كتب خصوم نظريته في هدمها وإبطالها وخاصة في هذه الناحية بالذات وما ذكره بعض العلماء من نظريات تعاكسها تماماً[1].

---

(١) الحمد لله قد ظهر للعيان بطلان نظرية دارون علمياً: انظر كتاب التطور والإنسان.

كما فاتهم سر تركيب الانسان في القرآن في قوله تعالى: ﴿**ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون**﴾ السجدة: ٧ - ٨ - ٩.

وفي قوله تعالى ﴿**ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً**﴾ نوح ١٣، ١٤ والحق والإنصاف أن يسلموا بصدق هذه الآيات الكريمة تمام الصدق ولن ينتظروا ما ينتهي إليه علم الإنسان ثم ينظروا بعد ذلك ﴿**والله غالب على أمره**﴾ ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾.

وفي هذا البيان في هذا الباب كفاية ومن أراد المزيد فعليه بالكتب المؤلفة في هذا الباب والتي منها كتابات: الدكتور محمد أحمد الغمراوي والدكتور محمد علي البار، وبحوث الأستاذ عبد المجيد الزنداني والعالم الفرنسي (موريس بكاي) وغيرهم كثير والله أعلم.

الأصل العشرون

ضوابط التكفير وحدوده
عند أهل الحق

(لا نكفر مسلماً أقـر بـالشهـادتين، وعمـل بمقتضاهـا وأدى الفرائض، بـرأي أو معصيـة إلا إن أقـر بكلمـة الكفـر، أو أنكـر معلوماً من الدين بالضرورة أو كذب صريـح القرآن أو فسره على وجـه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر).

بين يدي هذا الأصل

١ ـ «اعلم رحمك الله وإيانا: أن باب التكفير وعدمه عظمت الفتنة والمحنة فيه وكثر فيه الافتراق، وتشتتت فيه الأهواء والآراء وتعارضت فيه دلائلهم فالناس فيه ـ في جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة المخالفة للحق الذي بعث الله رسوله في نفس الأمر، أو المخالفة لذلك في اعتقادهم ـ على طرفين ووسط من جنس الاختلاف في تكفير أهل الكبائر العملية»[1].

فمنهم من لا يكفر مطلقاً بعد الإيمان كالمرجئة ومنهم من يكفر مطلقاً بالذنوب والمعاصي كالخوارج ومنهم من قال بالخروج من الإيمان وعدم الدخول في الكفر والمعاصي مخلد في النار كالمعتزلة ولم يتوسط في هذا الباب إلا أهل السنة والجماعة الذي وضع الشهيد البنا رحمه الله خلاصة معتقدهم في هذا الأصل الذي نحن بصدد توضيحه وبيانه.

٢ ـ لقد كان من نتائج عدم الانضباط بضوابط الشرع في هذا الباب من قبل الطرفين المفرطين والمفرّطين أن جنى المسلمون منها قديماً وحديثاً سلبيات كثيرة من أخطرها التأثير على وحدة المسلمين وتمزيقهم إلى شيع وأحزاب جعل بعضهم يسفك دم بعض.

وأوجدت للمتربصين بالإسلام وأهله منافذ كثيرة على مدار الأزمنة أذاقت المسلمين الويلات وأقحمتهم في كثير من المشكلات.

---

(١) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: ٢ / ٣٣.

٣ ـ لقد كان من الخير لهم والأحسن بهم أن يلتزموا بالأصل المتفق عليه بين الجميع عند الاختلاف في وجهات النظر والتنازع في أي أمر وأن يحتكموا إلى الله ورسوله ليتبين الحق والأخذ بالقول الفصل فيه كما أمرهم الله عز وجل بذلك في أكثر من آية منها قوله تعالى: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**﴾الشورى ١٠. وقوله:﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً**﴾. النساء: ٩ والاحتكام إلى الله ورسوله: يعني الاحتكام إلى الكتاب والسنة.

٤ ـ إن الأصل في هذا الباب والمجمع عليه بين الجميع أن الإنسان يدخل في الإسلام بالنطق بالشهادتين ظاهراً، وبذلك يعصم ماله ودمه إلا بحقها ويحكم له بالإسلام وأما باطنه فموكول علمه إلى الله عز وجل وهذا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من ذلك قوله تعالى ﴿**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾ الحجرات: ١٤.

قوله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) متفق عليه[١].

وحديث أسامة بن زيد بن حارثة قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم قال فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله قال فكف عنه الأنصاري فطعنته برمح فقتلته: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ فقال لي يا أسامة أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟ قلت يا رسول الله إنما كان متعوذاً قال: «أقتلته بعد أن قال لا إله الله؟ فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»[٢].

(١) جامع الأصول: ١/٢٤٥.
(٢) أخرجه البخاري: ٩/٤٠٢.

وإذا كان الأمر كذلك فـإن إخراج المسلم من الإسـلام لا يكون إلا بـدليل قاطع وذلك أن دليل الخروج من الإسلام يجب أن يكون مثل أدلة الدخول فيه ويكون ممن أثبت له الإسلام بنص عن الله سبحانه وتعالى ورسوله لا العقل وقد قام الدليل على أن الذي يخرج المسلم من إسـلامه هـو الكفر البـواح الـذي ذكره القـرآن وبين لنا حقيقته رسول الله ﷺ في سنتـه وسيرتـه، ومـا وجدنا في سيرة رسول الله ﷺ أن الرسول ﷺ أخـرج صحابيـاً من الإسلام بوقوعه في ذنب كبير أو معصية عظيمة غير معصية الكفر والإشـراك فحصل القتل والزنا وشرب الخمـر وحصلت ألفاظ ولكن أصحـابها بقـوا على اسم الإسلام وأجريت عليهم أحكامه ووكل أمرهم في الآخرة إلى الله وطمع مـا عنده بما وعد في قولـه ﴿**إن الله لا يغفر أن يشـرك به ويغفـر ما دون ذلـك لمن يشـاء**﴾ وفي بيعة العقبـة الأولى عن عبادة بن الصـامت رضي الله عنـه قال: كنا أحد عشر رجلاً في العقبة الأولى فبايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء قبل أن يفرض علينا الحرب بـايعناه على أن لا نشـرك بالله شيئـاً ولا نسرق ولا نـزني ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينـا وأرجلنا ولا نقتـل أولادنا ولا نعصيه في معروف فمن وفى فله الجنة ومن غشي شيئاً فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. متفق عليه.

٥ ـ وحتى لا تتيه الفهوم وتزيغ العقول، فيما ضل فيه من ضـل قديمـاً في هذا الباب وزاغ به من زاغ، وهلك في العصر الحديث من هلك بمن أحيـوا ما أميت وانـدرس، ذكر الشهيـد البنا رحمـه الله هـذا الأصـل ليضبط بـه فهم العاملين للإسـلام والداعين إليه حتى لا يقضوا في الفتنـة وحتى يحافـظوا على الوحدة وجمع الكلمة بما وحد وجمع السلف الصالح أهل الحق عليه بقـوله «لا نكفـر مسلماً أقـر بالشهـادتين وعمل بمقتضـاهما وأدى الفـرائض برأي أو معصية. . . الخ وهذا توضيح ذلك وبيانه.

التوضيح والبيان

(لا تكفر) الكفر لغة: التغطية والستر يقال لليل كافر لأنه يستر الأشياء بظلمته وفلان كفر النعمة إذا سترها ولم يشكرها وهو بهذا المعنى ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: الكفر بأصل الإيمان وهو ضده: وهو صفة من جحد شيئاً مما افترض الله تعالى الإيمان به بعد قيام الحجة وبلوغ الحق، وكذلك صفة من عمل عملاً جاء النص بأنه مخرج لفاعله عن اسم الإيمان. وهو على أربعة أنحاء.

١ ـ **كفر إنكار**: بألا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به ككفر كثير من الوثنيين من عباد الطبيعة وغيرها.

٢ ـ **كفر جحود**: وهو أن يعرف الله بقلبه، وذلك ككفر المشركين وأهل الكتاب قال تعالى **﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾** النمل ١٤.

٣ ـ **وكفر عناد**: وهو أن يعترف بقلبه ويقر بلسانه ولا يدين به حسداً وبغياً ككفر أبي جهل وأضرابه.

٤ ـ **وكفر نفاق** وهو أن يقر بلسانه ولا يعتقد بقلبه.

وهذه الأربعة من لقي الله تعالى بواحد منها لم يغفر له[1] وستأتي أدلتها قريباً.

والثاني: وهو كفر بفروع الإسلام فلا يخرج به عن أصل الإيمان وهو الذي يطلق عليه بعض أهل العلم بالكفر العملي وبعضهم الكفر المجازي، الذي لا ينقل المتصف به عن الملة بالكلية ويبقى معه صاحبه على وصف الإسلام، وهو الذي دلت عليه كثير من النصوص

---

(١) انظر النهاية لابن الاثير: ٤/ ١٨٦ وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ١١٦.

الواردة في هذا الباب، إلا إذا اقترن بها استحلال فإنه بذلك ينتقل من الفرع إلى الأصل ومن النصوص الدالة على هذا القسم قوله تعالى **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** المائدة: ٤٤ وقوله ﷺ (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) متفق عليه[١] من حديث ابن مسعود وقوله ﷺ (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما) متفق عليه[٢] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقوله ﷺ (بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة) رواه مسلم[٣] عن جابر وقوله ﷺ (من أتى كاهناً فصدقه أو أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد) رواه الترمذي[٤] في الطهارة وقوله ﷺ (من حلف بغير الله فقد كفر) رواه الحاكم[٥] ونظائر ذلك كثير.

وفي هذه الأنواع من الأعمال وغيرها من الكبائر التي أطلق عليها اسم الكفر، وكذلك النصوص التي ذكر فيها سلب الإيمان من فاعلها، كحديث (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)[٦]، اتفق أهل السنة كلهم على أن فاعلها لا يكفر كفراً ينقله عن الملة بالكلية للنصوص الأخرى التي بينت مراد الكفر في هذه النصوص بأنه غير الكفر المخرج للملة .

والتزاماً بهذا المعتقد وسيراً على ما عليه أهل الحق قال الشهيد البنا رحمه الله «لا نكفر مسلماً» استسلم وانقاد (اقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض برأي أو معصية) لقوله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا به وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل» متفق عليه[٧]ولحديث أنس

---

(١) البخاري: ١/١٩ مسلم: ١/٨١.
(٢) البخاري: ٨/٣٢ مسلم: ١/٧٩.
(٣) مسلم: ١/٨٨.
(٤) جامع الترمذي: ١/٢١٧ بأعلا عارضة الأحوذي.
(٥) رواه الحاكم.
(٦) مسلم: ١/٧٧.
(٧) جامع الأصول ١/٢٤٥ وقال أخرجه البخاري ومسلم لم يذكر إلا بحق الإسلام.

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «ثلاثة من أصل الإيمان الكف عمن قال لا إله إلا الله، ولا نكفر بذنب، ولا نخرجه من الاسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار[1] والحديث في سنده كلام إلا أن معناه صحيح.

والمجمع عليه من أهل الإسلام أن الذي يعصم ماله ودمه بالشهادتين هو المسلم وأما عصمة أموال ودماء أهل الذمة فتكون بالعهد ولا يشترط فيهم النطق بالشهادتين.

والإمام الطحاوي رحمه الله قرر هذا الأصل بقوله (ونسمي أهل قبلتنا مسلمين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين وله بكل ما قال وأخبر مصدقين) قال الشارح لقوله ﷺ (من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له مالنا وعليه ما علينا) رواه البخاري في الصلاة[2] وقال أيضاً (لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب عمله).

قلت هذا هو التوسط لأهل السنة والجماعة بين الطرفين الخوارج الذين قالوا بالتكفير على كل ذنب والمرجئة الذين قالوا لا يضر مع الإيمان ذنب، ونفوا التكفير نفياً تاماً مع العلم بأن في أهل القبلة المنافقين الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والاجماع، وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم ومع ذلك هم يتظاهرون بالشهادتين.

وأيضاً فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة واستحل المحرمات الظاهرة المتواترة ونحو ذلك فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافراً مرتداً[3].

---

(١) جامع الأصول: ١/٢٤٢. وقال أخرجه أبو داود بتحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة رقم ٢٥٣٢ في الجهاد وفي سنده يزيد بن أبي شيبة الراوي عن أنس وهو مجهول.

(٢) جامع الأصول ١/٢٤٧ وهو بلفظ (من شهد أن لا إله إلا الله واستقبل قبلتنا وصلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما للمسلم وعليه ما على المسلم.

(٣) انظر شرح الطحاوية: ١/٣٢/٣٣.

ولذلك قال الشهيد البنا رحمه الله مستثنياً (إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر) هذه أمثلة لبعض الأقوال والأفعال التي تخرج المسلم المقر بالشهادتين عن دائرة الإسلام والإيمان وتدخله في دائرة الكفر والارتداد لأنها من نواقض الإيمان ومبطلاته. ولقد أجمع المسلمون على كفر من قال أو فعل شيئاً من ذلك فالإقرار الكلي للكفر، من مثل إنكاره لوجود الله مثلاً أو إنكاره للرسل أو بعضهم. أو الكتب السماوية أو البعث وكفره بالإسلام، أو استهزائه بشيء من الكتاب والسنة أو بأهلها من أجلهما أو بحكم من حكم الله تعالى أو شعيرة من شعائره لقوله تعالى: **﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾** وقد نزلت هذه الآيات في المنافقين الذي سخروا من رسول الله وأصحابه في غزوة تبوك حين قالوا **﴿ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً وأجبن عند اللقاء﴾**.

وإنكار المعلوم من الدين بالضرورة: كإنكار الصلاة، أو الصوم أو الزكاة، أو الحج أو إنكار تحريم الربا أو الزنا، أو السرقة، أو شرب الخمر، ونحو ذلك.

أو تكذيب صريح القرآن، بأن ينفي شيئاً مما قرره القرآن الكريم بما لا يحتمل تأويلاً مثل النفي للملائكة أو الجن والشياطين، أو التكذيب لقصصه وأخباره كقصة موسى مع فرعون أو قصة إبراهيم مع قومه، أو بناء الكعبة وما أشبه ذلك أو تفسير القرآن الكريم على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال: مثل تفسير الغلاة من أصحاب البدع والضلال الذين حملوا ألفاظ القرآن الكريم على معتقداتهم من غير سند من سلف الأمة الصحابة فمن تبعهم بإحسان ولا توافقها وجوه أساليب اللغة كتفسير الفلاسفة والقرامطة

والرافضة وأشباههم فإنهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي منها العالم عجبه كقولهم في ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ في أبي بكر وعمر وفي قوله ﴿ولئن أشركت ليحبطن عملك﴾ أي ما بين أبو بكر وعمر وعلي في الخلافة وفي قوله ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ هي عائشة وفي قوله ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ طلحة والزبير، وفي قوله ﴿مرج البحرين﴾ علي وفاطمة، وفي قوله ﴿اللؤلؤ والمرجان﴾ الحسن والحسين، وأشباه ذلك كثير ومما يقارب هذا تفسير بعضهم في قوله تعالى ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾ إن الصابرين رسول الله والصادقين أبو بكر، والقانتين عمر، والمنفقين عثمان، والمستغفرين علي وأمثال ذلك من الخرافات التي تتضمن تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال، وتارة تتضمن جعل اللفظ المطلق العام منحصر في شخص واحد ونحو ذلك[1].

وأما عمل ما لا يحتمل بالتأويل غير الكفر، مثل السجود لصنم أو شمس أو قمر أو حمل الصليب لغير خدعة حرب أو إكراه أو فعل شيئاً يدل صريحاً على الاستهزاء بالدين أو الرسول ﷺ أو بأصحابه الكرام، أو حرب الشريعة الإسلامية أو استبدالها بقوانين بشرية تعطيلاً للأحكام الشرعية وغير ذلك من الأعمال الصريحة الدالة على الكفر والارتداد وليس ما ذكره هنا الشهيد من الأمثلة في هذا الباب هي الحصر وإنما غيرهما كثير اعتنت بها كتب العقائد والتوحيد وذكرت كثيراً من ذلك.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

---

(١) انظر مقدمة في التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية.

الخاتمة

وبعـد، فهذا آخـر ما يسـر الله عز وجـل به عليّ من الشـرح والتوضيـح والبيان لهذه الأصول الهامة والمفيدة إن شـاء الله تعالى، والتي وضعهـا الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله لتكون أصول فهم للإسـلام بشموله وكمالـه كما فهمه الصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان، حيث وقد أصاب هذا الفهم في عصـرنا هـذا غبش ونالـه الدخن، وغـاب الميزان الصحيـح للفهم السليم في خضم الأفكـار والمـذاهب المتعـددة التي أنتجتهـا الأهــواء والأحقـاد وزيــغ الاعتقاد، وباركهـا الأعداء ونمـوها في أمـة الإسلام فكـان من نتائج ذلك مـا يحسه كل عاقل ألقى السمـع وهو شهيـد والواقـع خير شـاهد ولا يحتـاج إلى بسط وتوضيح دليل.

ولذلك جـاءت هذه الأصـول في وقت أشد مـا تكون هـذه الأمة حـاجة إليها لتنير لهـا الطريق وتـوضح لهـا السبيل وتضـع لها الميـزان الصحيح لفهم دينها من مصادره الأصلية الأساسية كتاب الله وسنـة رسولـه ﷺ فهماً صحيحاً فتتحقق لهـا بسببه الخيـرية وتنـال به الفـوز في الحيـاة الـدنيـا والأخـرى وفي الحديث «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

فأرجو أن أكون قد وفقت للقيام بحقها من الشرح المبين ليكون مفتـاحاً لمن يريد البسط والتوسع المفيد. وأن أكون قد التزمت ووفيت بما شرطت في منهج الشرح وطريقته وأسلوبه.

وأسـأل الله عز وجـل أن يجعله خالصـاً لوجهـه الكـريم، وأن ينفـع بـه شباب هذه الأمة ورجالها وأن يكتب أجره وثوابه لـوالدي ومشايخي في الدين

الذين كانوا سبباً في حسن تربيتي وإجادة تعليمي من الصغر حتى وصلت هذا العمر المديد.

وأتضرع إلى الله عز وجل وهو صاحب الضراعة والمختص بالالتجاء إليه في كل وقت وحين أن يجعل لهذه الأمة أمر رشد، ويمنحها الهداية ويرزقها قبساً من نور حتى يصلح حالها وتراجع أمر دينها، وتطبق شريعتها ويكتب لها النصر على أعدائها إنه ولي ذلك وهو على كل شيء قدير وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين. ٢٩/شعبان سنة ١٤٠٧ هـ.

مراجع الشرح

مسلسل	الاسم	المؤلف	الطبعة
(١)	الصحيح الجامع	لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري	دار الشعب بمصر
(٢)	صحيح مسلم	للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري	عيسى البابي الحلبي وشركاه بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي
(٣)	سنن أبي داود	للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني	مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
(٤)	سنن النسائي	للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي	المصرية بالأزهر
(٥)	سنن الحافظ	أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجه	عيسى البابي الحلبي وشركاه بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
(٦)	جامع الأصول	للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير تحقيق عبد القادر الأرناؤط	مطبعة الملاح
(٧)	مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	للحافظ نور الدين علي بن أبي الهيثمي	دار الكتاب بيروت
(٨)	جامع الترمذي		
(٩)	مصنف عبد الرزاق	للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني تحقيق حبيب الرحمن الأعظم	منشورات المجلس العلمي
(١٠)	سنن الدارمي	للإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي تحقيق محمد أحمد دهمان	نشر دار إحياء السنة النبوية

مسلسل الاسم	المؤلف	الطبعة
(١١) رياض الصالحين	**للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي تحقيق شعيب الأرناؤوط**	مؤسسة الرسالة
(١٢) **كنز العمال في** سنن الأقوال والأفعال	**للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي**	نشر مكتب التراث الإسلامي حلب.
(١٣) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير	**للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي**	دار الكتب العلمية
(١٤) حديث الأربعين النووية	**يحيى بن شرف النووي**	مؤسسة علم القرآن بدمشق
(١٥) جامع بيان العلم وفضله	**أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري**	دار الكتب العلمية بيروت
(١٦) حياة الصحابة	**محمد يوسف الكاند هلوي**	دار العلم دمشق
(١٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري	**للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز.**	المكتبة السلفية
(١٨) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي	**للإمام الحافظ بن العربي المالكي**	دار الكتب العلمية بيروت لبنان
(١٩) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي	**للإمام محمد عبد الرحمن بن الحافظ عبد الرحيم الهندي الناشر الحاج حسن إيراني**	دار الكتاب العربي بيروت لبنان.
(٢٠) شرح الزرقاني على الموطأ	**للإمام محمد الزرقاني**	عبد الحميد أحمد حنفي بمصر.
(٢١) الفتح الرباني	**لترتيب مسند الإمام أحمد لأحمد عبد الرحمن البنا**	مطبعة دار **الحديث بالقاهرة**
(٢٢) **شرح صحيح** صحيح الإمام مسلم	**للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي. بهامش إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**	دار الفكر بيروت.
(٢٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار	**للإمام محمد بن علي الشوكاني اليماني**	دار الفكر بيروت

مسلسل الاسم	المؤلف	الطبعة
(٢٤) فتح المبين شرح حديث الأربعين	لأحمد بن حجر الهيثمي	عيسى البابي الحلبي وشركاه
(٢٥) النهاية في غريب الحديث والأثر	مجد الدين أبي السعادات المبارك ابن محمد بن الأثير	عيسى البابي الحلبي وشركاه
(٢٦) قطر الولي على حديث الولي	محمد بن علي الشوكاني تحقيق إبراهيم هلال.	دار الكتب الحديثة.
(٢٧) جامع العلوم والحكم	لابن رجب الحنبلي	رئاسة دار البحوث بالرياض
(٢٨) بهجة النفوس وتحليها بما لها وما عليها	أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة.	دار الجيل.
(٢٩) زاد المعاد في هدي خير العباد	للإمام ابن قيم الجوزية	المطبعة المصرية
(٣٠) سيرة النبي ﷺ	أبو محمد عبد الملك بن هشام	مكتبة الجمهورية
(٣١) تحفة الزمن	للسيد حسن عبد الرحمن الأهدل	مخطوط
(٣٢) الاعتصام	أبو اسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي تحقيق محمد رشيد رضا	دار المعرفة بيروت
(٣٤)الموافقات في أصول الشريعة	أبو اسحاق ابراهيم بن موسى الشاطبي تحقيق محمد عبد الله دراز	دار المعرفة بيروت
(٣٥) الفروق	ابو العباس أحمد بن إدريس القرافي	عالم الكتاب بيروت
(٣٦) الأحكام في أصول الأحكام	سيف الدين علي الآمدي	دار الكتب العلمية بيروت
(٣٧) قواعد الأحكام في مصالح الأنام	أبو محمد عز الدين بن عبد السلام	دار الكتب العلمية بيروت
(٣٨) مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر	محمد الأمين الشنقيطي	الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
(٣٩) المدخل إلى أصول الفقه	محمد معروف الدواليبي	مطابع دار الملايين
(٤٠) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية	د/عبد الكريم زيدان	مطبعة المثنى بغداد

مسلسل الاسم	المؤلف	الطبعة
(٤١) مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية	علي علي منصور	دار الفتح للطباعة والنشر بيروت.
(٤٢) علم أصول الفقه	عبد الوهاب خلاف	دار القلم الكويت
(٤٣) اللمع في أصول الفقه	لأبي إسحاق الشيرازي	طبع على نفقة الباز بمكة
(٤٤) ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين	عبد الجليل عيسى	دار البيان الكويت
(٤٥) التنبيه على الاسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين	للفقيه أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي	طبعة دار الاعتصام.
(٤٦) إيقاظ همم أولي الأبصار	للشيخ صالح بن محمد الفلاني	توزيع دار الباز مكة المكرمة
(٤٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة	للشيخ أبي القاسم الراغب الأصفهاني	دار الكتب العلمية
(٤٨) الفتاوى الكبرى	لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية	مكتبة المعارف بالمغرب
(٤٩) مراتب الاجتماع	للإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم	
(٥٠) الرسالة	للإمام محمد ابن ادريس الشافعي	دار التراث القاهرة
(٥١) المجموع شرح المهذب	للإمام أبي زكريا يحيى شرف النووي	طبعة شركة من علماء الأزهر
(٥٢) الروضة الندية شرح الدرر البهية	أبو الطيب صديق بن حسن القنوجي	دار المعرفة بيروت
(٥٣) الأحكام السلطانية	أبي الحسن بن محمد الماوردي	دار الكتب العلمية بيروت
(٥٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر	أحمد بن حجر الهيثمي المكي	مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي
(٥٥) التشريع الجنائي	عبد القادر عوده	دار الكتاب العربي

مسلسل الاسم	المؤلف	الطبعة
(٥٦) إحياء علوم الدين	أبو حامد محمد الغزالي تخريج العراقي	دار الفكر بيروت
(٥٧) الآداب الشرعية والمنح المرعية	محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي	رئاسة دار البحوث العلمية بالرياض.
(٥٨) مدارج السالكين	للعلامة ابن قيم الجوزية تحقيق محمد الفقي	دار الكتاب العربي بيروت
(٥٩) تهذيب مدارج السالكين	عبد المنعم صالح العلي	دولة الامارات العربية
(٦٠) أعلام الموقعين عن رب العالمين	للإمام ابن قيم الجوزية	دار الكتب الحديثة مصر
(٦١) بستان العارفين	للإمام يحيى بن شرف النووي	مطبعة زيد بن ثابت دمشق
(٦٢) الرسالة القشيرية في علم التصوف	أبو القاسم عبد الكريم القشيري	مكتبة محمد علي صبيح وأولاده
(٦٣) جولات في الفقهين الكبير والأكبر	سعيد حوى	مؤسسة الرسالة.
(٦٤) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية	للعلامة علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي تحقيق أحمد شاكر	مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.
(٦٥) شرح الطحاوية في العقيد السلفية	لابن أبي العز تحقيق عبد الرحمن عميرة	مكتبة المعارف بالرياض.
(٦٦) شرح العقدة الواسطية	لمحمد خليل هراس والعقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية	الناشر محمد عبد المحسن الكتبي.
(٦٧) العقائد الاسلامية	لسيد سابق	دار الكتاب العربي بيروت.
(٦٨) مبادىء الاسلام	لأبي الأعلى المودودي	مؤسسة الرسالة
(٦٩) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد	للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ	مكتبة الرياض الحديثة
(٧٠) الرسائل السلفية	للإمام محمد بن علي الشوكاني	دار الكتب العلمية بيروت

مسلسل الإسم	المؤلف	الطبعة
(٧١) كتاب التوحيد	للأستاذ/عبد المجيد الزنداني	طبعة رئاسة المحاكم الشرعية بدولة قطر
(٧٢) العقائد	للإمام الشهيد حسن البنا	
(٧٣) الفرق بين الفرق	للإمام عبد القاهر بن طاهر البغدادي	دار المعرفة بيروت
(٧٤) السنن والمبتدعات	لمحمد عبد السلام خضر الشقيري	مكتبة جمهورية مصر
(٧٥) البدعة	للدكتور عزت علي عطية	دار الكتاب العربي بيروت
(٧٦) الإبداع في مضار الابتداع	للشيخ علي محفوظ	دار المعرفة
(٧٧) عقد الجيد في أحكام التقليد	محمد بن علي الشوكاني	
(٧٨) العبودية	لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية	المكتبة الاسلامية
(٧٩) اقتضاء الصراط المستقيم	شيخ الإسلام أحمد بن تيمية	مطابع المنجد التجارية
(٨٠) الدر المنضود	محمد بن علي الشوكاني	
(٨١) شرح الصدور في تحريم رفع القبور	محمد بن علي الشوكاني	
(٨٢) التوسل أنواعه وأحكامه	محمد ناصر الدين الألباني	المكتبة الاسلامية
(٨٣) الوازعة للمعتدي عن صحابة سيد سيد المرسلين	للإمام يحيى بن حمزة	
(٨٤) التوسل والوسيلة	شيخ الإسلام أحمد بن تيمية	
(٨٥) تفسير الطبري	أبو جعفر محمد بن جرير الطبري	دار الفكر بيروت
(٨٦) تفسير الجامع لأحكام القرآن	لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي	دار الكاتب العربي للطباعة
(٨٧) تفسير ابن كثير	أبو الفدا إسماعيل بن كثير	دار الفكر بيروت

مسلسل الإسم	المؤلف	الطبعة
(٨٨) تفسير غرائب **القرآن**	**نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري**	**دار الفكر بيروت**
(٨٩) **أضواء البيان**	**محمد الأمين الشنقيطي**	مطبعة المدني
(٩٠) في ظلال القرآن	**سيد قطب**	دار الشروق
(٩١) الأساس في التفسير	**سعيد حوى**	دار السلام
(٩٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن	**للعلامة الراغب الأصفهاني**	دار الكاتب العربي
(٩٣) تفسير مختصر ابن كثير	**محمد بن علي الصابوني**	دار القرآن الكريم
(٩٤) مناهل العرفان	**محمد عبد العظيم الزرقاني**	إحياء التراث العربي
(٩٥) البرهان	**بدر الدين محمد عبد الله الزركشي**	عيسى البابي الحلبي وشركاه
(٩٦) مقدمات في تفسير القرآن	**الشهيد حسن البنا**	مكتبة حطين بيروت
(٩٧) مقدمة تفسير القرآن	**تقي الدين أحمد بن تيمية**	دار القرآن الكريم
(٩٨) لسان العرب	**ابو الفضل بن منظور الأفريقي المصري**	دار صادر بيروت
(٩٩) القاموس المحيط	**مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي**	المؤسسة العربية بيروت
(١٠٠)الصحاح	**إسماعيل بن حماد الجوهري**	دار الكتاب العربي ـ مصر ـ
(١٠١)المنجد		طبعة دار الشروق
(١٠٢)تهذيب الأسماء والألقاب	**يحيى بن شرف النووي**	دار الكتب العلمية
(١٠٣)في آفاق التعاليم	**سعيد حوى**	مطابع التراث العربي
(١٠٤) الإسلام	**سعيد حوى**	دار الكتب العلمية
(١٠٥)شرح الأصول العشرين	**عبد الحكيم خيال**	دار الدعوة للطباعة والنشر الاسكندرية
(١٠٦)رسالة السلام في الإسلام	**الشهيد حسن البنا**	الدار السعودية
(١٠٧)محاضرة الشريعة الاسلامية	**عبد الله ناصح علوان**	دار السلام للطباعة والنشر

مسلسل الإسم	المؤلف	الطبعة
(١٠٨)شرح الأصول العشرين	عبدالله البنا	دار الأنصار
(١٠٩)معالم الثقافة الاسلامية	عبد الكريم عثمان	مؤسسة الأنوار الرياض
(١١٠)الاتجاهات الوطنية للأدب المعاصر	محمد محمد حسين	مؤسسة الرسالة
(١١١)معالم في الطريق	سيد قطب	دار الشروق
(١١٢)رسالة نحو النور	الشهيد حسن البنا	المؤسسة الاسلامية بيروت
(١١٣)رسالة الى أي شيء يدعـو الناس	الشهيد حسن البنا	المؤسسة الاسلامية بيروت
(١١٤)رسالة الى مشكلاتنا في ضوء النظام الاسلامي	الشهيد حسن البنا	المؤسسة الاسلامية بيروت
(١١٥) أصول الدعوة	عبد الكريم زيدان	مكتبة المنار الاسلامية
(١١٦)رسالة المؤتمر الخامس	الشهيد حسن البنا	المؤسسة الاسلامية بيروت
(١١٧)خلق المسلم	محمد الغزالي	مطبعة حسان القاهرة
(١١٨)لمحات في الثقافة الاسلامية	عمر عودةالخطيب	مؤسسة الرسالة
(١١٩)القانون الاسلامي وطرق تنفيذه	لأبي الأعلى المودودي	دار الفكر
(١٢٠)الرسول والعلم	يوسف قرضاوي	دار الصحوة
(١٢١)نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي	ظافر القاسمي	دار النفائس
(١٢٢)الاسلام نظام انساني	حسن تميم	منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت
(١٢٣)التكافل الاجتماعي في الاسلام	عبد الله ناصح علوان	دار السلام للطباعة والنشر
(١٢٤)الاعلام في صدرالاسلام	عبد اللطيف حمزة	
(١٢٥)القتال في الاسلام	احمد نار	الدار السعودية
(١٢٦)أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها	عبد الرحمن حسن حبنكة	

مسلسل الإسم	المؤلف	الطبعة
(١٢٧)رسالة دعوتنا في طور جديد	حسن البنا	المؤسسة الاسلامية بيروت
(١٢٨)نظرات في القرآن	حسن البنا اعداد عاشور	
(١٢٩)السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي	مصطفى السباعي	
(١٣٠)تربيتنا الروحية	سعيد حوى	دار الكتب العربية بيروت
(١٣١)رسالة التحف في مذاهب السلف	محمد بن علي الشوكاني	
(١٣٢)الايمان والحياة	يوسف القرضاوي	
(١٣٣)دستور الوحدة الثقافية	محمد الغزالي	دار الانصار
(١٣٤)التربية الاسلامية	محمد قطب	دار الشروق ودار دمشق

فهرس كتاب النهج المبين لشرح الأصول العشرين

تصــــويبات

رقم الصفحة	السـطر	الخطـأ	الصــواب
١٠	١٣	وإن	وأنَّ
٢٢	١٩	المخـالفة	الموافقـة
٧٢	١٨	بأمور ديناكم	بأمور دنياكم
٧٦	١٧	أحداهما	إحـداهما
٨٢	٦	لكم مبين	لكم عدوٌ مبين
١٠١	٩	بـرءاء	بُرآؤاْ
١٥٥	١١	الـذل	الـذي
١٨٩	١٧	به ذوي عدل	به ذوا عدل
١٧٤	١	من يعـلم	من يعمـل
١٠٦	١٩	الهـواء	الهـوى
١٠٩	١٣	على شيء	على كل شيء
٢٧٧	٢٢	وأن يمسسك	وإن يمسسك
٢٧٧	٢٢	وأن يُردك	وإن يُردك
٢٧٧	٢٥	أرادني برحمته	أرادني برحمة
٢٩٠	١	مسجداً وصورا	مسجداً وصوروا
٣١٨	٢١	البقـرة ٦	العصـر ٣
٣٢٩	١	الذين يعملون	الذين يعلمون
٣٤٨	١٢	وعلـوا	وعلـواً
١١	٢١	المنتشرون	المنتشرين
٧٥	١٣	وأن أحـكم	وأنِ احـكم
٣١٧	١	الذين آمنوا	الذين آمنوا وعملوا
٣١٦	٢١	على الخبـر	على الخيـر

دار الأصفهاني للطباعة بجدة